SALAH AL-DIN AL-SAFADI

LITTERATEUR AND HISTORIAN: CRITICAL STUDY

THESIS

SUBMITTED FOR THE AWARD OF THE DEGREE OF

DOCTOR OF PHILOSOPHY

IN

ARABIC

BY

ABUL BURHAN MD. MUKHLESUR RAHMAN

UNDER THE SUPERVISION OF

DR. ABDUL BARI
PROFESSOR & CHAIRMAN

DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH (INDIA)

1999

صلاح الدين الصفدي

أديباً ومؤرخاً: دراسة نقدية

خلاصة البحث

رسالة قدمت لنيل شهادة الدكتوراة في الأدب العربي

إعداد

أبو البرهان محمد مخلص الرحمن

تحت إشراف

الدكتور عبد البارى

البروفيسر و رئيس القسم

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة عليكره الإسلامية

عاليكره، الهند

١٩٩٩م

خلاصة البحث

خلاصة البحث

لقد شهد العالم العربي تقلباتٍ وتطوراتٍ في مجال ثقافتها وحضارتها وتقدم تقدّماً باهراً تحت ظلال الأمم والملوك المختلفة. وكانت المماليك من هذه الأمم التي لعبت دوراً كبيراً في تقدم الأمة العربية الإسلامية وتطوير علومها وثقافتها كما أنها بذلت جهودها في إيقاف التقدم المغولي وتصفية الإمارات الصليبية في البلدان العربية كلها، وفي عصرها برزت نخبة من كبار الأدباء والكتاب في علوم وفنون مختلفة عكفوا حياتهم على إيقاظ الأفكار الخامدة واستعادة تراثهم العلمي الثقافى الذي توقف نهوضه بالصراعات والاضطرابات التي اشتغل لهيبها بحملة المغول والصليبيين على العالم العربي. وكان من هؤلاء العلماء من خلف مؤلفات عديدة في شتى العلوم والفنون، ولاشك أن صلاح الدين الصفدي من هؤلاء العلماء البارزين في فنون شتى. فكان من الواجب أن يبحث عن هذا الدور وعن هذه الشخصية، فإسهاماً في أداء هذا الواجب اخترت موضوع بحثي "صلاح الدين الصفدي أديباً ومؤرخاً دراسة نقدية" وبعد مطالعة الكتب العلمية ودراستها قسمت البحث على خمسة أبواب، قدمت في بدايتها مقدمة وذيلت في ختامها خاتمة، وفي المقدمة بينت العوامل الدافعة إلى اختيارى لهذا الموضوع للبحث، وهي رفع الحجاب عن حقيقة عصر المماليك والكتابة عن شخصية برزت في هذا العصر، وأسهمت في تأليف عدد كبير من المصنفات، ثم بينت خطة البحث، ثم قدمت الشكر إلى من يستحقه وفي الخاتمة تحدثت عن النتائج التي وصلت إليها بالبحث والدراسة.

أما خلاصة الأبواب الخمسة فكما تلي:

الباب الأول في بيان فضائل بلاد الشام وأحوالها السياسية والاجتماعية والثقافية في عصر صلاح الدين الصفدي ووصف أرض 'صفد'. فكانت بلاد الشام آنذاك تحت سيطرة المماليك وهم حكموها مأتين وسبعين سنة، وكانت الحياة السياسية مقلقلة ومضطربة، كما كثرت فيها الحروب الداخلية والخارجية وبسبب الاضطرابات السياسية زادت شدة المجاعة والقحط والزلازل والطاعون التي نزلت في البلاد فعم الموت والهلاك. والمماليك قد قاموا بثلاثة أمور عظيمة في مجال سياستهم: فإنهم قد طردوا الصليبيين من بلاد العرب، وصدوا غزوات التتر بحيث أنهم

سحقهم سحقا ذريعا فلم يعودوا يفكرون في غزو الشام وأنهم فكروا وارتدوا إلى صوابهم سريعا، ومحوا شوكة الطوائف التي خرجت عن الإسلام في لبنان وسورية وأثبتوا سيادة السنة. وإن كان قد تسببت كثرة انتقال الحكومة من شخص إلى شخص وفرضهم ضرائب فادحة. وقلة تجاربهم في الأمور السياسية إلى تشويع الاضطراب والفوضى في البلاد.

والحياة الاجتماعية في هذه الفترة كانت تظهر من عادات المماليك وتقاليدهم، ومن خواص هذه الطبقة أنهم جمعوا بين الصلاح في الشعب والاستمساك بقواعد الدين الحنيف من صلاة وزكوة وتشييد العمائر الدينية وغير ذلك، بينما كانوا في حياتهم الخاصة لا يتورعون عن إتيان أشنع المنكرات والتعسف في أذى الخلق وإهراق الدماء. حتى طهر البلاد بعض الحكام المحبين للدين.

كانت بلاد الشام رغم اضطراب سياسيتها واجتماعيتها، وقد تطورت تطوراً باهراً في ميدان ثقافتها في عصر المماليك كثرت فيه المدارس والمكاتب والمساجد ودوراً للأيتام ومؤسسات دينية، كما برزت فيه نخبة من الأدباء والكتاب والمؤرخين والمحدثين والمفسرين الذين خلّدوا آثاراً قيمة، وبعضهم خلف أكثر من مائة كتاب فبلغ عدد الكتب النافعة لهؤلاء العلماء إلى عشرات آلاف. وكان هذا العصر عصر الازدهار والتطور في العلوم والثقافة. ولكن لم ينصف المستشرقون هذا العصر، وقالوا أنه عصر الانحطاط والانحدار وتبعهم بعض الكتاب العرب المحدثين، وقولهم هذا مخالف للحقيقة الواقعية.

أما الباب الثاني في بيان حياة صلاح الدين الصفدي فقد تناول الباحث الكلام عن ولادته أنه ولد في 'صفد' في فلسطين سنة ٦٩٦هـ ولو ذهب بعض الكتاب إلى أنه ولد في سنة ٦٩٧هـ، ثم بين اسمه الكامل وهو صلاح الدين أبو الصفاخليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي الشافعي، ثم أشار إلى أسرته، بعد ذلك وقف عند نشأته وتعلمه حيث إنه أخذ العلوم الابتدائية من مسقط رأسه فقط وتوقف لأن أباه لم يمكنه من دراسة العلوم العالية حينئذ فحصل عليها بعدما بلغ العشرين. ثم تحدث عن رحلته في طلب العلم بأنه قد قام بعدة رحلة إلى القاهرة ودمشق ومدن الشام الأخرى لطلب العلم والعمل في دواوين الإنشاء وكتابة الدست والسر، وذكر من شيوخه ابن نباتة المصري وأبا حيان النحوي والحافظ المزى وابن جماعة والحافظ الذهبى وابن سيد الناس،

وذكر وفاته بأنه توفى بدمشق في ٧٦٤هـ في شوال. ورفع الحجاب عن حقيقة دفنه وقبره واعتمد الباحث فيه على قول على الطنطاوي أنه دفن في مقبرة الصوفية. وفي ختام الباب تحدث عن أخلاق الصفدي وصفاته النفسية، وذكر فيه أقوال الأدباء المعاصرين والكتاب المحدثين، وهو أنه جمع محاسن الشيم ومكارم الأخلاق في نفسه إلى جانب تحليته بعدة صفات معنوية، فكان محبباً إلى الناس بجميل سيراته وحسن معاشراته ومؤدته، وكان منتهى المكارم والأخلاق، كما أنه كان إماماً بارعاً كاتباً شاعراً ذا مصنفات كثيرة.

واستعرض الباحث في **الباب الثالث** بعض المعاصرين لصلاح الدين الصفدي ولما كان عصره حافلاً بالعلماء والأدباء والكتاب، لم يمكن للباحث تحديد جميع المعاصرين له، بل قصر كلامه على ذكر أربعة منهم، وهم:

(١) شمس الدين الذهبي فكتب مولده وطلبه للعلم ورحلته له وأساتذته وأحباءه وتلاميذه ومنزلته العلمية ووفاته ومؤلفاته ثم اتصاله بالصفدي.

(٢) ابن كثير كتب عنه ولادته ونشأته ودراسته ووفاته ومؤلفاته ثم اتصاله بالصفدي.

(٣) تاج الدين السبكي تحدث عن مولده ونشأته وتعليمه ووفاته ومؤلفاته ثم اتصاله بالصفدي.

(٤) ابن نباتة المصري ذكر الباحث مولده ونشأته ودراسته ووفاته وشعره ومؤلفاته ثم اتصاله بالصفدي.

الباب الرابع في بيان مساهمته في الأدب والتاريخ والبلاغة. وقد تعرض الباحث عن الكلام عن أكثر الاتجاهات الأدبية والعلمية. أسهم فيها الصفدي فاستعرضه أديباً. بيّن فيه أنه دخل في مجال الأدب من بابيه النظم والنثر. فكما أنه كان شاعراً مجيداً دخل بأشعاره الرائقة في زمرة الشعراء المشهورين في عصره، وخلف ديوانا مشهوراً في الشعر فقده كرّ الغداة ومرّ العشي إلى جانب صعد ذروة كتابة النثر الأدبى فصار من فحول الكتاب في زمنه، فإنه كان أديباً مفتناً وصاحب أسلوب رائع رائق فهو مكثار في نثره وشعره ويلوح لمن يخوض في بحر نثره الأدبى أن الصناعة البديعة كانت صفة بارزة فيه، وهذا لا يعنى أن جميع نثره مملوء بالصناعة البديعية بل كان عنده أيضا الأسلوب المرسل تحرر من قيود صناعة البديع التي عرفت في عصره والتي كان يلتزمه

كتاب زمانه، نعم، أنه كان اتخذ هذا الأسلوب في معظم كتبه الأدبية والنقدية والعديد من مؤلفاته التي ترجم لمشاهير الأعلام وناقش فيها كثيرا من المشاكل والقضايا الأدبية والعلمية، وفي الأسلوب الأول أخذ الصفدي طريقة القاضى الفاضل وهذا الأسلوب اتخذه بشكل خاص في مقدمة كتبه ومؤلفاته المختلفة ورسائله الإنشائية ومقامته الأدبية.

ثم تكلم الباحث عن مساهمته في النقد، فاستعرضه ناقداً وبيّن أنه كان من مشاهير نقاد القرن الثامن الهجري الذي شارك في التصنيف النقدي تطبيقا لا تنظيراً ونقد اللفظ والمعنى والسراقات الأدبية والمعارضات المتنوعة وحل المنظوم فله في هذه الاتجاهات آراء نقدية، وكان يعتمد في النقد على ناحتين: الناحية الأولى هي الجانب العلمى الذي اتخذ على عدة فروع من نحو وصرف وبلاغة وفقه. أما الناحية الثانية فهي جانب الذوق الفني الذي صقله بمعرفة وقواه بعلمه وعذاه بشاعريته وأحاسيسه.

أعقب هذا البحث باستعراضه الصفدي بلاغياً. بيّن فيه أنه برع في فن البلاغة وأنه خالف في جزئيّاتها الأدباء المعاصرين. وإن كان في دراسة ألوانها درج على نظام تقليدي لمن سبقه من البلاغيين وتأثربهم. وقد تكلم الباحث بعده عن أسلوب صلاح الدين وذوقه الأدبى. فأسلوبه كان يغلب فيه المحسنات البدعية المتكلفة فكأنه كان يسعى أولاً لوضع اللفظ البديعى ثم يبحث عن المعني وله أسلوب مرسل متحرر من قيود البديع وكان ذوقه الأدبي ذوقاً سليماً.

وفي ختام هذا الباب استعرضه الباحث كمؤرخاً فهو يعتبر من أعظم كتاب التراجم والسير في العصر الذي عاش فيه، وكان اهتم في كتابة تاريخية بعلم الحديث شأنه كشأن الكثير من المؤرخين المسلمين، وقد عرض لكتابة التاريخ شروطا ومباحث ذاقيمة ولأجل براعته في كتابة التاريخ خلف آثاراً تاريخية كثيرة ذاقيمة منها كتابه الشهير الوافى بالوفيات.

والباب الخامس استعرض فيه آثار صلاح الدين الصفدي الأدبية والتاريخة ودرستها دراسة نقدية، ولما كان عدد آثاره تجاوز حد المأتين ولا يوجد إلاستين ونيفا حاولت على إحصائها ترتيبها حسب الموضوعات ثم رتبت المؤلفات على ترتيب الحروف الهجائ، ومعظم آثاره مخطوطة وما طبع منها قليل جدا، فمن خلال هذه الآثار حاولت أن أشير إلى ما هي مخطوطة

وما هي مطبوعة وإلى موضوعاتها وخلاصة ما فيها ولما لم يكن في وسعي الاطلاع على جميع مخطوطاته اعتمدت في تعيينها ودراستها على أقوال الأدباء والكتاب وآثاره التي درستها وبحثت عنها كما تلي:

الإنشاء. كتاب الإنشاء، توشيح الترشيح، جر الزيل في وصف الخيل، جلوة المذاكرة في خلوة المحاضرة، حرم المرح في تهذيب ملح الملح، حقيقة المجاز إلى الحجاز، خلع العذار في وصف العذار، رموز الشجرة النعمانية، زهر الخمائل وذكر الدلائل، شرح الجمهورية، صرف العين عن حرف العين، صورة رحلة، طراز الألباب، طرد السبع عن سرد السبع ، عبرة اللئيب بعثرة الكئيب، غرة الصبح في اللعب، الفضل المنيف في الولد الشريف، قانون الترسل، كشف السر المبهم في لزوم مالا يلزم، لوعة الشاكي ودمعة الباكى، المثانى والمثالث، المجاراة المجازاة، المحاورة الصلاحية في الأحاجي الاصطلاحية، المفترح في المصطلح، منشآت الصفدي، نجم الدياجى في نظم الأحاجى، اختراع الخراع، جنان الجناس في علم البديع، ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء، فض الختام عن التورية والاستخدام، الأرب من غيث الأدب، تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، حلى النواهد على ما في الصحاح من الشواهد، طوق الحمامة، العرف الندى في شرح قصيدة ابن الوردى، غوامض الصحاح، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، نجد الفلاح في مختصر الصحاح، نصرة الثائر على المثل السائر، نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهرى من الوهم، الهول المعجب في القول الموجب، أعيان العصر وأعوان النصر، ألحان السواجع بين المبادى والمراجع، أوراق تراجم من كتاب التذكرة غيره، تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب، التذكرة الصلاحية، رشف الرحيق في وصف الحريق، الشعور بالعور، قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة، نكت الهميان في نكت العميان، الوافى بالوفيات، تشنيف السمع بانسكاب الدمع، الحسن الصريح في مائة مليح، رصف الزلال في وصف الهلال، الروض الناسم والثغر الباسم، قصيدة، قصيدة تائية، قصيدة لامية، كشف الحال في وصف الخال، الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، المختار من كشف الحال في وصف الخال، وبعض رسائله.

أبو البرهان محمد مخلص الرحمن

SALAH AL-DIN AL-SAFADI
LITTERATEUR AND HISTORIAN: CRITICAL STUDY

ABSTRACT

THESIS
SUBMITTED FOR THE AWARD OF THE DEGREE OF
DOCTOR OF PHILOSOPHY
IN
ARABIC

BY
ABUL BURHAN MD. MUKHLESUR RAHMAN

UNDER THE SUPERVISION OF
DR. ABDUL BARI
PROFESSOR & CHAIRMAN

DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH (INDIA)
1999

صلاح الدين الصفدي

أديباً ومؤرخاً: دراسة نقدية

رسالة قدمت لنيل شهادة الدكتوراة في الأدب العربي

إعداد

أبو البرهان محمد مخلص الرحمن

تحت إشراف

الدكتور عبد البارى

البروفيسر و رئيس القسم

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة عليكره الإسلامية

عاليكره، الهند

١٩٩٩م



CHAIRMAN



Phones [External : 27162
Internal : 234

DEPARTMENT OF ARABIC
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY
ALIGARH—202 002

Dated 30-6-99

TO WHOM IT MAY CONCERN

This is to certify that Mr. Abul Burhan Md. Mukhlesur Rahman has successfully completed his Ph.D. work entitled :
"SALAH-AL-DIN AL-SAFADI 'LITTERATEUR AND HISTORIAN A CRITICAL STUD'

The Doctoral thesis embodies the findings and results of investigation conducted under my supervision.

The work is original. It is now forwarded for the award of Ph.D. Degree in Arabic literature.

Abdul Bari
(Prof. Abdul Bari)

محتويات الأطروحة.

أرقام الصفحات.

أرقام الصفحات.

أرقام الصفحات.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأزكى التحية والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله نبي العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد!

فإن الله جعل كلمة الله هي العليا ورضي لنا بالإسلام دينا، فازدهر شأنه وانتشر شعاعه، فتصدى الحسّاد والمعاندون لمخالفته، واتخذوا وسائل شتى لكسر شوكته وإقعاد تقدمه، وشنوا عليه الغارة من داخله وخارجه، فكانت منهم جماعة كبيرة اتخذت القلم والقرطاس لتنفيذ مرامهم الشنيعة وبذلت جهودها في إلقاء الأستار على عصور الإسلام الذهبية، وعنوا عناية كبيرة بصرف أذهان عامة الشعب عن مجهودات ومساهمة العلماء الأجلاء الذين برزوا في هذه العصور. فمن مؤامرتهم حملتهم على عصر المماليك الإسلامي الذي تمكن فيه الحكام المماليك أن يكونوا دولة قوية كان لها أثر في إيقاف التقدم المغولي وتصفية الإمارات الصليبية في بلاد العرب وإنكارهم التطورات الثقافية والعلمية وظهور العلماء الأبطال في كل علم وفن، فاختياري لموضوع البحث "صلاح الدين الصفدي أديباً ومؤرخاً دراسة نقدية" وليد الرغبة الصادقة في إظهار حقيقة عصر المماليك ودراسة علم من أعلامه الذي برز كأديبٍ بارعٍ ومؤرخٍ كبيرٍ. والذي خدم العلم واللغة والبلاغة والأدب والنقد والتاريخ وترك من الآثار ما سيظل قبساً هادياً يستضئ به عشاق المعرفة وطلاّب العلم حيث كان الصفدي أحد النبلاء الذين اجتذبتني مؤلفاتهم من هذا العصر فما لمستها حتى وجدتها جديرة بالبحث والدراسة. فاعتزمت على أن أجعله موضوع بحث للحصول على شهادة الدكتوراة العالمية، وقد سبقني بعض الكتاب بالكتابة عن هذا الموضوع حيث نجد من طليعتهم الدكتور حسن ذكري حسن والباحثين هما: على محمد بن موسى والدكتورة مناهل فخر الدين، وبعض المعاصرين له كتبوا عنه شيئا يسيراً. وهذا لايعني إنكار جهود الآخرين ممن كتبوا عنه، وقد راجعت كتابات هؤلاء الكتّاب كما راجعت كل ماتيسرلي من مقالات الكتاب المحدثين، ومع هذا إني تصديت للكتابة والبحث عنه؛ لأن هؤلاء الكتاب وإن درسوا الصفدي وآثاره وكتبوا عنه،

ولكن لم يوجد فيهم أحد بحث عنه من جميع الجوانب. فإن الدكتور حسن ذكري حسن في كتابه بعنوان "صلاح الدين الصفدي ومنهجه في دراسة النص الأدبي ونقده" لم يف جميع الاتجاهات للصفدي فإنه اهتم بكتابة منهجه في دراسة النص الأدبي ونقده ولم يتوجه إلى دراسة عمله التاريخي وتقويمه، أما الباحث على محمد موسى فقد اختار موضوع بحث له بعنوان "صلاح الدين الصفدي ومنهجه في الأدب والنقد" فكان جلّ عمله ودراسته يدور حول الأدب والنقد ولم يلق النظر إلى نشاطاته الأخرى. والباحثة الدكتورة مناهل فخر الدين بحثت عنه كناقدٍ وبلاغيٍ ولفت أوراقها عن استعراضه أديباً ومؤرخاً. وكذلك المساهمون الآخرون لم يفواحقه، فلم أجد كتاباً ولا مقالةً استعرض صاحبها مساهمة صلاح الدين الصفدي في التاريخ، وحاول استيعاب جميع اتجاهاته العلمية، فاجترأت مع قلة مؤهلتي لإبراز عمله الجليل وهو مساهمته في الأدب والتاريخ وإكمال ما انتقص من حقه فبعد المطالعة العميقة جمعت المعلومات المتفرقة والحقائق المختفية في بحثي، واعتمدت في دراسة الموضوع على المصادر القديمة والمراجع الحديثة.
وإني قد بذلت كل جهدي في إعداد هذه الرسالة، ودراسة ما يتعلق بالموضوع، وزرت لجمع المواد عن الموضوع مع الأساتذة الأجلاء أكثر جامعات الهند وبنغلاديش،منها: الجامعة العثمانية بحيدر آباد ومكتبتها "دائرة المعارف" وجامعة دلهي ومكتبتها، والجامعة الملية الإسلامية ومكتبتها "ذاكر حسين" ومكتبة خدابخش بفتنا، والمكتبة الوطنية بكلكوتا، وجامعة داكا ومكتبتها،وجامعة راجشاهي ومكتبتها، والجامعة الإسلامية، كوستيا بنغلاديش ومكتبتها، مكتبة خادم الحرمين الملك فهد، ومكتبة مولانا آزاد بعلي كره، ومكتبة قسم دراسة غرب آسيا، ومكتبة قسم الدراسة الإسلامية والعربية المشتركة بعلي كره، وهناك بعض الجامعات والمكتبات الأخرى التي زرتها واستفدت منها كما استفدت من إرشادات وتوجيهات الأستاذ المشرف الدكتور عبد الباري والأساتذه الكرام في قسم اللغة العربية وآدابها من هذه الجامعة، وأساتذة الجامعات الأخرى الذين شافهتهم وناقشتهم عن الموضوع وأخذت منهم الأقوال القيمة والنصائح الغالية، واستوردت المصادر النافعة من مكتبات المملكة العربية السعودية وجامعاتها، ومن مكتبات مصر وجامعاتها.

ولا أدعي أني صعدت في هذه الدراسة ذروتها العليا. فإن البحث والنقد عن شخصية يتسع فيهما المجال للآراء والمذاهب والأقوال مع ما يواجه الباحث الناطق بغير كلمة الضاد باللغة العربية من المشكلات والصعوبات لعدم الوسائل وقلة المراجع في البلاد الغير العربية. ولكني بذلت ما في وسعي وخضت في الموضوع خائض البحر العميق. فبعد دراسة الموضوع دراسة علمية قسمت الرسالة على خمسة أبواب، وإليكم بعض التفصيل في التالي:

خطة البحث:

الباب الأول، قدمت فيه عرضاً تمهيديا للبيئة التي عاش وترعرع فيها صلاح الدين الصفدي، فتحدثت فيه عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية. ثم تناولت عن مراكز الثقافة هناك، كما تحدثت عن أرض 'صفد من حيث حدودها وموقعها وأهميتهاوفضائلها.

وفي الباب الثاني، تطرقت لحياة صلاح الدين الصفدي فعمدت إلى دراسة مولده وبيان اسمه وأسرته ووقفت عند نشأته ودراسته، ثم إلى رحلته في طلب العلم وعند شيوخه. ثم تكلمت عن أخلاقه وصفاته الحميدة. وختمت الباب عن رحله من الدنيا إلى دار الخلد.

والباب الثالث، خصصت لدراسة بعض معاصريه واتصاله بهم فعرفت بشمس الدين الذهبي وابن كثير وتاج الدين السبكي وابن نباتة المصري.

أما الباب الرابع، فقد استعرضت فيه مساهمة الصفدي في الأدب والتاريخ والبلاغة والنقد. فوقفت عنده كاتباً شاعراً، ناقداً، بلاغياً، ومورخاً وتناولت الحديث عن أسلوبه وذوقه الأدبي.

والباب الخامس، بحثت فيه عن آثاره الخالدة ودرستها دراسة نقدية، وحاولت في عرض آثاره ترتيبها حسب الموضوعات، ثم رتبت المؤلفات على ترتيب الحروف الهجائية. فبدأت بكتابه الإنشاء "كتاب الإنشاء"، وانتهيت بكتابه "المختار من كشف الحال في وصف الخال" وما تخلفت عن عرض بعض رسائله.

ثم ألقيت الضوء في الخاتمة على نقط عديدة ظهرت لي بالبحث والدراسة.

شكر وتقدير:

أشكر الله سبحانه وتعالى على كريم إحسانه، وعظيم فضله وامتنانه، إذ منّ علي بأن يسرلي طريق البحث، وسهّل لي متابعة العمل حتى وصلت إلى نهايته. ثم أقدم الشكر والتقدير إلى مشرفي الأستاذ الدكتور عبد البارى رئيس قسم اللغة العربية وآدابها على مساعدته المشكورة، كما أقدم الشكر إلى الأستاذ الدكتور سيد كفيل أحمد قاسميوالأستاذ المشارك الدكتور صلاح الدين عمرى قسم اللغة العربية وآدابها جامعة عاليكره، وإلى جميع الأساتذة الكرام في القسم. وأجدنى مضطراً إلى تقديم الشكر إلى الأستاذ السابق للقسم الدكتور مختار الدين، والأستاذ الدكتور محمد أبو بكر صديق، قسم اللغة العربية جامعة داكا. والدكتور محمد محبوب الرحمن على مساعدته التي لا أستطيع أداء حقها، وإلى الأخ أبى الخير محمد شمس الحق صديقى والأخ أبى تراب محمد كرامت على المحاضر لقسم الحديث والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية كوستيا، ببنغلاديش لمساعدتهما على جمع المصادر والمراجع المتعلقة بالبحث والإيتان بها من المملكة العربية السعودية وإلى الباحث محمد محسن الدين، وإلى الأخ الدكتور محمد شوكت جهانغير الأستاذ المساعد لقسم الحساب والأخ الدكتور محمد أبو الكلام فاتوارى، الأستاذ المشارك، والأخ محمد أحسن الله، الأستاذ المساعد، لقسم الدعوة والدراسات الإسلامية، والأخ نثار الدين أحمد الأستاذ المساعد ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها، والأخ محمد روح الأمين الأستاذ المساعد، والأخ محفوظ الرحمن الأستاذ المساعد، والأخ محمد عبد الله الأستاذ المساعد، والأخ محمد سيف الإسلام، الأستاذ المساعد، للقسم السابق بالجامعة الإسلامية كوستيا ببنغلاديش.

وأشكر والدى وجميع إخوتي وأخواتي وأصدقائي الذين قد قاموا لي بمساعداتهم، وكذالك أشكر زملائ وطلابي محمد ولى الله في كتابة هذا البحث وإعداده وتنضيدة في الكمبيوتر.

وأخيراً أشكر زوجتي الحبيبة قمر أختر فإنها قامت بحوائج بيتي وأهلي عند غيبتي، وقدمت إلىّ مساعداتها في إكمال هذا البحث.

ولا يسعنى إلاّ أن أتقدم بالشكر إلى الجامعة الإسلامية بكوستيا، بنغلاديش، وإلى المسؤولين عنـها على إجزاء إجازة دراسية وتقديم مساعدة مادية لى تشجيعا لهمتي على الإقبال إلى الدراسات العليا.

وأسأل الله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ويجعله عدة لنجاة والدىّ وأن ينفع بها جميع الناس والدراسين، وأن يوفقنى دائماً للأصول إلى الحق، وإذا حصل من النقص فذلك يعود إلىّ، والله نسأله التوفيق والسداد لأنه ولي التوفيق.

عليه توكلت، وإليه أنيب وبه نستعين وهو نعم المعين.

وشكراً،

العام الجامع ١٩٩٩م.

أبو البرهان محمد مخلص الرحمن

الباحث: أبو البرهان محمد مخلص الرحمن.

الباب الأول.

بلاد الشام في عصر صلاح الدين الصفدي.

الفصل الأول: الأوضاع السياسية.

الفصل الثاني: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والدينية.

الفصل الثالث: الأوضاع الثقافية والأدبية.

اللغة وعلومها، علم القراءات، علم التفسير، علم الحديث، علم الفقه، السير والتراجم، علم الطب، الأدب.

الفصل الرابع: مراكز الثقافة.

الفصل الخامس: أرض صفد، موقعها وحدودها.

المصادر والمراجع.

الباب الأول.

بلاد الشام في عصر صلاح الدين الصفدي:

إن من بلاد الله تعالى ما تفضل لكثرة خيراتها الطبيعية من هوائها الصافى وجبالها المرتفعة ومياهها العذبة وأشجارها الخضراء ومنها ما ترتفع لفضائل كسبية من ثقافتها وحضارتها العالية وعلومها البارعة ومجتمعاتها الشريفة. والتاريخ شاهد أن بلاد الشام تملك هاتين الفضيلتين الطبيعية والكسبية. فإن الله تعالى قد أثنى على هذه الأرض المقدسة بقوله " سبحان الذي أسرٰى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بٰركنا حوله لنريه من اٰيٰتنا إنه هو السميع البصير".(١) وقوله تعالى " ولسليمٰن الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي بٰركنا فيها وكنا بكل شئ عٰلمين".(٢) وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل بلاد الشام منها قول النبي صلى الله عليه وسلم "إن أهل الشام سوط الله في أرضه ينتقم بهم ممن شاء من عباده وحرام على منافقيهم أن يظهروا على مؤمنيهم ولا يموتون إلا غما وهما".(٣)

وقد تدفقت أقوال الصحابة والمؤرخين والكتاب والعلماء في بيان فضائل هذه البلاد وهي فيما يلي:

أقوال الصحابة والمؤرخين:

قال عبد الله بن عمر وبن العاص قسم الخير عشرة أعشار فجعل ٩ أعشار في الشام وعشر في سائر الأرض. وقسم الشر عشرة أعشار فجعل في الشام عشر وتسعة في سائر الأرض.(٤)

وقال ابن الأثير أرض الشام إقليم عظيم، الخيرات واسع البركات ذوبساتين وجنات متنزهات، وفواكه مختلفات والفاكهة رخيصة واللحوم كثيرة إلا أنه كثير الأمطار والثلوج وهو يشتمل على ٤٠ قلعة ليس فيها قعلة ممتنعة إلا قلعة الكرك وإقليم الشام يشتمل على كور مثل كورة فلسطين وكورة عمواس وكورة لدّكورة بنيا وكورة قيسارية وكورة نابلس وكورة سبطة وكورة عسقلان وكورة غزة وكورة جبريل وفي جنوبيه قمص التية وكورة الشوبك وكورة الأردن وكورة السابرية و كورة عانه و كورة قاصرة وكورة صور وأرض دمشق. ومن الفوطة والبقاع وبعلبك ولبنان والدل وبيروت

والبثنية وجول وجولال وطاهر والحولة وطرابلس والبلقاء وجيرين الغور وكفر طاب وعمـان السراة ومن مدن الشام المشهورة دمشق وفلسطين ونابلس وعسقلان وبيت المقدس وطبرية وحمص وحمـاة وبعلبك وحلب والعواصم والرصافة وأما أرض السراة فهى من الشوبك إلى جهة الغرب ومنـها إلى الحميمة.(٥)

وقال القزوينى " الشام هي أرض المقدسة التي جعلها الله تعالى منزل الأنبياء ومنبط الوحى ومحل الأولياء. هواءها طيب وماؤها عذب وأهلها أحسن الناس خلقا وخلقا وزيّا ورؤية ومن خواصـها أن لا تخلو من الأولياء والأبدال الذين يرحم الله تعـالى ويعفـو بدعائـهم لا يذيـدون علـى سـبعين ولا ينقصون ولا يسكنون الاجبل اللكام ومن خواصها الطاءات الثلاث الطعن والطاعة والطـاعون. أمـا الطعن فمشهور أن أجنادها شجعان. وأما الطاعة فمما يضرب به المثل حتى قيل إنما تمشى الأمر لمعاوية لأنه كان في أطـوع جنـد وكـان في أعصـى جنـد وهـم اهـل العـراق. وأمـا الطـاعون فكثـير الحدوث، قال وبالشام من أنواع الفواكه ما هو من غاية الحسن والطيب وتفاحها كـان يحمـل إلى العراق لأجل الخلفاء وكذلك الزبيت الركافي فإنه في غاية الصفا".(٦)

وما جاء من الأشعار في فضائل الشام منه قول بن المدبر:

وكم بالشام من شرف وفضل * ومرتقب لدى برّ وبحر
بلاد بارك الرحمن فيها * فقدسها على علم وخبر
بها غرر القبائل من معد * وقحطان ومن سروات نهر.(٧)

وقول البحترى:

عنيت بشرق الأرض قدما وغربها * آجوب في آفاقها وأسيرها
فلم أر مثل الشام دار اقامة * لراح أعاديها وكأس ادبرها
مصحة أبدان ونزهة أعين * ولهو نفوس دائم وسرورها
مقدسة جاد الربيع بلادها * ففي كل أرض روضة وغديرها
تباشر قطراها واضعف حسنها * بأن أمير المؤمنين يزورها.(٨)

ومن المعلوم أن بلاد الشام كانت كلها جزءاً واحدًا منذ فتحها المسلمون وقبل ذلك، وهى تقع في قلب الشرق الأوسط وسط العالم القديم على ابواب آسيا الغربية وشواطى البحر المتوسط، وبذلك تشتمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرقى الأردن، وكانت الشام ضمن أجزاء الدولة الإسلامية أيام الراشدين ومقر الدولة الأموية، ثم تبعت العباسيين، وخضعت أجزاء منها للطولو نيين في مصر. وقامت في الشمال الدولة الحمدانية وتقاسمت بلاد الشام مع الأخشيديين في مصر. وكان صراع دائر بين الطرفين على أرضها. وكانت الشام في القرن الثامن تعيش في مرحلة من مراحل نشاط الفكرى التى ظهرت في الدولة الإسلامية بعد الصراع والتترى والمغول على بلاد الإسلام في القرنين السادس والسابع. فقد ايقظت هذه الحملة العنيفة والصراعات المخربة أهل البلاد ودفعهم إلى إحياء تراث ابائهم وأجدادهم وأنجبت شخصيات بارزة في شتى المجالات، فمنهم من عكفوا حياتهم على تصوير وعكس أحداث واقعة هناك، ومنهم مالوا إلى علم وفن وأدب وتاريخ، وكان ذلك ايذانا ببداية عصر الموسوعات العلمية والأدبية. نجد في طليعة هذه الشخصيات الفريدة شمس الدين الذهبى وتاج الدين السبكى وصلاح الدين الصفدي وتبعهم علماء امثالهم.

ولما كانت الشخصية تتأثر بالبيئة والأوضاع الاجتماعية والأحوال التى تعيش فيها وجب علينا قبل أن نستعرض هنا المؤرخ الكاتب والأديب صلاح الدين الصفدي أن نلقى الضوء على أو ضاع بلاد الشام الاجتماعية، والسياسية والثقافية والدينية والأدبية.

الفصل الأول:

الأوضاع السياسية:

كانت بلاد الشام تحت سيطرة المماليك في عصر صلاح الدين الصفدي، والمماليك كما تدل أسماؤهم دولة أنشأها أرقاء مختلفو الأجناس والقوميات جعلوا من أنفسهم طبقة عسكرية حاكمة في بلاد غربية. وقد أفلح هؤلاء السلاطين الأرقاء في تنجية المملكة الإسلامية من بقايا الصليبيين. وإن كان الحكام الأيوبيون عدّوهم مغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين في الشام. فكان من ردود

الفعل أن سيئت العلاقات بين الطرفين وظل الحال كذلك حتى أصلح الخليفة العباسى بينهما على أن يكون للمماليك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل، وللأيوبيين بقية الشام.

وقد لعبت هذه المماليك دورًا هامًا في الاحتفاظ على الثقافات والحضارات العربية من غارات جيوش المغول المخفية التي قاداها هلاكو وتيمور. لولا ذلك لجاز أن يكون سبيل الحضارة والتاريخ في غربى آسيا ومصر برمّته غير اليوم. كما أنهم احتفظوا من الناحية الإدارية على الإقطاعات الأيوبية القديمة. ويلوح للباحث أن إدارة المماليك في الحقيقة كانت امتدادًا للنظام الفاطمى العباسي. وقسم المماليك الشام اعتمادًا على ما كان عليه الأيوبيون إلى ستة أقاليم كبرى. سمى كل منها مملكة أو نيابة وهى : دمشق وحلب وحماة وطرابس في لبنان وصفد في فلسطين والكرك في شرقي الأردن وكان دمشق أهم هذه الأقاليم حتى كانت تعد المدينة الثانية في دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الإزدهار. وحاكمها يعد نائب سلطان المملوكى في الشام فكان له مكانة خاصة. كثيرا ما كان يطمح أكثرهم أن يكون هو السلطان التالى للسلطان القائم بمصر. فكان السلطان يكثر عزل هؤلاء النواب حينما يشك في سوء نياتهم. فمن أجل ذلك كثر عدد النواب في دولة اللماليك "ولعل ذلك ما جعل سلاطين مصر يكثرون من عزلهم. حتى يتولى دمشق في زمنهم الذي امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا".(٩) وكان القضاء جارية على أربعة مذاهب. الحنفية والشافعية والحنبلية والمالكية طوال زمن المماليك منذ بدأت من أيام الظاهر بيبرس.

وكان سلاطين المماليك ينقسمون إلى دولتين. البحرية والبرجية. أما البحرية فكانت تتعلق من الحرس الذين كان اشتراهم الصالح الأيوبى وأسكنهم في قلعة الروضة في النيل فعرفوا بالبحرية. "وكان أكثرهم من الترك والمغول".(١٠) ولما بطش السلطان الملك المعز أيبك بالبحرية وقتل زعيمهم فارس الدين وشتت جمعهم سار كثير منهم إلى الشام. وكان من أشهر سلاطين البحرية السلطان قطز والظاهر بيبرس وقلاوون. السلطان الناصر الذي طالت فترة حكمه حوالى نصف قرن صرف فيه جل همه إلى الإصلاح والتعيمر. فبلغت البلاد في عهده قمة رقيها وتقدمها. ثم بعد وفاتها ترك خلفه ثمانية من الأولاد. دارت بينهم صراعات عنيفة مما أدى إلى زوال حكم المماليك

البحرية. فإن الأمير سيف الدين البرقوق انتهز اختلاف أولاد الناصر فيما بينهم فرصة فتمكن من الاستيلاء على الحكم وبه انتقلت السلطة من دولة المماليك البحرية إلى دولة المماليك البرجية.

وأما البرجية فقدجئ بهم إلى مصر بعد البحرية وكانوا أيضا في أول الأمر كالبحرية حرساخاصا. وكان أكثرهم شراكسة يقيمون في أبراج القلعة بالقاهرة. وكان عدد سلاطين الطبقتين قريبا من السواء كما يتضح من قول الدكتور فيليب حتى " وكان عدد السلاطين البحرية أربعة وعشرون باستثناء الملكة شجر الدر وأما البرجية فقد كانوا ثلاثة وعشرين".(١١) وكان المماليك قد قاموا بثلاثة أمور عظيمة في مجال سياستهم: فإنهم قد طردوا الصليبيين من بلاد العرب، وصدوا غزوات التتر بحيث أنهم سحقوهم سحقاذريعا. فلم يعودوا يفكرون في غزو الشام وان هم فكروا ارتدوا إلى صوابهم سريعا. وأنهم محوا شوكة الطوائف التي خرجت عن الإسلام في لبنان وسورية وأثبتوا سيادة السنة. ثم لما إستتب لهم الأمر في ملكهم الشاسع شرعوا في تطبيق سياستهم الخاصة. وهى كانت ألوانا متنوعة شبيهة بعضها بعضا ومتضادة من الأحكام والقانون. فعمران وجود من جهة وتخريب وظلم وسلب من أخرى، وإذا رأيناهم يأخذون من الناس أموالا في الشدائد قد نراهم يبطلون كثيرا من المكوث والمظالم وينادون في الجوامع برفعتها.

وقد أصبحت أحكام مجالس المظالم في دولة المماليك أحكاما سياسة إلى جانب الأحكام الشريعية. فإنها عندهم القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال. ولعل هذه القواعد مما تأثروا من آراء جنكيزخان يقول محمد كرد على " ويرى المقريزى أنها قواعد ورثوها عماسن لهم جنكيزخان وكان هذا لا يدين بدين ويحكم العقل في دولته. ففوضوا القاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الشرعية ورجعوا إلى عادات جنكيز والاقتداء بقانونه".(١٢) وبتقدم الأيام جعل الحكام يسيئون معاملتهم مع الرعية فكانوا يثقلون عليهم أوزارًا من المظالم والمصائب. فمن ردود الفعل شاع الفوضى والاضطراب في جميع أنحاء المملكة. وزاد البلاء شدة المجاعة والقحط والزلازل والطاعون التى نزلت بالبلاد فعم الموت والهلاك. وصور المقريزى-كمؤرخ فاضل لزمانه-تصويرًاحياً لذكر المجاعات التى حلت البلاد المجاورة في كتابه " إغاثة الأمة في كشف الغمة".(١٣) وعم الطاعون في جميع البلاد أربع مرات خلال القرن الرابع عشر. يقول ابن تغرى بردى" إن

مرض الطاعون نشأ في البلاد أربع مـرات خـلال القـرن الرابـع عشـر".(١٤) وكـان النـاس وقتئـذ يخافون خوفا شديدا للطاعون والوباء الذي حل عليهم ويتضرعون ويبكون إلى الله للنجاح من هـذا البلاء العام. وقد شاهد رحالة كبير ابن بطوطة أحوال الناس وكيفية خيفتهم وذكـر فيليـب حتـى ذلك بقوله " وقد كان ابن بطوطة آنذاك في دمشق فشاهد جماهير الناس تخرج إلى الشـوارع كبـارًا وصغارًا ذكورًا وإناثاً. مسلمين ونصارى، يهود خارجين حـاملين مصاحفـهم واناجيلـهم وتوراتـهم باكين متضرعين متوسلين إلى الله بكتبه وأنبيائه".(١٥) وكان الطاعون الجارف هلك خلقـا كثـيرًا في دمشق وجرف أهل صفد وأهل المقدس وغزة والكرك، وأصـابت هـذه الكـوارث عامـة النـاس والخاصة ودفن ما لا يحصى من الناس في جميع أنحاء البلاد. وكان دفن في حلـب خمـس مائـة نفس كل يوم. يذكر المؤرخ الكبير فيليب حتى ناقلا عن ابن تغرى بردي " إن عدد الذيـن كـانوا يهلكون بالطاعون في حلب كل يوم كان خمس مائة نفس. وألفا ومئتين في دمشـق. وأن الطـاعون جرف أهل صفد عن بكرة أبيـهم. وكذلـك بيـت المقـدس ونـابلس والكـرك وغـزة ومـدن سـاحلية أخرى".(١٦)

وقد اتضح عند الباحث أن المماليك سيطرت نحو مائتين وسبعين سنة على منطقـة كـانت تتوفـر فيها الفتن والاضطرابات وحافظوا طوال تلك الحقبة على مميزاتهم العرقية. ومع أنهم كانوا بوجه عام دون ثقافة وقساة وسفاكى دماء وأعاجم فإن عنايتـهم بـالفن والعمـارة والأمـور الدينيـة كـانت تضارع عناية أية دولة متحضرة. وقد سـارت القـاهرة بفضلـهم أجمـل المنـاطق في العـالم العربـى. وأخيرًا قام السلطان سليم الأول العثمانى على دولة المماليك في الشـام ومصـر فغلبـهم علـى أمرهـم سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٦م، وبذلك سقطت آخر الدولات المحلية التى نشـأت علـى أنقاض الخلافـة العربية، ومهد السبيل لقيام خلافة جديدة غير عربية هى خلافة الأتراك العثمانيين.

الفصل الثاني:

الأوضاع الاجتماعية:

كان المجتمع الشامى حين دخل فيه الإسلام يضم أمشاطا من أمم شتى آسيوية وعروبيا، ثم جعل الإسلام يمزج بين هذه الأخلاط مكونا منها أمة شامية عربية واحدة، وكان شعب هذه البقعة المقدسة ينقسم طوال الحقب الإسلامية إلى بدو وحضر، فالبدو كانوا يعتمدون على الأغنام والأنعام حينما كان الحضر يعتمدون على الزراعة والتجارة والصناعة، وكان المجتمع الشامى يتألف من ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا. فالطبقة الأولى: تشتمل الحكام وكبار المؤظفين في الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين. والطبقة الوسطى تضم العلماء وأوسط الزراع والتجار والصناع. أمّا الطبقة الدنيا: فتدخل فيها عامة الشعب من صغار الفلاحين والعمال والرقيق. وظلت هذه الصورة لطبقات المجتمع الشامى متصلة طوال قرون متتالية.

فحينما كان العباسيون يحسنون معاملاتهم مع أهل الشام ويقبلون إليهم بالرفق واللين واعتنى خلافاؤهم بتعمير الشام وبنائه. كما أنهم أكثروا من الخلع والهبات على أهلها. وكان الفاطميون يحيفون على الشعب الشامى بفرض الضرائب الفادحة. وكانت الشام في أيام السلاجقة ميدان الحرب بين المسلمين والصليبيين وكذا في أيام الأيوبيين. هكذا تقلبت الشام في حياتها الاجتماعية والسياسية وشهدت تسيطر الأمم والملوك وعاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم بتبدل الخلافة والحكومة حتى وضعت قد مها في عصر المماليك.

والمماليك كما ذكرنا كانوا أرقاء أمشاطا من أجناس مختلفة فليس من السهل دراسة الحياة الاجتماعية في عصرهم دراسة عميقة وكافية. ولأن المصادر لا تتوفر كثيرة ولا تكشف عن حقيقة أمرها إلا قليلا. الحقيقة التي تبرز خلال الدراسات هي أن المماليك في الفطرة التي حكموا فيها كانوا يعيشون منعزلين عما حواليهم من الناس واحتفظوا بشخسيتهم وعاداتهم ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان مسلمين أو غير المسلمين. ولم يكن زواج بعضهم من بنات القضاة أو الأعيان داعيا إلى تغير عادة العزلة فيهم. ويصور الدكتور بكرى شيخ أمين صورة خاصة لحياة

الاجتماعية لهم بقوله " ومن خواص هذه الطبقة أنهم جمعوا بين الصلاح في الشعب والاستمساك بقواعد الدين الحنيف من صلاة وزكوة وتشييد العمائر الدينية وغير ذلك، بينما كانوا في حياتهم الخاصة لا يتورعون عن إيتان أشنع المنكرات والتعسف في أذى الخلق وإهراق الدماء".(١٧)

ويتحدث لنا التاريخ أن حرب أهل الشام بعد حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجواري الأوربيات المسترقات وأنهن كن من عوامل شيوع البغاء. حتى نور الدين وصلاح الدين والعادل طهّروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار. وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجواري من كل جنس وبلد فكان أمر الجوارى شغلاً شاغلاً بين عامة الناس وخواصهم في الشام. ولم يقف المنحرفون بالمجتمع في لهوهم حينئذ عند شرب الخمر بل كانوا معتدين بشرب الحشيش حتي أمر الظاهر بيبرس بهدم دور الخمر جميعا وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونهما. ومن حين إلى أخر نسمع عند بعض السلاطين بمثل هذا الأمر ولكن المجان كانوا يعودون إلى تعاطيهما ولا يزدجرون وظل الغناء مزدهرًا طوال زمن المماليك، وظلت الشام تعيش في رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجري إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة في دمشق الفوضى بسبب ما كان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء والسلاطين مرارًا. وبكذا حينما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثمانى ازدادت الشام انتكاسا وفسادًا وظل ذلك سائدًا طوال أيام العثمانيين.

وأما أحوال عامة المرأة فكانت هناك طبقتان فيها. نساء الطبقة الأولى نساء الحاكمة فكن تعيش مع الحرية في حياتهن. ونساء الطبقة الثانية الطبقة الشعبية فليست لهن الحرية في شئ ما. ويتضح هذا بقول الدكتور بكرى شيخ أمين " أما المرأة فيحدثنا المؤرخون فإنها كانت تمتع بقسط وفير من الحرية والكرامة إذا كانت من الطبقة العليا الحاكمة، وكثيرا ما كانت تتدخل في الأمور السياسية فترفع وتخفض وتعزو تذل. أما وضع المرأة في الطبقات الشعبية فالكتب تضن علينا بأخبارها ولكن نميل إلى أنها كانت إلى الظلم والاضطهاد أقرب، قياسا على وضع الرجل ذاته في المجتمع المملوكى".((١٨)

وأما من الجهة الاقتصادية فكانت الشام من قديم الزمن راقية في الاقتصاد. فكانت فيها تجارة رائجة ولم تتخلف في الزراعة. وفيها ثروات طبيعية كثيرة كما أنها كانت نافذة كبرى لتبادل

تجارات آسيا وأوربا من قديم وظلت تجاراتها تكوّن مصدراً أساسيا لثروتـها في عـهد الفينيقيـين. وبعد هم حتي احتلال العثمانيين لديارهـا. وهـي أيضا تعـد مـن أعتـق الأزمنـة إلى نهايـة زمـن المماليك الباب الكبير لمرور توابل الهند وعروض آسـيا إلى الغـرب ومهرأهلـها في التجـارة ومعرفـة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجاريـة ومعرفـة متطلباتـها لبـان جنوبـى الجزيـرة العربيـة ونباتات العطور والعقاقير مما أتاح لكثير من تجارها على مرالأزمنة الثراء الطائل، وبجـانب تلـك الأحوال المذكورة كانت الشام تقوم على إتقان كثير من الصناعة والزرع والمهارة في التجارة أيضـا، كما ذكر فيليب حتى قول الجغرافي السورى الدمشقى " إن بساطين طرابلس التي يسقيها نهر أبو على لا مثيل في العالم".(١٩) ولكن حكام الأمم المختلفة كانوا يـبزلون جـهودهم في التغلـب علـى أرضها الخضراء فلذا حل الكساد أحيانا في اقتصادها. فكانت الشام على سنتها الجاريـة احتلـت المماليك في القرن السابع الهجرى على عرش حكومتها. والسلاطين المماليك الذين كانوا يختلفـون عن السكان عرقا ولغة وحضارة. أرادوا أن يكسبوا عطف رعايـاهم وولائـهم فقـاموا بمشـاريع بنـاء على صعيد ضخم لبناء المدارس الفخمة والجوامع الكبيرة والقبور المقببة مما اقتضـى تشييـد إنفـاق المبالغ العظيمة من أموال الخزينة ولكى يستعيدوا إلى الخزينة حالتها الطبيعية كانوا يلجـأون إلى فرض ضرائب جديدة فادحة لا يقرها قانون أوعدل. وقـد زادت حالـة الاقتصـاد سـوءاً في أيامـهم كثرة انتقال الحكومة إلى شخص بعد شخص كما ذكرنا من قبـل. فكـان مـن ردود الفعـل انتشـار الفوضى وصنوف من الفساد والكوارث والمآسي مثل الطاعون والمجاعة قد عدت إلى هلك كثير من سكانها. يقول فيليب حتى "وكان من هذه الكوارث ومن سوء إدارة المماليك أن هبط عدد السـكان في مصر وسوريا إلى نحو الثلث مما كان عليه سابقا".(٢٠) ومن الأسباب الـتي تسـببت إلى كسـاد اقتصاد المماليك أنهم كانوا يبذلون قسطا وافراً من أمـوال الحكومـة في اشـتراء المـماليك مـن شـتي البلاد لتدعيم أجنادهم يقول المؤرخ الكبير جمس البارك:

"That they depened for their armies on the constant purchase of foreign slaves is enough in itself to reveal the misery and feebleness which had overcome their native subjects: and there is nothing improbable in the estimate that the two and half centuries of their power cost the country two-thirds of its population".(٢١)

وكان بعض المماليك قد قاموا بخطط عديدة في استعادة احوالهم الاقتصادية من الظلمات السائدة عليها والمعاهدات التجارية التي عقدها تجار البندقية في النصف الثانى من القرن الرابع عشر، والامتيازات التي منحوها إلى التجار الأوروبيين نشطت تبادل المتاجر وعوضت على السكان شيئا مما كانوا قد خسروه من هذه الخطط.

وأما من الجهة الدينية فكانت الشام قبل أن يدخل فيها الإسلام خاضعة لدينين سماويين. اليهودية والمسيحية فلما دخل فيها الإسلام وانتشر في أنحائها وجعل أهلها يعتنقون هذا الدين الحنيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الواحد الأحد حق عبادته وعلى ما تدفع إليه من النسك والزهد والتقوى، ثم بعد فترة من الزمن انتشر فيها التشيع وتعددت بها فرقة المتطرفة من إسماعيلية ونصيرية ودروز وفداوّية كما شاع فيها الزهد والتصوف وطرقة وما يتصل به من الخانقاهات. والتاريخ شاهد بأن زمام أمور الدين في الشام ومصر كان بأيدى المتشيعين إلى عهد السلاجقة والأيوبيين وظل سلاطين المماليك يتبعون خطوات من سبقهم في توحيد الفرق الإسلامية وضمها إلى حظيرة السنة ونشر العقائد السنية وأحكامها وطرد الشيعة المتطرفة. يقول الدكتور فيليب حتي" وتناولت سياسة المماليك الجديدة إعادة توحيد الفرق الإسلامية المنشقة وضمها إلى حظيرة السنة، وذلك لأن بعض هذه الفرق الإسلامية أعانت العدو وهادنته. وقد قتل المماليك من الإسماعيليلة والنصيرية الشيعة عددًا كبيرًا."(٢٢) وإن كان عددهم كبيرًا وكانوا أشداء أقوياء في جميع أنحاء المملكة، فقد هرب من الشيعة جماعات والتجأت إلى جبل لبنان والبقاع لأن المماليك كانوا يرون فيهم خطرًا سياسيًا. وقد تعنى دولة المماليك بالخانقاهات والربط ورزايا المتصوفة وترصد لها أموالاً كثيرة فأدت هذه السياسة الدينية للمماليك إلى ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانت طريقتى القادرية والرفاعية السالفتين، تشاعت فيه الطريقة القلندية ودخلته طريقة المولوية مؤسسها جلال الدين الرومى وتبع هذه الطريقة بعده كثيرون. وكان بعض الصوفية المتطرفة يبالغون في الديانة الإسلامية وتأتون بأعمال وأحكام شاذة ليست لها صلة بالدين الحنيف. فظهر نخبة من العلماء رفعوا أصواتهم لسحق هذه العقائد الباطلة والأحكام المبتدعة

نجد على رأسهم ابن تيمية الحنبلى فإنه قلع أصل البدعة وأشعل نارًا حامية ضد أصحاب التصوف الفلسفي وما يتصل به من القول بالحلول وحدة الوجود. وانتشرت في الشام في أواخر القرن الثامن الهجرى الطريقة النقشبندية ومؤسسها محمد النقشبندي وأخذت تنتشر معها لأواخر أيام المماليك الطريقة البكتاشية التي تدين بالنظريات الحلولية ولا تقم وزنا للسنن والفرائض الدينية.

ومنذ القرن الثامن الهجرى نحس بوضوح " أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أى تعلق بالدنيا، وكانوا يكتفون بما يجرى على خانقاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدّ يده للحاكم تأخذ منه مالاً وكانواكثيرًا ما يحملون على الحكام إذ رأوهم انحرفوا عن الطريق السّويّ وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون في العالم الإسلامي، وكان لهم أثر غير قليل في حفاظ العامة على الروح الإسلامية".(٢٣) وكان يوجد في عهد المماليك اليهود والنصارى بجانب المسلمين. وعين المماليك لليهود والنصارى نظامًا خاصًا كما يذكر فيليب حتى " وقد أعاد السلاطين المماليك فرض القيود المجحفة بحق الذميين واليهود فقد امروا النصارى واليهود أن يلبسوا ألبستة خاصة تميزهم عن المسلمين ومنعوا من ركوب الخيل والبغل".(٢٤)

الفصل الثالث:

الأوضاع الثقافية والأدبية:

كانت بلاد الشام معهد العلوم والفنون منذ أقدم العصور، وكانت بها تراث يونانى مسيحى حين فتحها المسلمون، ثم بعد دخول الإسلام فيها اعتنى أهلها بتعاليمه ثم نشطت الدولة الأموية بترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض رسائل الأدبية الفارسية مع الاهتمام بالنشاطات العلمية الدينية اللغوية. وظلت هذه النشاطات طوال عهد العباسيين مع التطور في كافة العلوم من دين وفلسفة وطب وأدب وتاريخ، فإن الجوامع والمدارس ومجالس الخلفاء كانت مهوى قلوب الائمة

العلماء. كما كان للخلفاء العباسيين الأولين فضل كبير في نشر العلم والثقافة في أنحاء العالم الإسلامي.

ولما جاء عهد المماليك استمرت هذه الحركات والتطورات،لأنهم كانوا رغم بعدهم من العروبة يؤمنون بالإسلام ويخلصون له ويتحمسون لعلومه وآدابه ولغته. وقد أبقى لنا مدارس كثيرة في الشام ومصر والحجاز ما تزال شاهدة على حرصهم الشديد على نشر العلم وتعميمه. ولم يخل عصر أحدهم من إشادة مدرسة أو بناء جامع فيه مدرسة أو خزانة كتب أو تأسيس كتاب للأطفال أو دار قرآن للأيتام أو دار حديث للطلاب.

وقد أساء المستشرقون في الكتابة عن حقيقة الأمر ووضعوا الحجاب عليها واتهموا بأن عصر المملوكى والعثماني كان عصر ظلمة. لم يزدهر فيه أى عمل من الأعمال النبيلة ولم تطور الحضارة والثقافة والآداب والعلوم والفنون. يقول الدكتور فيليب حتى " بدأ عهد الظلام في الفكر عند العرب في حكم المماليك. وقد استمرت هذه الفترة المظلمة إلى القرن التاسع عشر. وكانت تزداد هلكا طيلة عهد الحكم العثماني. فإن الحرب والفوضى والمرض والجوع والظلم تتنافى مع الجو الذي يعيش فيه الفكر ويزدهر، كذلك كانت العزلة التي وجدت العرب أنفسهم فيها حائلا دون التلقيح الفكري الروحي بين الشعوب. وقد كان السلاطين أنفسهم من أغبى الحكام الذين عرفهم الإسلام، ومن أقل ثقافة. فقد كانوا عبيدًا يتميزون بالقسوة الفظاظة لا يشفع بهم سوى أنهم كانوا عسكريين أشداء. وليس من المماليك البرجيين (١٣٨٢-١٥١٧) من هو ابن رجل عربى سوى السلطان برقوق وكان خليفته برسباى (١٤٢٢) يجهل العربية. وقد أمر بقطع رأسى طبيبة لأنهما عجزا عن أن يشفياه من مرض خطير. وكان اينال (١٤٣٥-١٤٦٠) يجهل القراءة والكتابة".(٢٥)

والأسف على أن بعض الكتاب من المسلمين تبع المستشرقين وأخذوا طرقهم في عدم إلقاء النظر إلى هذا العصر بعيون المعقول فلم يخوضوا في حقيقة الأمر خائض البحر العميق. واتهموا كالمستشرقين أنه كان عصر شروح والهوامش مع أن المؤلفات التي صدرت في العصر المملوكى وحده بلغت عشرات الآف وظهر لبعض العلماء أكثر من مئات كتب كما ظهر في مختلف الفنون عدة كتب لها شهرة عالمية وبرزت جماعة كبيرة من العلماء في كل مجالات من العلوم والفنون. كأمثال

صلاح الدين الصفدي وله 'الوافي بالوفيات' وتغرى بردى وله "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة' وتاج الدين السبكي وله 'الطبقات الشافعية الكبرى' وابن حجر العسقلانى وله 'الدرر الكامنة' وشمس الدين الذهبي وله 'تاريخ الإسلام' و'سير اعلام النبلاء' و'كتاب العبر في خبر من غبر' وابن خلدون وله 'كتاب العبر' و'مقدمة ابن خلدون' وقلقشندى وله 'صبح الأعشى في صناعة الإنشاء' و'نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب' و'قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان' وابن تيمية وله 'والواسطة بين الحق والخلق' و'الجمع بين العقل والنقل' وابن كثير وله 'البداية والنهاية' والإمام شمس الدين السخاوى وله 'كتاب الضوء الام في اعيان القرن التاسع' و'التوبيخ لمن ذم التاريخ' والإمام العظيم التقى الورع جلال الدين السيوطى وله من المؤلفات ما يزيد على ثلاث مائة مؤلف منها 'المذهر' و'الإتقان في علوم القرآن' والنويرى وله 'نهاية الأرب من فنون الأدب'،والمقريزى وله 'كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك' و'المواعظ والاعتبار في ذكر الحفظ والآثار' و'عقد ظواهر الاسفاط من أخبار مدينة الفسطاط' و'البيان المفيد في الفرق بين الإيمان والتلحيد' و'عجائب المخلوقات في الفلك الجغرافية الطبيعية عند العرب' وابن شاكر الكتبى وله 'فوات الوفيات' وشمس الدين الدمشقى وله 'نخبة الدهر في عجائب البرو البحر' وابن فضل الله العمرى وله 'مسالك الأبصار في ممالك الأمصار' و'التعريف في مصطلح الشريف' وإبراهيم بن الفركاح وله 'الأعلام بفضائل الشام' وابن قيم الجوزية وله 'التبيان في أقسام القرآن' ويوسف بن عبد الرحمن وله' تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف، و'تهذيب الكمال' وأبو الفداوله 'المختصر في أخبار البشر' وابن حبيب وله 'درة الأسلاك في دولة الأتراك' والمرعى الكرمى وله 'نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاءِ والسلاطين' ولم يتخلف هذا العصر عن المساهمة في الأدب المسرحي، وقد طرق أبواب هذا الفن الموصلى في مصر وكان أكبر المسرحيين في المماليك. والكتاب الشهير المعروف عند الصغير والكبير في فن الرواية 'ألف ليلة وليلة' قد ظهر في هذا العصر. وقد لفت هذا الكتاب أنظار الشعب الشرقى والغربى إليه كما نشاهده في عصرنا الحاضر.

وإلى جانب هذا قد أسهم هذا العصر في ألوان مختلفة من الفنون والآداب فيما يشبه نظام الموسوعات العلمية ودوائر المعارف العامة في عصرنا الحديث من أمثال كتاب 'نهاية الأرب في

فنون العرب' للنويرى و'مسالك الأبصار في ممالك الأمصار' لابن فضل الله العمرى و'لسان العرب' لابن منظور و'صبح الأعشى في صناعة الإنشاء' للقلقشندى كما ذكرنا من قبل.

وجدير بنا أن نقف قليلا عند حركة عليمة وأدبية وتطورات العلوم المختلفة والفنون المتنوعة. كانت الحركة العلمية في دولة المماليك محمودة لكثرة المدارس عندهم وإقبال العلماء على مصر والشام. وكان بعض المماليك على جانب طيب من العلم والمعرفة والفضل، فكان طبيعيا جدا أن يحترم أمراؤهم وسلاطينهم وحواشيهم العلم وأهله.

اللغة وعلومها:

أخذت الشام تعنى بتعليم اللغة العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم، حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم ولشغفهم بالقرآن الكريم والاطلاع على معانيه وإعجازه. أقبلوا على علوم اللغة من النحو والصرف والفصاحة والبلاغة وما إلى ذلك، وأول نحوى ولغوى كبير في الشام الزجاجى وهو صنف في هذا الموضوع كتبا كثيرة. ومن أمثال ذلك "الجمل الكبرى" فهو كتاب نافع للغويين.(٢٦) واعتنى بدراسة اللغة وعلومها وبدأت تزدهر نشاطات هذه العلوم بعده إلى أن بلغ ازدهارها أوجه بأيدى نخبة من اللغويين والنحاة على رأسهم أبو العلا المعرى ويعيش ابن على وابن حاحب وابن مالك محمد ابن عبد الله. وتظل دراسات اللغة والنحو بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة وموصلولة بين علماء الشام ومصر طوال أيام المماليك. ونذكر منهم الذين درسوا النحو واللغة لطلاب بهاء الدين بن النحاس الحلبى ينسب له شرح على 'ديوان إمراء القيس'.(٢٧) ومحمد ابن الحسن وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على، ملحة الحريرى ومختصر لصحاح الجوهرى، وبهاء الدين ابن عقيل فإنه ألف شرحه المشهور على الألفية. وهؤلاء النحويين الشاميين نزلوا بالقاهرة وإنما خصصنا بذكر هؤلاء لنلقى ضوءًا على أن التبادل للعلمى بين القاهرة والشام في النحو ظل طوال زمن المماليك نشيطا. وظلت دراسته حية قوية إلى أبعد حد.

علم القراءات:

وكانت الحركة في القراءات والقرآن وعلومه مستمرة في أيام المماليك. ومن الذين تصدوا للقراءة في دمشق أبو الفتح.(٢٨) ولى مشيخة القراءة بتربة أم صالح. ومن كبار القراء بالشام من القرن الثامن الهجرى ابن جبارة المقدسي.(٢٩) درس القراءات في مصر وطاف بدمشق وحلب ثم استقر في بيت المقدس مدرسا للقراءات وعلوم العربية. وكان يعاصره برهان الدين الجعبرى.(٣٠) يقرى الناس وصنف في القراءات 'كتاب نزهة البررة في القراءات العشرة' ثم من جاء بعده هو ابن بارزى قاضى حماة وله شرح على الشاطبيه و'كتاب الشرعة في قراءات السبعة' ثم ابن الجزرى وله 'كتاب النشر في القراءات العشر' وهو منشور و'كتاب غاية النهاية في طبقات القراء' وهو المصدر الاساسي في الحديث أيضا. ومن كبار القراء والحفاظ بعده كان شمس الدين الرملى الدمشقى أحمد بن أحمد بن محمد تولى مشيخة الاقراء بالجامع الأموى. هكذا ظلت القراءات بالشام نشيطة في أيام المماليك وأيام العثمانيين.

علم التفسير:

ونجد في القرن الثامن الهجرى مفسرين كبيرين هما هبة الله بن البارزى وابن تيمية. لهما مساهمة فعالة في علم التفسير وقراءته. أما هبة الله البارزى فكان قاضيا لحماة وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعى وله شرح على الشاطبية في القراءات و'روضات الجنان في تفسير القرآن' في عشر مجلدات (توفي سنة ٧٣٨هـ.(٣١) وابن تيمية قد أدى دوراً خطيراً في تنجية وتطهير تفسير القرآن من زلات الفرق الباطنة وحمل على الإسرائيليات المدسوسة والمعتزلة والشيعة الباطنة وبعض المتصوفة. ثم جاء تلميذه ابن قيم الجوزية وله 'التبيان في أقسام القرآن' وكان يعاصره السمين الحلبى وله تفسير ضخم في عشرين مجلدًا و'كتاب في إعراب القرآن' في ثلاثة مجلدات باسم 'الدر المصون' و'كتاب في أحكام القرآن' وله شرح على الشاطبية في القراءات، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك في النحو، ونجد هناك ابن كثير أكبر المفسرين الشاميين المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤هـ .(٣٢) وله التفسير الكبير في تسعة أجزاء. وقد نقل الدكتور شوقى

ضيف قول الشوكانى في ثناءه على هذا التفسير " جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه. وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها".(٣٣) وظل تفسيره التفسير المتداول بين علماء الشام حتى يومنا هذا.

علم الحديث:

أما الحديث فلكونه مصدرا ثان للإسلام اشتغل المسلمون فيه كما اشتغل بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره لإقامة الدين وتعاليمه وكان أول المحدثين بها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم بعدهم التابعون، واستمرت دراسة الحديث بين المسلمين في كل قرن من القرون وازدهرت وتطورت في العصر الأموى والعباسي. ولم يتخلف عصر المماليك عن هذا الازدهار. فقد أنجب هذا العصر كبار المحدثين أسهموا في رفع شأن هذا العلم. ومن كبار المحدثين في هذا العصر المزى يوسف بن عبد الرحمن(٣٤) وإليه تنتهيرياسة المحدثين بالشام. ومن تصانيفه 'تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف' و'تهذيب الكمال' مشهوران والذهبى محمد ابن أحمد خافظ الشام وهو مع المزى من مفاخر الدمشق في زمنها. وله في الحديث تصانيف كثيرة مثل 'مختصر سنن البيهقي' و'مختصر الأطراف للمزى' والمعجم 'الكبير' و'الصغير'. وهناك عدد كبير من المحدثين الذين بذلوا جهود هم في هذا العصر في تطوير علم الحديث وصنفوا عددا ضخما من الكتب عليه.

علم الفقه:

علم الفقه في الحقيقة علم مستنبط من القرآن والحديث فكان طبيعيا أن يشتغل به المسلمون فيه لأجل هذا. كان الفقه في الشام نشيطا مع دراسة دينية وتكون للشامإمام أنشأ مذهبا فقهيا. ظل فيها مدة طويلة بجوار المذاهب الأربعة المشهورة المتداولة وهو إمام الأوزاعى.(٣٥) وكان هذا المذهب حيافي دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجرى. وكان المسلمون في العصر الأموى والعباسى متحزبين في المذاهب الأربعة، وكان أهل هذه المذاهب كل منهم متعصبين لمذهبهم من غير تفرقة بين الشعب والأمراء والسلاطين. وكانوا يبارزون في بناء وتشييد المدارس والمساجد تختص بكل المذاهب.ولكن كانت الأغلبة لمذهب الأحناف ومدرستهم كانت أكبر المدارس

وفقهائهم كانوا كثرين عددًا كما يذكر الدكتور شوقي ضيف "وكانت قد أخذت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أسست في دمشق كما مر بنا. المدرسة الصادرية سنة ٤٩١ ويعد ابن شداد من فقهائها حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر فقيها حنفيا، وذكر النعيمى بعده فقهائها إلى نهايةالمماليك. وقد ذكر ابن شداد بجوارها في دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٨٠ أربعا وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء فقهائها حتى سنة ٦٨٠ ويتابع ذلك النعيمى.(٣٦) وانتشر مذهب الشافعى في عصر الأيوبيين ودخل في مرحلة كبرى جديدة وأعظم فقيه شافعى انجبته الشام هو محى الدين النووىوله كتاب مشهور 'منهاج الطالبين' وفي الفتاوى له كتابان كبير وصغير. وعلاء الدين الباجى وإكمال الدين محمد الزملكانى من كبار فقهاء الشافعى. وكان المذهب المالكى والحنبلى أقل انتشارًا واتباعا في الشام وبرز في نهاية القرن السابع في المذهب اسم الإمام ابن تيمية وقد تكلمنا عن جانب من تحرره الفكرى واجتهاده من قبل. وله عشرات الرسائل والكتب في المسائل التشريعية والعقيدية ومن أهم كتبه الفقهية فتاوية في خمس مجلدات كبار.

السير والتراجم:

لم تتخلف الحركة العلمية في صورة كتابة السير والتراجم والمساهمة بعلم التاريخ في عصر المماليك. فقد ساهم العلماء في كتابة سير أعلام النبلاء من الكتاب والأدباء والمحدثين والأمراء والسلاطين. فظهرت كتب عدة في هذا الموضوع كما برز جماعة كبيرة ساهموا في كتابة السير والتراجم. وأول من أسهم في الكتابة عن السير على الاطلاق في الإسلام في أيام المماليك شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان فهو قد وضع أول معجم الأعلام المواطنين باللغة العربية وهو معجم كبير في السير سماها" وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمن" مجموعة دقيقة رائعة تحتوى ٨٦٥ سيرة لأكابر المسلمين في التاريخ. كما ذكر فيليب حتى " وهذا أول كتاب عربى محيط جامع لسير الأعلام عانى مؤلفة مشقة ضبط الأسماء وتحقيقها وتعيين التوا ريخ ورد الأنساب وتمحيص الحقائق وإبراز مزايا الرجال الشخصية وذكر الحوادث الخطيرة وإبراز الأمثلة من شعر وأصحاب السير ونوادرهم. فكانت نتيجة ذلك كله من رأى أحدهم.(٣٧) "أفضل كتب في السير عامة".(٣٨)

واستأنف من بعده هذا العمل ابن شاكر الكتبى الحلبى وله كتاب 'فوات الوفيات' يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان. ومن أشهر الكتّاب في هذا العصر هو صلاح الدين الصفدي وله كتاب ضخم " الوافى بالوفيات' وهو معجم للتراجم نحو ثلاثين مجلدًا جمع فيه نحو أربعة عشر ألف ترجمة، ترجم فيه للخلفاء والصحابة والتابعين والأمراء والقضاة والعمال والوزراء والقراء المحدثين والفقهاء والشيوخ والأولياء والنحاة والأدباء والكتاب والشعراء والأطباء والعلماء وأهل العقل والذكاء وأرباب المقالات ورؤساء المذاهب والمتفلسفية وكل من اشتهروا بعلم وشأن. وشمس الدين الذهبى وله 'تاريخ الإسلام، في اثنى عشر مجلداً. وأبو الفداء وله 'المختصر في أخبار البشر' تاريخ عام في أربعة أجزاء. وابن خلدون وله 'مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب' نشره جمال الدين الشيال في ثلاثة أجزاء. وابن حبيب وله 'درة الأسلاك في دولة الأتراك' كتب فيه عن تاريخ المماليك إلى أيامه ابتدأ بكتابته ولم يكمل بل أتمه ابنه طاهر. لابن حبيب أيضا كتاب في تاريخ 'أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر' ولمرعى الكرمى 'نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين' و'للمقر يزى خططه' بين فيها أقاليم مصرو أحوال سكانها وأودعها من الأخبار والحوادث التاريخية طائفة حسنة. وهى مجلدين كبيرين. وهناك عدة كتب ظهرت في هذا الموضوع. وكثيرون آخرون من المؤرخين وكتاب السير برزوا في هذا العصر.

علم الطب:

ويعرف عصر المماليك بترقى علوم الطب وتطوره فيه وأكبر مؤرخى الطب الذين أنجبهم العالم العربى في عصرهم هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن أبى أصيبعة (المتو في سنة ٦٦٨/١٢٧٠) لمع في دمشق في أول حقبة المماليك كان هو نفسه طبيبا. وقد درس الطب في مسقط رأسه في القاهرة. ولازم ابن البيطار العالم الأسبانى المسلم الشهير في أبحاثه النباتية وكان يكاتب العالم الطبيب عند اللطيف البغدادى، وكان خير كتبه 'عيون الأنباء في طبقات الأطباء'(٣٩) في مجلدين التي نشره امرؤ القيس ابن الطحان وهو موسوعة متقنة تضم نحوًا من أربع مئة من سير الأطباء العرب واليونان. وكان أقرب المؤلفات إليه كتاب لمعاصرله مصرى هو القفطى وله كتاب

'أخبار العلماء بأخبار الحكماء' يوجد هذا الكتاب مختصراً نشره يوليوس لبرت' وكان ممن اعتمدهم ابن أبى أصيبعة في تحصيل فلسفة اليونان عالم مصرى من أصل شامى هو أبو الوفاء ومحاسن الكلم وقد ترجم إلى الأسبانية ثم إلى اللاتنية فالفرنسية فالإنكليزية وطبعته الإنكليزية التي أخرجها وليم كاكستون في سنة ١٤٧٧ بتاريخ الطبع وموضوعه، وهو أول كتاب طبع بتلك اللغة ممهورًا. كما يذكر فيليب حتي " قد ظلت المؤلفات التي غذاها هذا الكتاب العربى ذات أثر في عالم الفكر والتأليف في أوربا الغربية أكثر من أربعة قرون".(٤٠) فيتضح أمامنا خلال البحث عن علم الطب أن عصر المماليك قد لعب دوراً في تطور الطب وشهد كثيرا من الأطباء ظهروا في عهدهم وأسهموا في علم الطب.

الأدب :

يمتاز عصر صلاح الدين الصفدي بالعلماء،الكتاب والأدباء والشعراء والمؤرخين. أما إذا كان عصره إن يزدهر بشئ من مظاهر الحياة الأدبية . فإن التأليف أوّل من يحق له أن يفتخر به. فقد كثرت المؤلفات فيه كثرة مدهشة. وانصب العلماء فيه على التدوين انصبابا صرفهم عن مشاغل الحياة وشؤنها وتوجهت نفوسهم إلى سد كل حاجة دينية أو فنية أو كونية بمؤلف أو بمؤلفات وتنافسوا في الإجادة وتسابقوا في كثرة الإنتاج.ووصل كثير منهم إلى مدى الاجتهاد أو كاد. وتناولوا كل شئ بأقلامهم حتي التافه الحقير من الشئون وابتكر بعضهم مباحث وعلوما لم يكن للناس عهد بها. ولا غرو' فقد كانت مصر والشام في عصر صلاح الدين حافلتين بالمدارس ودور العلم. وكانت القاهرة والإسكندرية وقوص وغيرها من البلاد المصرية ثم دمشق وحلب وصفد وغيرها من البلاد الشامية تموج بالعلماء والأدباء والطلاب موجا.

وقد اتضح خلال بحثنا عن مختلف العلوم في عصر صلاح الدين الصفدي مساهمته في حقل الأدب النثرى. فإن المساهمة فيه كانت ضعيفة خائرة وممن أسهموا في هذا المجال جمال الدين الواطواط وله 'غرر الخصائص الواضحة وغرر النقائض الفاضحة' وعلاء الدين البهاء الدمشقي وله 'كتاب مطالع البدور في منازل السرور' 'الأبشيهى واشتهر بكتابه 'المستطرف في كل فن

مستظرف' وشمس الدين النواجى القاهرى وله 'حلبة الكميت' وابن حبيب الحلبى وله 'نسيم الصبا' وابن حجة الحموي وكان رئيس أدباء عصره، مولعا بالبديع وخير كتبه 'كتاب خزانة الأدب وغاية الأرب' شرح فيه بديعته. وهو خير كتاب لطالب تاريخ الأدب في عصر المماليك. لأنه أكثر فيه من الاستشهاد بشعراء عصره وصور الحياة الأدبية تصويرًا صادقًا.

ولم يكن حظ الشعر أحسن منه في النثر، كان الشعراء اختطوا لأنفسهم السبل التى سلك عليها الشعراء السابقون فكما أن الشعراء السابقين مالوا إلى الصناعة اللفظية في تحلية الشعر بأنواع البديع وأفرطوا فى تزيين ألفاظ الشعر إفراطا بالغاسلك على طريقهم شعراء هذا العصر. ويتضح للباحث بأن الكتب المتداولة وإن اهتمت على ذكر عشرات من شعراء الشام في عصر صلاح الدين ولكن نستطيع أن نقول إن الشعر لم يزدهر في عصره. وكان تقليديا ضيق المدى لأسباب كثيرة كعدم تشجيع الملوك وعدم فهمهم الشعر. وإن الأمراء المملوك لم تكن لهم صلة بالشعراء ولا يمنحون الشعراء فانصرفوا إلى وسائل الكسب الأخرى كالكتابة في الدواوين والصناعة. ولم يكن للشعراء كثير من الفرض والفراق التى تدفعهم إلى قرض الشعر للاضطراب في السياسة والاجتماع. يقول أحمد الإسكندرى وزملائه " وإن بقاء الشعر في هذا العصر حافظا روعته وجماله بعد أن ذهبت أسباب نهوضه أو كادت مما يستوقف نظر طالب الأدب. فقد زال عنه تشجيع الملوك ولم يكن من السلاطين إلا قليل ممن يفهم الشعر. وهم آل قلاوون والسلطان حسن والمؤيد شيخ الذي كان ينظم الشعر ويلحنه. ثم السلطان الغورى، وقليل منهم جدًا من اختص بشاعر أو شعراء كما كانت الحال في العصر العباسي. ولم يكن هذا العهد عهد الصلات ولا عهد الإغداق ولا عهد ملء الأفواه بالدّر والجوهر. فلم يجد الشعراء في الشعر مرتزقا. فانصرفوا إلى وسائل الكسب الأخرى كالكتابة في الدووين والصناعات، فكان منهم الجزّار والحمّاميّ والكحّال والدّهان. ألم يهم ابن نباتة وهو إمام الشعراء في عصره بين بلاد مصر والشام طالبا القوت ملتمسا الكفاف، فلم يجده إلا مجهدا مكدوداً. ثم إن أسباب اللهو وفراغ البال التي تدفع أحيانا بلابل الشعر إلى التغريد قد سكتت في هذا العصر الذي كان في جملته عصر جد وصرامة واضطراب".(٤١)

يظهر مما تقدم أن الشعر في هذا العصر تأخر ولم ينهض بل كان في ركود وضيق مع أنهم تنافسوا في تحلية الشعر بأنواع مختلفة من الصناعة اللفظية والمعنوية ويفرطون في التلاعب بالألفاظ في مهارة ولباقة حتى نستطيع أن نسمى الشعر في هذا العصر شعر ألفاظ والزينة. وقد يكون من الأسباب الدافعة إلى إجادة الشعر وتزيين ألفاظه وتحلية أوزانه في هذا العصر. ما كان من التنافس الشديد بين شعراء مصر والشام، فما كان يبتدع شاعر مصر أو يجيد قصيدة تناولها شعراء الشام بالنقد أو بالمعارضةأو السرقة. يذكر أحمد الإسكندرى وزملائه "إن ابن نباتة كان كلما اخترع معنى أخذه الصلاح الصفدي بلفظه أو بتغيير فيه قليل، وإن ابن نباتة لذلك ألف رسالة جمع فيها ما قاله فأخذه منه الصلاح وسماها خبز الشعير لأنه مأكول مذموم".(٤٢) ونجده كذلك عند يا قوت الحموى أنه وقف في خزانته غير مرات كى يذكر ملاحظة ابن نباتة كثرة سرقاته لمعانى شعر الصفدي،يقول الدكتور شوقى ضيف " إن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لمعانى شعره وأنه ألف كتابا في سرقاته منه سماه " خبز الشعير" يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعير وأكله".(٤٣) ومن كبار الشعراء في أيام المماليك جمال الدين ابن نباتة (٦٨٦-٧٦٨هـ) كان حامل لواء الفن الجديد بمصر والشام، وصفى الدين الحلى (٦٧٧-٧٥٠هـ) وشاب الظريف (٦٦١-٦٨٨هـ) وابن الوردى (٦٨٩-٧٤٩هـ) وبدر الدين الذهبى (ت -٦٨٠) وقد اشتهر الشاعر الكبير البوصيرى في هذا العصر ومنح دنيا العرب قصيدته الشهيرة 'قصيدة البردة'

وهكذا بعثت الثقافة الإسلامية والعربية في هذا العصر من جديد على أيدى نخبة من كبار العلماء وأعلام النبلاء، الذين أعادوا كتابتها من جديد وأسهموا في حمايتها والحفاظ عليها على مر العصور. ومن هولاء العلماء أديبنا ومؤرخنا صلاح الدين الصفدي.

الفصل الرابع:

مراكز الثقافة:

إن سلاطين المماليك كانوا ميالين إلى العلم والمعرفة والفكرة الدينية والإسلامية وهم يحبون العلماء والأدباء ويعظمون حرمتهم ويقدرون فضلهم كما ذكرنا آنفا. ويتضح لنا أنهم أسسوا كثيرا من

المدارس والمكاتب للدرس والتدريس في مصر والشام . فأصبحت القاهرة والشام مركز العلم والثقافة لبلاد الإسلام جميعا. وازدهر الأزهر والشام في عصر المماليك ازدهارا وهاجر إليها العلماء والطلاب من مشارق الأرض ومغاربها للانقطاع لطلب العلم والتمكن من اللغة والأدب والدين وغير ذلك. ولما هاجر العلماء والطلاب إلى القاهرة والشام من أنحاء الأرض وجدوا أبواب المدارس والمساجد والمعاهد مفتحة لهم. وأشهر المدارس التي أسست في هذا العهد:

المدرسة الظاهرية بناها السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦١هـ وكان بها دروس للفقه الشافعي والحنفي وللقراءات. ثم المدرسة المنصورية بناها الملك المنصور قلاوون. ثم المدرسة الناصرية ابتدأها العادل وأتمها الناصر سنة ٧٠٣هـ ورتب دروسا للمذاهب الأربعة ثم المدرسة السلطان حسن ابتدأ في بنائها سنة ٧٥٨ هـ ثم المدرسة الظاهرية تم بناؤها (٧٨٨هـ) ثم المدرسة المؤيدية تمت عمارتها سنة (٨١٩هـ) وبلغت النفقة عليها أربعين ألف دينار. وكانت لكل مدرسة مكتبة حافلة بالكتب الكثيرة في شتى الموضوع والعلوم. وكان المساجد في هذا العصر معهد العلوم الدينية. كان علماء التفسير والحديث يتخذون مكانهم للتدريس كما كان القضاة يجلسون فيه للنظر في شئون المتقاضين. ولم تكن المساجد مقصورة في تعليم الدراسة الدينية الإسلامية بل قد تدرس فيه العلوم الأخرى كالنحو والشعر والأدب والفلك والحساب والطب وغير ذلك. ومن أشهر مساجد التعليم جامع عمرو ابن العاص في القاهرة كما ذكر المقريزى، فيه بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه(٤٤) وجامع أحمد بن طولون، الذي درس فيه الطب إلى جانب تدريس العلوم الدينية(٤٥) والجامع الأزهر وهو أشهر معاهد العلوم الإسلامية على الإطلاق.

ومن المراكز الثقافية "الزاوية" وهى أبنية صغيرة ملحقة بالمسجد أو منفصلة بجواره تعقد فيها حلقات دراسية بعلوم الدين والعربية والفكرية. انتشرت هذه الزوايا في القرن الثامن الهجرى وانشأت فيها كتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين ومبادى العلوم.

وأكبر الظن أن كثرة التأليف والإنتاج في هذا العصر ترجع إلى بغداد بعد سقوطها أحرق التتار فيها كثيرا من الكتب ودمروا كل شئ تدميرا. فدفع العلماء شعورهم الدينى إلى إعادة ذلك التراث الذى عبثت به كوارث الغزو وتجديد وتحصيل ذلك المجد الإسلامى الذي بنى في دهور. فأخذوا

يبذلون الجهد الجهيد في التأليف والتصنيف لإصلاح ما افسدته الأيام وأنشأ كتب جديدة في اللغة والدين والأدب وغيرها.

ففي هذه للمحة الخاطفة من الحالات المذكورة خلال حكم دولة المماليك ولد أديبنا وكاتبنا ومؤرخنا صلاح الدين الصفدي ونشأ وترعرع فبرز كأديب وناقد ومؤرخ كبير وقد شاهد في عصره العديد من الأحداث التي تحدثنا عنها فكان لها أثرها الواضح على شخصيته وتفكراته وكتاباته وتأثيرها المباشر في ثقافته وأدبه. وكانت ولادته في أرض راقية حافلة بالعلماء والأدباء وهي أرض 'صفد' فنقف قليلا عند هذه الأرض المباركة حدودها واستعراض جغرافيتها وخيراتها الطبيعية والكسبية.

الفصل الخامس:

أرض'صفد' موقعها وحدودها:

إذا قمنا أمام خريطة عالمية نرى على قمة عالية إلى الغرب من عكا وعلى شمال شرقى من بحيرة طبرية بلدة 'صفد' في الشام وهي بلدة قديمة تاريخية مقدسة عند اليهود، وجاء حدودها في دائرة المعارف الإنكليزية الإسلامية كالتالي:

'SAFAD' a small city surrounding the ruins of a once impressive fortress in the hilly region of northern Palestine, 40 km est of AKKa and 20 Km north of Tabariyya". (٤٦)

وكان 'صفد' غير مشهورة قبل الحروب الصليبية ولم يذكر أحد جغرافى العرب قبل سنة السادس الهجرى، وفيها وقعت الحروب الصليبية مراراً. وقد عمر المحاربون الصليبيون هذه القلعة 'صفد' خلال القرن السادس الهجرى. وقد هزم السلطان صلاح الدين الأيوبى المهاجمين الصليبيين سنة ٥٨٣هـ في موضع حطين' هزيمة فضيحة وهدم إمارة الشام وفلسطين ثم انتصر على بيت المقدس مرةً أخرى واحتل 'صفد' ١٤ شوال سنة ٥٨٤هـ.

وهى إحدى مدن اليهود الأربع المشهورة التى هى اورشليم وصفد وحبرون وطبرية. واستولى عليها الملك بيبرس سنة١٢٦٦م وقتل رجال الحامية عن بكرة أبيهم بالرغم من أنهم قد أمنوا على

حياتهم وعزز بيبرس أيضا أسباب الدفاع وبنى مسجداً في الحصن ثم سقطت 'عكا' بعد ذلك ١٢٩١م.

وظلت 'صفد' في عهد المماليك مركزاً هاماً. فقد كانت قصبة إحدى المماليك أو النيابات الكبرى التي قسمت إليها سورية. وكانت نيابة 'صفد' تشمل الجليل كله وعكا أيضا. كما كانت المدينة نفسها مقر النائب ومركزاً للحياة الأدبية. وقد اختلف عدد سكان 'صفد' كثيراً على مر الزمن. ففى القرن الرابع عشر كانت هي مدينة متوسط الحجم' المدينة نفسها شيدة على ثلاثه تلال يسكن اليهود منها التل الشمالى. وفي الحي الإسلامي أربعة مساجد متوسط الحجم.

ومن ناحية أخرى أن مدينة 'صفد' لها أهمية كبرىٰ لجمال وطيب هوائها وجريان مائها وأحسن بساتينها وروعة حقولها، فكانت تأتى صادراتها وتحصيلاتها من الزيتون والقمح والأُذرة والقطن وغيرها إلى شتي البلاد العالمية. كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية " وفي الواديان التى تتوسط التلال والتي تمتد على سفوحها حتي بحيرة طبرية حقول بساتين تابعة للمدينة وهي تغل محصولات عظيمة من القمح والأُذرة والزيتون والتبغ والقطن وأنواعاً كثيرة من الخضروات. المنظر الرائع الذى يعلو الحيرة وهو محل الإعجاب عادة ويوجد اطلال الحصن في أُعلى التل".(٤٧)

وهي الآن تحت حكومة الإسرائيلية. في هذه الأرض الخضراء ذات البساتين ولد كاتبنا صلاح الدين الصفدي. كما أنجبت هذه الأرض نخبة من العلماء والكتاب الأجلاء حملوا بأيديهم لواء العلوم والفنون المختلفة في ذلك العصر وفيما بعد. نجد على طليعتهم أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصفدي، وأبو الفضائل يوسف بن هلال بن أبي البركات جمال الدين الحنفي، والحسن بن أبى محمد عبد الله الهاشمى وفخر الدين عثمان بن إبراهيم الشافعي الصفدي، وقاضي القضاة شمس الدين العثمانى الصفدي، وعبد الله الصفدي وعلاء الدين على بن محمد صالح ابن الرسام الصفدي وصالح بن الصفدي وشهاب الدين أحمد بن موسى بن خفاجا الصفدي وعلاء الدين على بن عبد الرحمن بن الحسين بن الخطيب العثمانى الصفدي ونجم الدين حسن بن محمد الصفدى خطيب 'صفد' وأسد الدين بن محمد الصفدي والبدر الدين حامد الصفدي وغيرهم.

ويتضح لنا مما سبق أن 'الصفد' التي ينسب إليها الصفدي كانت مركز إقليم واسع الأطراف في القرن الثامن الهجرى، ولها نائب من أكبر العلماء والأمراء المتقدمين، وتتبعها إحدى عشرة ولاية، منها الناصرة، وطبرية، وعثليت، وعكا، وصور، والبعته وجنين واللجون. وكانت تتميز بقلعتها الحصينة التي كان لها أيضا نائب مستقل عن نائب البلد نفسه. كما تتميز بكثرة بساتينها وجمال مناظرها الطبيعية، وكان الغالب على أهلها مذهب الشافعى، وفيها بعض الحنيفة، ولذلك كانت الدولة تعيين لها قاضيين. وكانت دواوين الحكومة فيها صورة أخرى مما هي عليه في القاهرة ودمشق. وقد نشطت فيها الحياة الصناعية وازدهرت الحياة العلمية وكثرت فيها حلقات التدريس وتخرج فيها كثير من المثقفين المشهورين بنسبتهم إلى 'صفد'.

المصادر والمراجع للباب الأول.

١ القرآن الكريم، سورة بنى إسرائيل اية : ١.

٢ القرآن الكريم، سورة الأنبيآء اية : ٨١.

٣ أحمد بن حنبل، ٤٩٩/٣.

٤ دائرة المعارف، البستانى، ٢٩٤/١٠.

٥ المصدر السابق ص: ٢٩٤.

٦ المصدر السابق ص: ٢٩٤.

٧ المصدر السابق ص: ٢٩٥.

٨ المصدر السابق ص: ٢٩٥.

٩ تاريخ الأدب العربى عصر الدول والإمارات والشام، الدكتور شوقى ضيف، ص: ٣٣.

١٠ تاريخ العرب، الدكتور فيليب حتي، ترجمة د: ادورد جرجى وزميله، ٧٩٥/٢.

١١ المصدر السابق ص: ٧٩٥/٢.

١٢ الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد على، ٢٩٤/٢.

١٣ نشره محمد مصطفى زياده وجمال الدين الشيال سنة ١٩٤٠بالقاهرة.

١٤ النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، ٧٠/٥.

١٥ لبنان في التاريخ، الدكتور فيليب حتي ترجمة د: انيس فريحه، ص: ٤٠٢، ٤٠٣.

١٦ المصدر السابق ص: ٤٠٣.

١٧ مطالعات في الشعر المملوكى والعثمانى، الدكتور بكرى شيخ أمين، ص: ٤٤، ٤٥.

١٨ المصدر السابق ص: ٤٩.

١٩ لبنان في التاريخ، الدكتور فيليب حتي، ص: ٤١١.

٢٠ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الدكتور فيليب حتي، ترجمة : الدكتور انيس فريحة، المجلد الثانى ص: ٢٧٧.

٢١ A History of Palestine from, 135 A.D. to Modern times, Jemes Parkes, p.137.

٢٢ لبنان في التاريخ، الدكتور فيليب حتى، ص: ٣٩٧.

٢٣ تاريخ الأدب العربى، عصر الدول والامارات، الدكتور شوقى ضيف، ص: ٥٨.

٢٤ لبنان في التاريخ، الدكتور فيليب حتى، ص: ٣٩٧.

٢٥ المصدر السابق، ص: ٤١٧، ٤١٨.

٢٦ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٢/٣١٧، وتاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات الدكتور شوقى ضيف، ص: ٨٣.

٢٧ تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الدكتور شوقى ضيف، ص: ٨٨.

٢٨ شذرات الذهب، ابن عماد ٦/٨٦، وتاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات، الدكتور شوقى ضيف ص: ٩٦.

٢٩ شذرات الذهب، ابن عماد، ٦/٨٦.

٣٠ المصدر السابق، ص: ٦/٩٧.

٣١ تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الدكتور شوقى ضيف، ص: ٩٧.

٣٢ المصدر السابق، ص: ٩٨.

٣٣ المصدر السابق، ص: ٩٨.

٣٤ النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، ١٠/٧٦.

٣٥ الطبقات الشافعية، تاج الدين السبكى، ١/٣٢٦.

٣٦ تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الدكتور شوقى ضيف، ص: ١٠٣.

٣٧ وهو نيكولسن يقول "It is the best general biography ever written": A Literary History.of the Arabs, P452.

٣٨ تاريخ العرب، الدكتور فيليب حتى، ٢/٨١٢.

٣٩ تاريخ سوريه ولبنان وفلسطين، الدكتور فيليب حتى، ترجمة: الدكتور انيس فريحة، المجلد الثانى ص: ٢٨٣.

٤٠ المصدر السابق ص: ٢٨٤.

٤١ المفصل في تاريخ الأدب العربى، أحمد الاسكندرى وزملائه، ص: ٤٢٣.

٤٢ المصدر السابق ص: ٤٢٣، ٤٢٤.

٤٣ تاريخ الأدب العربى، عصر الدول والامارات والشام، الدكتور شوقى ضيف، ص: ٣٠٤.

٤٤ الخطط، المقريزى، ٢/٢٥٦.

٤٥ المصدر السابق ص: ٢/٣٦٣.

٤٦ The Encyclopedia of Islam, Leiden E.J. Brill vol. 8. P.757.

٤٧ دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٢١٨.

الباب الثاني.

صلاح الدين الصفْدي في مراحل حياته.

الفصل الأول : مولده.

الفصل الثانى: اسمه وأسرته.

الفصل الثالث: نشأته ودراسته.

الفصل الرابع: رحلته في طلب العلم وشيوخه.

الفصل الخامس: أخلاقه وصفاته الحميدة.

الفصل السادس: وفاته.

المصادر والمراجع.

الباب الثاني.

صلاح الدين الصفدي في مراحل حياته.

لا شك أن القرن الثامن الهجرى يعتبر مرحلة من مراحل النشاط الثقافى والفكرى، وقد ظهرت هذه المراحل العلمية في الدولة الإسلامية عقب الزحف التترى على بلاد الشام، حيث نبغ في هذا القرن زمرة من العلماء اشتهروا بما نشروا وأمتعوا بما دونوا، ودفعوا أنفسهم دفعًا إلى تراث أبائهم وأجدادهم، فعكفوا عليه تحصيلاً وفهماً، وتمثلوه علماً وفناً. وكان ذلك إيذاناً ببداية عصر الموسوعات العلمية والأدبية، ولمعت آنذاك في سماء الفكر شخصيات فريدة من أمثال الذهبى والنويرى والصفدي والسبكى، فكان صلاح الدين الصفدي من أحد هؤلاء العلماء النابغين.

الفصل الأول:

مولده:

ولد صلاح الدين الصفدي 'بصفد' في فلسطين سنة ٦٩٦هـ ١٢٩٦م. ولكن اختلفت آراء الكتاب والمؤرخين في سنة ولادته. يقول ابن حجر العسقلانى " خليل بن أيبك بن عبد الله الأديب صلاح الدين الصفدي أبو الصفا ولد سنة ست أو سبع وتسعين وستمائة تقريبا".(١) وذكر ابن عماد مثل هذا أن الصفدي ولد في سنة ٦٩٦/٦٩٧هـ إذ يقول " وفيها صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي الشافعى مولده 'بصفد' في سنة ست أو سبع وتسعين وستمائة".(٢) فلم يجز ما بقول وترددا بين سنتين أى إما أن يكون سنة ٦٩٦هـ. أو سنة ٦٩٧هـ. ولكن الشوكانى أكد بأنه ولد في سنة ٦٩٧هـ كما يقول " الصفدي الأديب المشهور ولد سنة ٦٩٧هـ سبع وتسعين وستمائة".(٣) حينما يرى خير الدين الزركلى أنه ولد في سنة ٦٩٦هـ ولا يتردد فيه كما يظهر من عبارته. "صلاح الدين الصفدي ٦٩٦-٧٦٤ ـــ ١٢٩٦-١٣٦٣ خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي صلاح الدين أديب مؤرخ كثير التصانيف المتعة. ولد في 'صفد' (بفلسطين) وإليها نسبته".(٤) ويتضح للباحث أن ميلاده كان في سنة ٦٩٦هـ لأن المصادر قد كثرت على إثبات هذا القول وبه أخذ أكثر الكتاب المحدثين. يقول الدكتور شوقى ضيف " هو

صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ولد بصفد في فلسطين سنة ٦٩٦هـ".(٥) ويقول جرجي زيدان " هو صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك الصفدي ولد في صفد سنة ٦٩٦هـ".(٦) ويقول محمود رزق سليم " هو المؤرخ الشاعر أبو الصفا خليل بن أيبك ولد في 'صفد' سنة ٦٩٦هـ".(٧)

الفصل الثاني:

اسمه وأسرته:

اسمه الكامل صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي الشافعي وبهذا ورد في شذرات الذهب في أخبار من ذهب وفي معجم المطبوعات العربية والمعربة.(٨) فاسمه الحقيقي هو 'خليل' ولقبه صلاح الدين وكنيته أبو الصفا.ونسبته الشافعي منسوبا إلى المسلك الشافعي بأنه كان يتبع مذهبه. والصفدي نسبته الثانية منسوبا إلى مسقط رأسه. ووالده عز الدين أيبك بن عبد الله الصفدي هو تركي النسل. وكان من المؤظفين المتوسطين تحت سلاطين المماليك كما أنه كان على شئ من النعمة. وقد نسبه بعض المؤرخين إلى أنه كان من أمراء المماليك. ولم يذكر كتب التاريخ عن أحواله إلا قليلا.

وكان لصلاح الدين الصفدي أخ صغير هو أبو إسحاق جمال الدين إبراهيم بن أيبك بن عبد الله الصفدي. كان ولادته سنة ٧٠٠هـ وهو أصغر من صلاح الدين بأربع سنوات. وقد لاقى أجله وهو في نضرة الشباب. ولم يتحدث كتب التاريخ عن أمه شيئا ولا عن اخواته ولا عن أولاده إلا ما ذكره قاضى شهبة عن ولد له هو محمد بن خليل بن أيبك الصدر تاج الدين بن القاضى العالم صلاح الدين الصفدي الموقع وولى توقيع الحاجب مرتين. وكان شكلا حسنا تركى العينين وأسرع إليه الشيب مات مطعونا في شوال ودفن بالصوفية وكان عشر الخمسين.(٩)

الفصل الثالث:

نشأته ودراسته:

نشأ صلاح الدين الصفدي وترعرع في مسقط رأسه 'صفد' كنشأة اطفال أخرى من المماليك. يقول محمد كرد علي " كان والده من المماليك من عنصر تركى ولد ابنه في 'صفد'. ونشأ على ما ينشأ عليه أبناء المماليك نشأة عربية خالصة".(١٠)

ولم تساير معه الأوضاع أن يأخذ العلوم من علماء 'صفد' مع أنه كان فيها جماعة مشهورون في الحديث والرواية والأدب. نعم، أنه حفظ القرآن العزيز في صغره.(١١) ثم حصل على مبادى العلوم الإبتدائية من علمائها وهنا تعنى صناعة الرسم فمهر فيها وكتب الخط الجيد. نشاهد بما نسب إليه أنه خط يده ولم يوجه والده عنايته إلى دراسته وثقافته ظنا منه أن ولده يعكف حياته على ما كان عليه نفسه مؤظفا متوسطا. فمن ردود الفعل لم يكن لصلاح الدين الصفدي أن يبرع في العلوم العالية والمعارف القيمة إلا بعد أن بلغ عشرين سنة من عمره. واتهم أباه أنه كان سببا لتخلفه عن العلوم والدراسة. يقول ابن حجر العسقلانى " وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة فطلب بنفسه وقال الشعر الحسن ثم أكثر جدا من النظم والنثر والترسل والتواقيع".(١٢) كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإنكليزية:

"His father showed no concern for his professional religious, legal studies until he was twenty was correctly transmitted".(13)

الفصل الرابع:

رحلته في طلب العلم وشيوخه:

كان من عادة العلماء المسلمين منذ فجر الإسلام أن يرحلوا في طلب العلم من مكان إلى آخر للاستفادة من مشائخ زمانهم المشهورين. ولكن يبدوا أن ظهور المدارس في البلاد الإسلامية بكثرة منذ القرن السادس الهجرى، وتعيين أشهر العلماء فيها، أضعف من أهمية الرحلة في طلب العلم وضرورتها القصوى التي كانت قديما، وكانت القاهرة ودمشق في عصر المماليك مركزين رئيسيين في العالم الإسلامي للعلم والمعرفة والثقافة، وكانتا عامرتين بمئات من العلماء البارزين الذين وقفوا

حياتهم لنشر العلم وتثقيف الأجيال الناشئة ، فكانت العلماء والطلاب يقصد همامن جميع أنحاء العالم الإسلامي.

ولما لم يجد الصفدي بغيته من العلم في 'صفد' مع حرصه عليه رحل إلى دمشق وكانت حافلة بالعلماء والمفسرين والمحدثين والكتاب والفقهاء واللغويين والمؤرخين، فكانت أرضا خضراء له لحصول بغيته وهنا عكف صلاح الدين الصفدي حياته على طلب العلم من أجل علمائها وفيها يسئل ابن تيمية في شئ من شئون التفسير ويحاوره محاورة الطالب المطلع ويلتقى هناك أيضا با لشهاب محمود أحد المعمرين في ديوان الإنشاء فيقرأ عليه مؤلفاته الأدبية وكتبا أخرى في الأدب ويدرس التاريخ على الحافظ الذهبي، وكان أثر أستاذيه هذين أقوى في نفسه من أثر بن تيمية وتلمذ أيضا على حافظ المزى وابن جماعة درس عندهما الفقه على مذهب الشافعي. ثم بعد عودته إلى صفد حضر دروس أساتذة كان يعرفهم من قبل مثل على ابن الصياد والنجم الصفدي وتعرف إلى شيخ غريب الاطوار يدعى شيخ حطين وهو صوفى ذكى يتكلم في كل فن دون معرفة، وتناول منه كتابا في الفراسة مزج فيه كلام الشافعى وابن عربى وافلاطون وأرسطو، وعرض شيخ حطين أشعاره على الصفدي فنقحها له وأصلحها، وغادر صلاح الدين مسقط رائسه إلى القاهرة ونظر في المدرسة الظاهرية بين القصرين عند الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس واقام في صحبته ما يقرب من سنتين وسمع منه كتبه وقصائده النبويه ومروياته من الشعر، ودرس عليه حديث البخاري وتلقى دروس المغازى والسير. وفي أثناء ذلك كان يتردد إلى مجلس النحوى المفسر الكبير أبى حيان الجيانى يقول صلاح الدين عن قراءته عنده " وقرأت عليه الأشعار الستة، وكان يحفظها، والمقامات الحريرية، وحضرها جماعة من افاضل الديار المصرية وسمعوها بقراءتى عليه. وقال لى: لم أربعد ابن دقيق العيد أفصح من قرائتك، ولما وصلت إلى المقامة التي أورد الحريرى فيها الأحاجى قال: ما أعرف مفهوم الأحجية المصطلح عليها بين أهل الأدب، فأخذت في إيضاح ذلك وضرب الأمثلة له فقال لى : لا تتعب معى، فإني تعبت مع نفسى في معرفة ذلك كثيراً ولا أفاد ولاظهر لى. وهذا غاية من الإنصاف منه والعدالة لاعترافه لى في مثل ذلك الجمع ، وهم يسمعون كلامه بمثل ذلك، وقرأت عليه سقط الزند لأبى العلاء المعرى وبعض

ديوان الحماسة لأبى تمام الطائى ومقصورة ابن دريد (قرأها عليه كلها في مجلس واحد) وسمعت من لفظه كتاب الفصيح لثعلب وكان يحفظه، وسمعت من لفظه كتاب تلخيص العبارات بلطيف الإشارات في القراءات السبع لابن بليمة، وسمعت من لفظه خطبة كتاب ارتشاف الضرب من لسان العرب وانتقيت ديوانه وكتبه وسمعتها منه وسمعت من لفظه ما اخترته من كتابه مجانى العصر".(١٤)

وفي القاهرة قرأ الصفدي المنطق والفلكية والهندسية من الأستاذ ابن الأكفانى والحكيم الرياضى البارع في الهيئة والهندسة والحساب وهكذا كانت إقامته في القاهرة غزيرة الفائدة طيبة الثمرات، تعرف فيها إلى كثير من العلماء والمثقفين وأطلع فيها على كثير من الأحوال والعادات، وأمتدت بينه وبين الأساتذة والزملاء أسباب من الصداقة جعلته دائما يحن إلى عهوده هنالك، ولما عاد إلى الشام كان من همه أن يلقى أكبر شاعرين في عصره، أعنى ابن نباتة والصفى الحلى، ليروى أشعارهما، فالتقى بالأول في دمشق (٧٢٩هـ) وكان يجالسه عند الحائط الشمالى من الجوامع الأموى، ويستمع إلى شعره، والتقى بالثانى شمالى حلب، وكان الصفى تاجراً يتنقل بين الشام ومصر وماردين ويمدح الملوك والأعيان في تنقلاته، فأخذ عنه ديوانه. وسمع الصلاح الصفدي بمصر من يونس الدبوسى وتقى الدين السبكى وأبو الحسن البندنيجى البغدادى أيضا كان من زمرة شيوخه. فاستفاد صلاح الدين من علوم هؤلاء العلماء الأجلاء وبرز كأديب ومؤرخ وكاتب وشاعر وفنان ورسام. وقد قام الصلاح الصفدي بعدة رحلات إلى مدن العلم والأدب ليبرع في شتى المجالات من العلم والفن على رأسها القاهرة ودمشق وحلب وعقدت المودة أواصرها بينه وبين كثير من الأدباء العلماء كأمثال من ذكرناهم وغيرهم من الآخرين.

ومن الطريف أن صلاح الدين بعد أخذ علومه عن أجل رجال العلم برع فيها واحتل مكانة عالية حتى أن بعض من تلقى الدرس عنده جعل يجلس مجلسه ويستمع إلى تعليمه. يقول الدكتور مصطفى الشكعة " إن صلاح الدين الصفدي واحد من العلماء القليلين الذين أصبحوا فيما بعد أساتذة لأساتذتهم. أخذ العلم عن عديد من العلماء في صفد ودمشق والقاهرة. أخذ عن شهاب محمود، وابن سيد الناس، وابن نباتة المصرى، وأبى حيان المصرى، والذهبى وابن كثير، ومن

الطريف أن بعض هؤلاء العلماء الأعلام جلسوا للاستماع إليه حين أصبح عالماً كبيراً يجلس للدرس فيؤم مجلسه الكبار والصغار".(١٥)

وبدأ الصلاح الصفدي حياته العملية بصناعة الرسم، ثم أقبل إلى أداء الفرائض المنصبية. وكان أول ما ولى من الأعمال كتابة الدرج بموطنه 'صفد' فكان يكتب ما يوقع به كبار الكتب في دواوينها لجودة خطه. ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها ومضى يختلف أثناء ادائه مسئولية الوظيفة إلى حلقات العلماء والأدباء بها وغادرها إلى دمشق وكان رئيس الديوان بها حينئيذ الشهاب محمود.(١٦) وقد أعجب بالشاب الصفدي فعينه في كتابة الدست حتى يعاونه في عمله وما يتصل به من إنشاء بعض الرسائل وهنا توثقت صلته بابن نباتة المصرى الذى تخرج على يديه شاعرًا. وتوفى الشهاب محمود سنة ٧٢٥هـ فظل صلاح الدين الصفدي يعمل في دواوين الشام. وقد عين رئيسا لديوان الإنشاء في حلب لمدة. ثم عاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها في كتابة الدست مساعدًا لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة في كتابة التواقيع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار المؤظفين. وأضيفت إليه حينئيذ وكالة بيت المال. يقول ابن حجر العسقلانى. "وأول ما ولى كتابة الدرج 'بصفد' ثم بالقاهرة وباشر كتابة السربحلب وقتا وبالرحبة وقتا والتوقيع بدمشق ووكالة بيت المال".(١٧) وبمثله ورد في دائرة المعارف الإسلامية " وقد تولى الصفدي أول ما تولى منصب الكاتب في مسقط رأسه 'صفد' ثم في القاهرة ثم في حلب والرحبة. وعهد إليه أخر الأمر القيام على بيت المال في دمشق".(١٨) وقد وافق على هذا القول أكثر الكتاب والمؤرخين القدماء الذين ترجموا حياة صلاح الدين الصفدي كما أن الكتاب المحدثين ذكروا مثل هذا، يقول خير الدين الزركلى "وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب ثم وكالة بيت المال في دمشق فتوفى فيها".(١٩) وقد أظهر نفس هذا المعنى الكاتب الحديث جرجى زيدان إذ قال "وتولى ديوان الإنشاء في صفد والقاهرة ثم حلب وتولى وكالة بيت المال في دمشق ومات هناك سنة ٧٦٤هـ".(٢٠) ومثله قال شاكر مصطفى " وولى كتابة الدرج في 'صفد' ثم باشر كتابة الإنشاء بمصر ودمشق وولى كتابة السر بحلب ثم بالرحبةثم وكالة بيت المال في الشام بعد أن ولى التوقيع بدمشق فترة".(٢١) وبمثله ورد في دائرة المعارف الإسلامية باللغة الأنكليزية :

His abilities as a stylist and calligrapher opened up opportunities in government service. The positions he held some times combined, depended on their importance for location; in roughly ascending order. They were katib al-darj, al-dast al-insha and al-sirr and also wakil al-khizana, which he was again at the time of his death".(٢٢)

وترك صلاح الدين كل عمل يشغله وعكف حياته الأخيرة على التدريس في الجامع الأموى قبيل وفاته يقول عماد الدين " وباشر كتابة الإنشاء بمصر ودمشق ثم ولى كتابة السر بحلب ثم وكالة بيت المال بالشام وتصدى للإفادة بالجامع الأموى وحدث بدمشق وحلب وغيرهما".(٢٣)

وقد اشتهرت شهرة تدريسه في الجامع الأموى حتى جعل الطلاب والعلماء يشدون الرحال إليه ليستفيدوا من محاضراته وقد أعجب كثير من كبار العلماء دروسه حتى أن بعض شيوخه الذين أخذ عنهم الصلاح الصفدي العلم جعلوا يجلسون حلقة دروسه في الجامع الأموى كابن كثير والذهبى. يقول الذهبى عن سماعه عنه في المعجم المختص وقد نقله عنه ابن عماد "ذكره شيخه الذهبى في المعجم المختص فقال الإمام العالم الأديب البليغ الأكمل طلب العلم وشارك في الفضائل وساد في علم الرسائل وقرأ الحديث وكتب المنسوب وجمع وصنف والله يمده بتوفيقه " سمع منى وسمعت منه".(٢٤)

الفصل الخامس:

أخلاقه وصفاته الحميدة:

كان صلاح الدين الصفدي جمع محاسن الشيم ومكارم الأخلاق في نفسه إلى جانب تحليته بعدة صفات معنوية. فكما أنه كان محببا إلى الناس بجميل سيراته وحسن معاشراته ومؤدته كان منتهى المكارم والأخلاق. وثالثا أنه كان إماماً بارعاً، كاتباً ناظماً ناثراً، شاعراً، ذا مصنفات كثيرة وكان يحرز قصبات السبق في مضمار في الحياة العلمية. وكان المؤرخون يعترفون بحسن سيراته وأخلاقه ويقدرون صفاته التي اكتسبها والمعارف التي تحلىبها يقول معاصره ابن حجر العسقلانى "وكان محببا إلى الناس، حسن المعاشرة جميل المؤدة".(٢٥) وذكره شيخه الذهبى في المعجم المختص نقل عنه ابن عماد فقال" الإمام العالم الأديب البليغ الكامل طلب العلم وشارك في الفضائل وساد في علم الرسائل وقرأ الحديث وكتب المنسوب وجمع وصنف، وله تواليف وكتب وبلاغة".(٢٦) وقد ذكر الشوكانى أنه كان تنتهى إليه مكارم الأخلاق إذ يقول "وكان حسن

المعاشر جميل المروءة وكان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم".(٢٧) وجاء في دائرة المعارف الإسلامية في بيان سيراته وأخلاقه "وكان الصفدي رضى الخلق، وقد أصيب بالصمم في أخريات أيامه".(٢٨) وقال ابن سعد في حقه إنه كان من بقايا الرؤساء الأخيار.(٢٩)

ومن الكتاب المحدثين من طرقوا أبواب حياة الصفدي واستعرضوا أخلاقه وصفاته يعترفون بجمعه بين محاسن الأخلاق وجميل الصفات كما يقول كرد على "إنه كان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وكان محببا إلى الناس، حسن العشرة جميل المؤدة".(٣٠) ويصور الدكتور شوقى ضيف " كان محببا إلى أهل زمنه، حسن المعاشرة جميل المؤدة".(٣١) ويعكس الدكتور مصطفى الشكعة سيرته وصفاته الحميدة بقوله " وكان الصفدي صاحب أخلاق رفيعة وشيم جليلة وشمائل طيبة مع علم وافر وانتاج خصب وقلم معطاء وشاعرية محلقة، وإن كان قلمه حين يكتب يترسم أسلوب زمانه الممعن في السجع والزينات البديعية. لقد قال الشعر الحسن وأكثر من النثر والتواقيع".(٣٢)

وينجلي لنا مما سبق أن الصفدي قد تمتع بشخصية سوية، فكان رجلا متزنا، حسن العشرة ذا مروءة وخلق، محببا إلى كل مخالطيه، من الأساتذة والشيوخ، والرؤساء والأصدقاء، يودهم ويودونه ، ويبادلهم حبا بحب، ولم يجمع المؤرخون على أمرأجماعهم على الإشادة بما تجلى به من خلق جميل وخصال حميدة حتى أحبه الجميع. ويمتاز الصفدي أيضا بالإضافةإلى حسن خلقه بالتواضع الذى يزين العلماء ويعلى من مكانتهم عند الله والناس، ويتجلى ذلك التواضع واضحاً، عند ما عاد الشيخ الصفدي إلى حلقات الدرس والعلم يحصل ما فاته من علوم الفقه والأصول والحديث الشريف بعد أن تقدمت به سنه، وحصل مكانة مرموقة في مجتمعه فراح يتلمذ على زملائه وبعض تلامذته، فقرأ على الشيخ تقى الدين السبكى كتاب "شفاء السقام في زيارة خير الأنام" كما أكثر من حضور حلقات تاج الدين وقرأ عليه كتاب "جمع الجوامع" وسمع شرحه له، وكتبه بخط يده، فيقول السبكى" سمع بالأخرة من جماعة وقرأ على الشيخ الإمام جميع كتاب شفاء السقام. ولما أخرجت مختصرى المسمى " جمع الجوامع" كتبه بخطه وصار يحضر الحلقة وهو يقرأ عليّ ويلذ له التقرير وسمعه كله عليّ".(٣٣)

ولقد طغت صفة التواضع على الصفدي حتى طبعت كل أعماله ومؤلفاته فهو دائم الدعوة إلى التحلي بها والتلخص من الأمراض النفسية وبخاصة التيه والعجب ويؤيد ذلك ببعض الأحاديث النبوية والقدسية وأقوال الحكماء فيقول نقلا عن بعض الحكماء "بأن البلية التي لا يؤجر المرء عليها العجب والنعمة التي لا يحسد عليها التواضيع ومما قيل " لا شئ أكتم للمحاسن من التيه والعجب".(٣٤)

وقد بلغ به تواضعه أنه كان ينصف مخالفيه ويعترف بالفضل لخصمه، على الرغم من الاختلاف بينهما فيقول في ابن أبى الحديد الذي اختلف معه في العديد مما جاء به في كتابه "الفلك الدائر" حول انتقاده لابن الأثير في كتابه " المثل السائر" وكان التحامل فيه واضحا كما كان يختلف معه في المذهب، حيث كان الصفدي شافعيا سنيا. وكان ابن أبى الحديد شيعيا متعصبا. ولكن ذلك لم يؤثر في تقديره له ولم ينتقص من احترامه لعلمه وأدبه، فيعترف بفضله ويقول فيه بتواضعه المعهود "على أننى بعد ابن أبى الحديد(٣٥) كمن جاء بعداجتحاف السيل وأصبح بعد قاطف النهار حاطب ليل".(٣٦)

وبلغ به التواضع مرة بعد أن أدرك الصواب في مناقشته لابن الأثير،فقال في ثقة العالم التواضع: " وما أظن بابن الأثير، رحمه الله. أنه جهل هذا، ولكنها غفلة ليس إلا.(٣٧) وكم من مجلس علم وأدب ضمه وأصدقائه من العلماء والأدباء والقضاة يتداولون المسائل العلمية والأدبية تظللهم روح المحبة والود كما كان من دلائل حبه للناس، وصدقه في هذه المحبة "أنه كان يتحاشى الوقوع فيما يسئ إليهم".(٣٨) ويصفه الدكتور إحسان عباس"وكان رجلا متواضعا بعلمه كريم الخلق سخى اليد، يسر الطبع حسن المعاشرة، جميل المؤدة ميالا إلى شئ من الدعابة"(٣٩) وجاء في دائرة المعارف الإنكليزية:

" AL-SAFADI, SALAH AL-DIN KHALIL B. AYBAK, Abu'l- safa al-Albaki (696-764/1297-1363) Philologist, literary critic and litterateur, biographer, and all round humanist". (٤٠)

ولكل هذا حاز الصفدي إعجاب معاصريه، بما طبع عليه من أخلاق حميدة، وتفرد به تواضع وإنصاف، وفاز به من تقدير واحترام.

الفصل السادس:

وفاته:

سنة الله التي فطر الناس عليها، يضحكون في ساعة الميلاد ويبكون في ساعة الموت. فدمعة الوداع حرى كاوية. ولا سيما إذا كان المودّع حبيبا أو رفيقاً أو عزيزاً أو شريك حياة . على هذا يسير الكون ويدرج منذ أن خلق الله العباد، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها. ولن تجد لسنة الله تبديلا. والموت نهاية كل نسمة يقول الله عز وجل "كل نفس ذائقة الموت". (٤١) فيدركها أينما كانت وفيما حلت. فلم يسلم كاتبنا من هذا الناموس الطبيعى والكلى فإنه بعدما مكث في الجامع الأموى صحيح البدن إلا ثقلاً نزل سمعه لبىّ نداء ربه وكان لقائه أجله في العاشر من شوال سنة ٧٦٤هـ. (٤٢) يقول محمود رزق سليم " وقعد للتدريس بالجامع الأموى وتوفي بدمشق في عام ٧٦٤هـ في شوال". (٤٣) وفي نفس هذه السنة توفي معاصره وصديقه الورّاق الأديب صاحب 'فوات الوفيات' ابن شاكر الكتبى. وأكثر المؤرخين ما وضحوا سبب موته بل ذكروا أنه مات ولم يتعرضوا عن سببه فيستنتج أنه مات حتف أنفه. ولكن يوسف سركيس بين بأنه مات بالطاعون كما يقول " ثم ساعدته فحضر إلى دمشق على وكالة بيت المال وكتابة الدست إلى أن مات بالطاعون ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤هـ". (٤٤) ودفن الرحيل في المقبرة الصوفية. يقول ابن عماد " توفى بدمشق في شوال ودفن بالصوفية". (٤٥) وكذلك جاءفي البداية والنهاية أنه دفن بالصوفيه يقول ابن كثير "وفي ليلة الأحد عاشرة توفى الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك وكيل بيت المال وموقع الدست وصلى عليه صبيحة الأحد بالجامع دفن بالصوفية". (٤٦)

ولكن يشك بعض الكتاب المحدثين في هذه الحقيقة ظنا منهم أن قبره في مدينة 'صفد' (فلسطين) قبر متهدم في حارة لليهود في بقعة لاتزيد على خمسين مترا مربعا. وقد زاره المرحوم أحمد زكى باشا وأكد أنه قبره. وقد رد هذا الزعم الدكتور على الطنطاوى بقوله في رسالة أرسلها إلى الصفدي الأخر وهذا نصها.

إلى الأخ (الصفدي) الفاضل صاحب الكلمة الطيبة المنشورة في بريد الرسالة الحادية والعشرين بعد المائة المعروف يا سيدي! إن الصلاح الصفدي جاء إلى دمشق في آخر حياته وتولى فيها وكالة بيت المال وكتابة الدست وأقام عليهما إلى أن توفى سنة ٧٦٤. فلما قرات كلمتك شككت في ذلك ورجعت إلى ما في خزانتى من مراجع فإذا الذي في طبقات السبكى (٦: ٩٤) والسبكى معاصره وصديقه والشذرات (٦: ٢٠١) وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (٣: ١٦١) والأعلام لخير الدين الزركلى (١: ٢٩٦) أن وفاته في دمشق وزاد في الشذرات أنه دفن بالصوفية ومقبرة الصوفية قد درست وقام عليها بناء الجامعة السورية والمستشفى الوطنى ولم يبق منها إلا قبر شيخ الإسلام ابن تيمية قائما وسط المستشفى وهي في انزه موضع في دمشق معروف بمقبرة البرامكة.

فكيف يكون القبر الذي وصفت في صفد قبره؟ وعلام استند الأستاذ المحقق أحمد زكى باشا رحمة الله في تأييد ذلك؟ هل وجد نصا يطمئن إليه الباحث ويثق به المنقب أم اكتفى بالسماع، والشائع عل ألسنة الناس؟(٤٧)

المصادر والمراجع للباب الثاني

(١) الدرر الكامنة ، ابن حجر العسقلانى ، ٢/٢٠٧.

(٢) شذرات الذهب ، ابن عماد ، ٦/٢٠٠.

(٣) البدر الطالع ، الشوكانى ، ١/٢٤٣.

(٤) الأعلام ، خير الدين الزركلى ، ٢/٣١٥.

(٥) تاريخ الأدب العربى ،الدكتور شوقي ضيف ،٦/٣٠٤.

(٦) تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجى زيدان ، ٣/١٧٠.

(٧) عصر سلاطين المماليك ، محمود رزق سليم ، ٤/١٣٤.

(٨) شذرات الذهب ، ابن عماد ، ٦/٢٠٠ ومعجم المطبوعات العربية والمعربة ، يوسف سركيس ص: ١٢١٠.

(٩) تاريخ ابن قاضى شهبه ، قاضى شهبه الأسدى الدمشقى ، ٣/٦٨٣.

(١٠) كنوز الأجداد ، محمد كرد على ، ص: ٣٨٠.

(١١) مقدمة فض الختام عن التورية والاستخدام للصفدي ، الدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى ، ص: ٤.

(١٢) الدرر الكامنة ابن حجر العسقلانى ،٢/٢٠٧ والبدر الطالع ، الشوكانى ١/٢٤٣ ،.

(١٣) The Encyclopadia of islam, L eiden E.J. Brill vol. 8,P.759.

(١٤) الوافى بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ، ١/١١٢.

(١٥) مناهج التأليف عند علماء العرب ، الدكتور مصطفى الشكعة ، ص: ٥٩.

(١٦) كان الشهاب محمود من أجل الرجال في القاهرة ، انتقل إلى دمشق ليتولى ديوان الإنشاء بها ، وكان ممن اعتمد عليهم صلاح الدين الصفدي لأخذ العلم عنهم أخذ عنه الأدب.

(١٧) الدرر الكامنة ، ابن حجر العسقلانى ،٢/٢٠٧.

(١٨) دائرة المعارف الإسلامية ، ١٤/٢٢٠.

(١٩) الأعلام، خير الدين الزركلى، ٢/٢١٥.

(٢٠) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان، ٣/١٧٠.

(٢١) التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٤/٧٧.

(٢٢) The Encyclopedia of Islam, Leiden E. J. Brill,vol 8. P.759.

(٢٣) شذرات الذهب، ابن عماد، ٦/٢٠٠.

(٢٤) المصدر السابق، ص: ٢٠١.

(٢٥) الدرر الكامنة ،ابن حجر العسقلانى ٢/٢٠٨.

(٢٦) شذرات الذهب، ابن عماد، ٦/٢٠٠، ٢٠١.

(٢٧) البدر الطالع، الشوكانى، ١/٢٤٣.

(٢٨) دائرة المعارف الإسلامية، ١٤/٢٢٠.

(٢٩) نقل عنه ابن حجر العسقلانى في كتابه الدرر الكامنة، ص: ٢٠٩.

(٣٠) كنوز الأجداد، محمد كرد على، ص ٢٨١.

(٣١) تاريخ الأدب العربى، الدكتور شوقى ضيف، ٦/٧٩٠.

(٣٢) مناهج التأليف عند علماء العرب، الدكتور مصطفى الشكعة، ص: ٥٩٠.

(٣٣) طبقات الشافعية، تاج الدين السبكى، ٦/٩٤.

(٣٤)نصرة الثائر على المثل السائر، صلاح الدين الصفدي، ص: ٤٤.

(٣٥) وابن أبى الحديد هو الصاحب عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد حسين بن أبىالحديد من علماء المعتزلة ببغداد، ولد عام ٥٨٦هـ وتوفي عام ٦٥٦هـ.

(٣٦) المصدر السابق، ص: ٤٤.

(٣٧) المثل الثائر، ابن الأثير، ص: ١٣٨.

(٣٨) النقد الأدبى في القرن الثامن، محمد على سلطانى، ص: ٨٩.

(٣٩) مجلة العربى، عدد (١٣) ١٩٥٩م ص: ١١٣.

(٤٠) The Encyclopedia of Islam, Leiden E. J. Brill,vol 8. p.759.

(٤١) القرآن الكريم، سورة آل عمران، أية : ١٨٥.

(٤٢) الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلانى، ٢/٢٠٧.

(٤٣) عصر سلاطين المماليك، محمود رزق سليم، ٤/١٣٤.

(٤٤) معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف سركيس، ص: ١٢١١.

(٤٥) شذرات الذهب، ابن عماد ٦/٢٠١.

(٤٦) البداية والنهاية، ابن كثير، ١٤/٣٠٣.

(٤٧) مجلة الرسالة العدد، ١٢٣، ١٩٣٥م الأستاذ على الطنطاوى، ص: ١٨٣٦، ١٨٣٧.

الباب الثالث

المعاصرون لصلاح الدين الصفدي.

شمس الدين الذهبى:

مولده، طلب العلم ورحلته لـه، أسـاتذته، أحبائـه وتلاميـذه، منزلـة الذهبـى العلمية، وفاته، مؤلفاته، اتصاله بالصفدي.

ابن كثير:

ولادته ونشاته ودراسته، وفاته، مؤلفاته، اتصاله بالصفدي.

تاج الدين السبكى:

مولده،نشأته وتعليمه، وفاته، مؤلفاته، اتصاله بالصفدي.

ابن نباتة المصرى:

مولده ونشأته ودراسته، ووفاته، شعره، مؤلفاته، اتصاله بالصفدي.

المصادر والمراجع.

الباب الثالث.

المعاصرون لصلاح الدين الصفدي.

قد اتضح خلال دراستنا لحياة صلاح الدين الصفدي أنه ولد في العشر الأُخر من القرن السابع الهجرى في 'صفد' التى تقع الآن في فلسطين، والتي كانت آنذاك تحت سلاطين المماليك البحرية. وكان العالم العربى قبيل ذلك يواجه صراعات متتالية من الصليبيين ثم سقوط بغداد بيد هلاكو سنة ٦٥٦هـ أدى إلى تخلف العالم الإسلامي. والمماليك وإن كانوا قد دفعوا عن تقدم الصليبيين واسهموا في تنجية العالم العربي من سيطرة المغول والتتار ولكنهم لم يسهموا في تطوير الثقافات والعلوم والفنون إلاقليلا. فقد سمى المؤرخون المستشرقون هذا العصر بعصر الإنحطاط والإنحدار.

نعم، قد برز في هذا العصر نخبة من العلماء والكتاب والمؤرخين البارعين بذلوا جهودهم الجبارة لإستعادة تراثهم العلمى الثقافي الماضى. وقد وقفوا في كثير من المجالات وصنفوا عددًا كبيرًا من الكتب القيمة. وكان أكثر هؤلاء الكتاب يعاصرون صلاح الدين الصفدي. فاجدنى مضطرًا إلى أن أكشف أحوال بعضهم واقف قليلا عند أثارهم الخالدة.

شمس الدين الذهبى:

مولده:

هو العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز بن عبد الله التركمانى الفارقي الدمقشى الشافعى.(١) واشتهر بنسبة الذهبى لأن والده برع في صنعة الذهب المدقوق وتميزبها.(٢) وكان جده فخر الدين أبو أحمد عثمان أميّا لم يكن له حظ من علم، قد اتخذ من التجارة صنعة له، لكنه كان حسن اليقين بالله. وأما والده شهاب الدين أحمد فقد ولد سنة ٦٤١هـ تقريبا وعدل عن صنعة أبيه إلى صنعته الذهب فبرع فيها وعرف بالذهبى وطلب العلم. فسمع صحيح البخارى من المقداد القيسى وحج في أواخر عمره وكان متدينا يقوم من الليل.

ولد الذهبي في دمشق (في عصر المماليك البحرية) ٣ ربيع الثاني عام ٦٧٣هـ.(٣) وجاء في دائرة المعارف الإسلامية " إنه ولد في ميافارقين في عزة ربيع الثانى أو في الثالث منه عام ٦٧٣هـ (٥ أو ٧ اكتوبر ١٢٧٤م).(٤) ويقول علامة خير الدين الزركلى إن الذهبي (٦٧٣-٦٧٨/١٢٧٤-١٣٤٨م) "محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله حافظ، مؤرخ، علامة محقق تر كمانى الأصل من أهل ميافارقين مولده وفاته في دمشق. رحل إلى القاهرة وطاف كثيرًا من البلدان".(٥)

وكانت ولادته في بيت ميسور الدخل قليل الثقافة الدينية وكان نشأته في جوّمن القلق السياسى والدينى. فقد كان المماليك يثبتون دولتهم بكفاح الصليبين والمغول من جهة حتى إذا انتصروا كان النزاع العقائدى بين الحنابلة والشوافع والأشاعرة والتصوف محتدما، وكان الحكام المماليك يخوضونه مما جعل الجو العلمى في دمشق وفي الشام كله، ومصر يشهد نوعاً من اليقظة والتفتح يمكن أن تعبرها عهد اليقظة الثانية بعد العصر العباسى لولا أن هذه كانت على التقليد أكثر منها على الإبداع وكانت الأولى إبداعية تضع التقاليد.(٦) وبحكم نشأته في جو من القلق السياسى الدينى جعله ينصرف منذ مطلع حياته إلى التاريخ والدين كلية توجهت عنايته أول الأمر إلى إتقان القراءات والحديث، حيث بدأ الموصوف يدرس الحديث عام ٦٩٠هـ (١٢١٩م) وفي رواية أخرى أنه بدأ دراسته في سن الثامنة عشرة.(٧)

طلب العلم ورحلته له :

بدأ الذهبى يعتنى بطلب العلم حينما بلغ الثامنة عشر من عمره وتوجهت عنايته إلى ناحتين رئيستين هما: القراءات والحديث الشريف. وقد اهتم الذهبى بقراءات القرآن الكريم والعناية بدراسة علم القراءات إلى شيخ القراء جمال الدين أبى إسحاق إبراهيم بن داؤد العسقلانى ثم الدمشقى المعروف بالفاضلى. وتميز الشاب الذهبى في دراسة القراءات وبرع فيها " وفي الوقت نفسه كان الذهبى وهو في الثامنة عشرة من عمره قد مال إلى سماع الحديث واعتنى به عناية فائقة".(٨) وفي سبيل طلب الحديث رحل ـ مثل بقية الطلاب المعاصرين ـ إلى مختلف الأمصار والبلاد. فزار البلاد الشامية مثل بعلبك وحمص وحماة وترابلس والمعرة وبصرى ونابلس والرملة

والقدس وتبوك كما أنه رحل سنة ٦٩٥هـ إلى مصر فسمع من شيوخها، ثم رحل إلى الإسكندرية وسمع من شيوخها البارزين وقد زار سنة ٦٩٨هـ بلاد الحجاز (المكة المكرمة والمدينة المنورة) وسمع من شيوخها يقول محمد كرد على "إنه سمع الحديث ببلاد كثيرة من خلائق يزيدون على ألف ومائتين بالسماع والإجازة وسمع وأملى ما لا يحصى كثرة من الكتب الكبار والأجزاء على خلق كثير والغالب أنه لم تتعد رحلته إلى الشام ومصر والحجاز ذكر في تاريخ الإسلام في ترجمة كمال الدين أبى الفرج البغدادى أنه انتهى علوم الإسناد في عصره".(٩)

أساتذته:

قد أخذ الذهبى علم الحديث والعلوم الأخرى من كبار علماء عصره في بلاد الشام ومصر والحجاز. وقد أخذ في دمشق على عمر بن قواس وأحمد بن هبة الله بن عساكر، وفي بعلبك على عبد الخالق بن علوان وزينب بنت عمر بن كندى وفي حلب على سوقر الزينى وفي نابلس على العماد بن بدران وفي مكة على التوزرى وفي الإسكندرية على أبى الحسن بن أحمد العراقى وأبى الحسن يحى بن أحمد الصواف. ثم في القاهرة على ابن منظور الإفريقى صاحب لسان العرب وعلى شيخ الإسلام ابن دقيق العد بخاصة. وكانت لابن دقيق العيد فراسة في اختيار تلاميذه الذين يأخذون الحديث عنه. وقد تلقى الذهبى كذلك إجازة من أبى ذكريا بن الصيرفي ومن ابن أبى الخير ومن القاسم الأربلى وغيرهم.(١٠) وأما ابن تيمية فكانت شخصيته قد أُكملت منذ إن كان الذهبى شيابا في أول طلب العلم.(١١) ومازال يطلب الحديث وأسانيده حتى أصبح فيه حجة وتصدى للإسماع كما أنه تصدى للتأليف في علم الحديث وعلومه وفي التاريخ والسير والتراجم والعقائد والفقه وأُصوله والقراءات وغيرها.

قال تلميذه الصفدي "وقف الشيخ كمال الدين بن الزمكانى رحمه الله تعالى على تاريخه الكبير المسمى" "بتاريخ الإسلام" جزءاً بعد جزءٍ إلى انهاه مطالعة وقال هذا كتاب علم، اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيرا من تصانيفه ولم أجد عنده جمود المحدثين ولا كودنة النقلة بل هو فقيه النظر له ذربة بأقوال الناس ومذاهب الائمة من السلف وأُرباب المقالات وأعجبنى منه ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثا يورده حتى يتبين ما فيه من ضعف متن أو ضلام

إسناد أو طعن في رواية. وهذا لم أرغيره يواعى هذه الفائدة فيما يورده" (١٢) وقال محمد كرد على " رجل الرجال في كل سبيل كأنما جمعت الآلة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبرعنها أخبار من حضرها. مازال يخدم هذا الفن، فن الحديث، حتى رسخت فيه قدمه وتعب الليل والنهار وما تعب لسانه وقلمه، وضربت باسمه الأمثال ورغب الناس في تواليفه ورحلوا إليه بسببها وتداولوها ونسخا وسماعًا".(١٣)

أحبائه وتلاميذه:

ومن تلاميذ الذهبى عبد الوهاب السبكى صاحب طبقات الشافعية وصلاح الدين الصفدي وكان صديق أبيه تقى الدين السبكى الذي كان أعلم منه بفقه الشافعى. وأخذ الذهبى يدرس الحديث في مدرسة أم الصالح في دمشق ولم يخلف شيخه يوسف المزى (المتوفى في عام ٧٤٢هـ=١٣٤١م) في تدريس الحديث بالأشرفية. لأن المؤسس مشيخة الحديث في هذه المدرسة اشترط شروطا خاصة بمذهب من يتولى تدريس الحديث في هذه المدرسة لم يوافق الذهبى عليها.

منزلة الذهبي العلمية:

كان الذهبي معدودًا من المحدثين المؤرخين، وكان إمام وقته ويذكر محمد كرد على " مؤرخ ولا كالمؤرخين ولا محدث كالمحدثين. فهو رجل ساير العقل فتفرد في تأليفه ونظر فيما حواه صدره من أصناف العلم نظرة بليغة. فأتى بجديد ضمه إلى القديم فسد ثلمة كانت لولاه فارغة، وقام بغرض كان بعضهم يعده نافلة، هو إمام تعب بعلمهحتى يستريح من بعده".(١٤) ويقول محمود رزق سليم "هو أحد حفاظ الحديث وكان أحد أعلام أربعة متعاصرين لا خامس لهم، هم المزى والبرزالى والذهبى والتقى السبكى.(١٥) ويقال أن دمشق يحق لها إذا عدت في مفاخرها الحافظ ابن عساقرى في القرن السادس أن تفخر بأنها كانت مجال علمى الحافظ الذهبى في القرن الثامن، وكلاهما لم تقف شهرته والانتفاع بما كتب عند حد دمشق أو الديار الشامية، بل تعدتها إلى الشرق والغرب فعدا من أعظم المؤرخين في المسلمين.

فالذهبي قد يكون من أكبر الجمّاعين للمعلومات في تاريخ الإسلام، شأنه شأن السيوطى وابن طولون من بعده، وشأن ابن عساكر والسمعانى والخطيب البغدادى من قبل. وعلى يده تخرج العديد من العلماء والحفاظ الذين أُتو بعده، وهو في الوقت نفسه من أكبر النقاد والمجرحين المعدلين فكان وحده مدرسة قائمة بذاتها. كما يقول ابن حجر "ورغب الناس في تواليفه ورحلوا إليه بسببها وتداولوها قراءة ونسخا وسماعًا".(١٦) واشتهر الذهبي بأنه من أبرز العلماء في التاريخ وفي الحديث، ولكن بعض المؤلفين أخذوا عليه، وبما كان ذلك من باب الحسد.

وقد كتب الذهبي التاريخ من بابيه: باب الحوادث وباب التراجم. وقدم في كل من البابين عملاً ضخماً معجزًا. ويتضح للباحثين أن الذهبي قد تخرج على علماء عصره في دمشق والقاهره ومهر في فن الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفا، وجمع تاريخ الإسلام فأربى فيه على من تقدمه بتحرير أخبار المحدثين خصوصاً. وقطعه من سنة سبعمائة. واختصر منه مختصرات كثيرة منها العبر وسير النبلاء وملخص التاريخ قدر نصفه وطبقات الحفاظ وطبقات القراء والإشارة وغير ذلك. وقد قام الذهبى بعدة رحلات إلى مدن العلم خاصة في العلم الحديث والتاريخ وبرع فيهما واحتل مكانة عالية في عصره.

وفاته:

قد عاش العلامة الحافظ خمسا وسبعين سنة وانتج هذا الإنتاج العجيب، فهو من أفرد الدهر، وكانت وفاته في ليلة الإثنين ٣ من ذى القعدة سنة ٧٤٨هـ بمدرسة أم صالح في قاعة سكنه بدمشق ودفن بباب الصغير.(١٧) وجاء في دائرة المعارف الإسلامية، "وتوفى في دمشق ليلة الإثنين الثالث من ذى القعدة عام ٧٤٨هـ (٣-٤ فبراير ١٣٤٨م) ودفن عند الباب الصغير".(١٨) ويقول الصفدي وتوفى رحمه الله تعالى ليلة الإثنين ثالث ذي القعدة سنة ثمان أربعين وسبع مأية ودفن في مقابر باب الصغير، أُخبرنى العلامة قاضى القضاة تقى الدين السبكى الشافعى قال عدته ليلة مات فقلت له كيف تجدك قال في السياق، وكان قد اضر رحمه الله تعالى قبل موته بأربع سنين أو أكثر بماء نزل في عينيه فكان يتأذي ويغضب إذا قيل له لو قدحت هذا لرجع

إليك بصرك ويقول ليس هذا بماء وانما أعرف بنفسي لأنني مازال بصرى ينقص قليلاً قليلاً إلى أن تكامل عدمه، وقد رثاه الصلاح الصفدي حيث يقول:

لما قضى شيخنا وعالمنا * ومات في التاريخ والنسب

قلت عجيب والحق ذاعجبا * كيف تخطى البلى إلى الذهب.

وقال أيضًا:

اشمس الدين غبت وكل شمس * يغيب وزال عنّا ظل فضلك

وكم ورّخت أنت وفاة شخص * وما ورّخت قط وفاة مثلك.(١٩)

وحضر الصلاة عليه جملة من العلماء كان من بينهم تاج الدين السبكى وترك الذهبى ثلاثة من أولاده عرفو بالعلم هم:

ابنته أمة العزيز، وابنه أبو الدرداء عبد الله وابنه شهاب الدين أبو هريرة عبد الرحمن.

مؤلفاته:

إذا وصلنا إلى الذهبى نكون قد وصلنا إلىأعظم المؤرخين في تاريخ الإسلام وأغزرهم علما وأكثرهم تأليفا. وهو يشكل القمة الشامية المقابلة للقمة التي شغلها المقريزى بين المؤرخين في مصر. لولا أن اتجاه الذهبى يغلب عليه علوم الدين والحديث. وقد دخل التاريخ من هذا الباب في حين. كان المقريزى سيد التاريخ العام كعلم خاص به. وللذهبي مؤلفات عدة أكثرها كبيرمهم. ومن أشهر تصنيفاته:

تذكرة الحفاظ وتسمى أيضا طبقات الحفّاظ: في مجلدين كبيرين. وقد جمع فيه حفاظ الحديث وقسمهم على إحدى وعشرين طبقة متقاونة الطول. وقد طبعت التذكرة مرتين في حيدر آباد في ٤ أجزاء بدون تاريخ ثم أعيد طبعها ثالثة بتحقيق عبد الرحمن بن يحى المعلمى سنة ١٣٧٤هـ على النسخة القديمة في الحرم المكى فظهرت في طبعة جيدة وقد اختصر السيوطى هذا الكتاب وأكمله بعنوان ·طبقات الحفاظ·.(٢٠)

وجاء في مقدمة "تذكرة الحفاظ" كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي كتاب جليل طبع مرتين في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ولم يذكر في المطبوع عن أي أصل طبع.

المشتبه في أسماء الرجال: وهو معجم للأعلام والكنى مرتب على حرف المعجم وفيه تراجم الأسماء المتشابهة في الصورة أو اللفظ جمع فيه ما اشتبه من الرجال والنساء في الأسماء أو الأنساب أو الكنى أو الألقاب التي اتفق وضعها واختلف نطقها، مما يأتي في أسانيد الحديث وغيره. ويسمى أيضا "مشتبه النسبة" طبع في ليدن ١٨٦٣ في نحو ٦٠٠ صفحة.(٢١) وقد طبع الكتاب منذ فترة وأعيد طبعه في القاهرة سنة ١٩٦٢ بتحقيق محمد على البجاوى.(٢٢)

ميزان الاعتدال في نقد الرجال: وهو معجم المحدثين رتبه على حروف المعجم جمع فيه الذهبى أسماء الرواة من الكتب الستة وزاد عليهم. طبع هذا في لكناو الهند سنة ١٨٨٤م وفي مصر سنة ١٣٢٥هـ في ثلاثة مجلدات. وله مختصر عدة. وقد نشر الكتاب أكثر من مرة. أخرها نشره محمد على البجاوى في ٤ أجزاء بالقاهرة سنة ١٩٦٣-١٩٦٤م.

تذهيب الكمال في أسماء الرجال: هذا مطبوعة في ثلاثة مجلدات منه نسخة في مجلدين بدار الكتب المصرية في ١٢١٦ صفحة. والكمال أيضا لمحب الدين ابن البخار وقد ذهب الكمال وزاد عليه المزى في كتاب سماه تهذيب الكمال يشتمل على أسماء رواة العلم وحملة الآثر وأئمة الدين وأهل الفتوى والزهد، والمشهورين من كل طائفة من طوائف أهل العلم، مرتبة على الهجاء رجالا ونساء. فهو من أكبر المعاجم التاريخية يحتوى على ١٧٠٠ ترجمة، ومنه نسخة في دار الكتب المصرية تحتوى على ١٢ مجلدا في نحو عشرة الآف صفحة. والذهبى أخذ تهذيب الكمال هذا ولخصه وأحسن ترتيبه وزاد عليه وسماه "تذهيب تهذيب الكمال" في خمسة مجلدات صفحاتها نحو٢٢٠٠ صفحة. منه نسخة في دار الكتب المصرية. ينقصها الجزء الرابع. ثم صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجى لخص هذا التهذيب في كتاب سماه "خلاصة تذهيب تهذيب الكمال" في جزء كبير طبع بمصر سنة ١٣٠١ في نحو٥٠٠ صفحة.(٢٣)

الكاشف في معرفة أسماء الرجال: وهو مختصر " تذهيب التهذيب" مخطوط، منه نسخة في دار الكتب المصرية وفي الإسكور يال.

كتاب العبر في أخبار البشر ممن غبر: ويسمى كذلك التاريخ الأوسط، هو تاريخ عام في مجلدين اقتطفه من تاريخه الكبير، تاريخ الإسلام، رتبه على السنين. ذكر فيه أشهر الحوادث والوفيات من أول الهجرة إلى سنة ٧٤٠ منه نسخ في فينا وباريس والمتحف البريطانى وأياصوفيا. وقد ذيله واختصره كثيرون. "منه نسخة في المتحف البريطانى بخط المؤلف".(٢٤)

سير أعلام النبلاء: وهو ثانى كتبه الكبرى والعظمى في تراجم في ١٤ مجلدات وقد جرت محاولتان لنشر هذا الكتاب. الأولى بدأها ثلاثة محققين:

صلاح الدين المنجد الذي نشر المجلد الأول ١٩٥٦، وإبراهيم الأبيارى الذى نشر الثانى سنة ١٩٥٦ وأسعد طلس الذي نشر الثالث سنة ١٩٥٧. ثم توقف العمل حتي جاءت مؤسسة الرسالة في بيروت فأصدرت الكتاب كاملا في أربعة وعشرون مجلدًا بين سنتى ١٩٨١-١٩٨٣ باعتناء شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد.(٢٥)

طبقات القراء: "وتسمى أيضاً معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار" اختصره من تاريخه الكبير. ورتبه نحو ترتيب طبقات الحفاظ. منه نسخة في باريس وكوبرلى. وقد ذيله كثيرون. طبع هذا الكتاب سنة ١٩٦٩ في القاهرة بتحقيق محمد سيد جاد الحق.

معجم الشيوخ الكبير: ذكر فيه سيوخه على حروف المعجم ممن لقيه أو كتب إليه بالإجازة. دون فيه تراجم شيوخه وهم نحو ١٣٠٠ شيخ منه نسخة في دار الكتب المصرية في ٤٠٠ صفحة. وللذهبى ثلاثة معجم الشيوخ. ولكن لم يوجد المعجم الصغير والمعجم المختص.

دول الإسلام: هذا تاريخ عام للدول الإسلامية، مختصر مرتب على حروف الجهاء من الهجرة إلىسنة ٧٤٠ـمنه نسخة في مكتبة كوبرلى في الأستانة وفي دارالكتب المصرية. وقد طبع دول الإسلام مرتين في حيدآباد الهند. آخرهما سنة ١٣٦٥هـ وأعاد نشره فهيم شلتوت في القاهرة سنة١٩٧٢م.(٢٦)

أخبار النحويين: وهو مختصر من أنباه الرواة على أبناه النحاة للقفطى ومنه مخطوط بخط الذهبى في ليدن رقم ١٠٤٨.

بيان زغل العلم والطلب: وقد نشر الكتاب مع النصيحة الذهبية "(الموجهة لابن تيمية) في مكتبة القدس بدمشق سنة ١٣٤٨هـ.

الإصابة في تجريد أسماء الصحابة: وهو تلخيص أسد الغابة لابن الأثير وقد نشر في حيدرآباد الهند سنة ١٣١٥هـ في جزين في ٨٣٠ صفحة.

النبلاء من شيوخ السنة: وقد اختصره من المعجم المشتمل على أسماء شيوخ السنة النبل لابن عساكر.

نبذة من فوائد تاريخ ابن الجزرى: وهو مكتوب في شكل تاريخ الإسلام وحجمه ويختصر من سنة ٥٩٣حتى سنة ٦٩٩هـ.كتبه الذهبى استفاد منه في تاريخ الإسلام من بعد ثم عاد فاستفاد منه في القطعة التى كتبها عن القرن الثامن. منه نسخة في كوبريلى رقم ١١٤٧ في ١١٤ ورقة.

مختصر تاريخ بغداد لابن الدبيثى: ويسمى 'المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد' لأبى عبد الله محمد بن سعيد بن محمد الدبيثى. انتقاه الذهبى مع زيادات. وتاريخ الدبيثى هو ذيل على تاريخ بغداد لابن الخطيب. ومن المختصر المحتاج إليه، جزء في دار الكتب المصرية، مكتوب عليه الجزء الثاني من مختصر الحافظ أبي عبد الله الدبيثى للحافظ أبى عبد الله الذهبى. وهو مرتب على الحروف الأبجدية. يبدأ باسم محمد ثم بالالف وما بعدها في ٢٦٤ صفحة.

الكبائر وبيان المحارم: ذكر الذهبي فيه ٧٦ كبيرة ونهى عنها. منه نسخة في دار الكتب المصرية في ٩٦ صفحة، وله كتاب أخرى في الحديث وأحكامه.

الطب النبوي وفي رواية أُخرى طب النبي: طبع هذا غير مرة، وهو مقسم إلى ثلاثة فصول. الأول في أُصول الطب، الثاني في الأدوية والأطعمة والثالث في علاج الأمراض. وقد طبع هذا على الحجر في مصر وترجم إلى الفرنسية وطبع في الجزائر سنة ١٨٤٠م.

مختصر المستدرك على الصحيحين: هذا اختصار المستدرك للحاكم النيسابورى، وهو ذيل لصحيحى البخاري ومسلم، طبع بهامش المستدرك.

تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام: هو تاريخ كبير في نحو ١٢ مجلدا مرتب على السنين في حوادثه. جمع فيه بين الحوادث والوفيات يمتد من أول الإسلام إلى سنة ٧٠٠ للهجرة، وقد قسم هذه المدة إلى سبعين باباً، كل باب لعشر سنين. تضم كل فترة منها طبقة من الرجال مرتبة على حروف المعجم. وقد استخرج منه مختصرات، يعرف كل منها باسم خاص. ولم يوجد نسخة كاملة من هذا التاريخ في مكتبة من مكاتب الكبرى. وبعض مجلدات هذا الكتاب موجودة في مكتبات أوربة شتى. فالجزء الأول في باريس يشتمل على حوادث السنين: من ١ إلى ٤٠هـ والثانى في أكسفورد من ٤١هـ إلى ١٣٠. والثالث في غوطا من ١٣١ إلى ١٩٠ وفي دار الكتب المصرية جزء من سنة ١٨١ إلى ٢٠٠ والرابع في أكسفورد من سنة ١٩١ إلى ٢٤٠ وهو ناقص. وفي باريس جزء آخر فيه أخبار من سنة ٣٠١ إلى ٣٧٠ والسابع في غوطا والمتحف البريطانى من سنة ٣٥١ إلى ٤٠٠ والثامن من ٤٠١ إلى ٤٥٠ في المتحف البريطانى وقس على ذلك سائر الأجزاء بحيث يصعب، جمع نسخة كاملة منها كلها. لكن في مكتبة آياصوفيا نسخة في ١٢ جزءاً لعلها تكون كاملة.(٢٧) وقد اختصره محمد بن إسحٰق الأيوبى وذيله ابن قاضى شهبة وغيره وله ترجمة تركية في برلين.

وهذا التاريخ الضخم الذي يعتبر أهم ما كتبه الذهبى كما يقول السبكى صاحب طبقات الشافعية " إنه كتاب قيم لولا بعض التحيز الذي وقع فيه، ولكن كمال الدين الزمكانى الذي قرأه مجلداً وجده مصنفا نفيسا.(٢٨)

وللذهبى تصانيف كثيرة كما ذكر شاكر مصطفى في كتابه التاريخ العربي والمؤرخون مع الأخذ والترك:

أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع: ومنه نسخة في آيا صوفيا.

أسماء الذين راموا الخلافة: نشره صلاح الدين المنجد في مجلة معهد المخطوطات (المجلد الرابع سنة ١٩٥٨ ص: ٣٠١-٣٠٨) عن مخطوط.

الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى في تاريخ الإسلام: ومنه مخطوط الأحمدية بحلب رقم ٣٢٨(٤) ضمن مجموع من ورقة ٨٢ إلى ١٨٢.

الإعلام بوفيات الأعلام: ونسخة كثيرة منها: في الظاهرية بدمشق ضمن مجموع يحمل رقم٣٨٥٢ في ٣٦ ورقة (١٨٣ إلى ٢١٩) وفي مكتبة رئيس الكاتب برقم ١١٦٠ (٥) وفي مكتبة الجامع الكبير بضعاء مصورة في دار الكتب بمصر رقم ٢١٨ وقطعة في الخالدية بالقدس.

تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحٰق: وقد طبع في ليدن عن نسخة هناك سنة ١٨٩٠م.

تسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم البخاري: ومنه مخطوط لا له لي بإستامبول رقم٢٠٨٩.

ذيل دول الإسلام: وهو مطبوع في حيدرآباد سنة ١٣٣٧هـ.

ذيل سير أعلام النبلاء: وهو مجلد ضائع.

ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزى.

الذيل على ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزى.

ذيل مرأة الزمان لسبط ابن الجوزى.

المجرد في أسماء رجال كتاب السنن لابن ماجة سوى من أخرج له منهم في أحد الصحيحين: ومنه نسخة في المكتبة الظاهرية رقم ٥٣١ حديث (١٢٣٥ في ٢٠ورقة).

المقتنى في (سرد) الكنى: والذهبى يقول في مطلعه: "جمع الحفاظ في الكنى كتبا كثيرة ومن أجلها وأطولها كتاب النسائى. ثم جاء الحاكم النيسابورى فزاد وأفاد في ١٤ سفرًا ولم يرتبه على المعجم فرتبته وزدته واختصرته وسهلته" ومنه نسخة في مكتبة فيض الله رقم ١٥٣١ كتبت من نسخة وقرئت على المؤلف في ١٧٧ ورقة. ونسخة أخرى في أُوقاف حلب رقم ٢٥٧٢. وفي الأُوقاف العامة ببغداد نسخة برقم ٩٧٢. ونسخة في الأحمدية بحلب رقم ٣٢٨ (١) في ٨٦ ورقة. وقد نشر الكتاب بتحقيق محمد صالح المراد في الرياض.(وإشراف حسين قاسم محمد).

المترجل في الكنى: ذكرها بروكلمان (٥٩/٢) وقد تكون هى الكتاب السابق نفسه.

معجم الشيوخ الصغير: (اللطيف) ومنه مخطوط الظاهرية بدمشق (مجموع ١٢) (ورقة٢٠٤ـ٢١٨) وثمة نسخة في الرباط برقم ٣٢٣ك في ١٨ ورقة. ضمن مجموع.

معجم الشيوخ الأوسط: ويشتمل ألف شيخ على كشف الظنون (ج ـ٢ عمود ١٧٣٤).

معجم المختص بمحدثي العصر: وثمة نسخة منه من انتقاء ابـن قـاضي شهبـه في بـاريس رقـم A ٢٠٧٢، وفي مكتبة الأوقاف ببغداد ضمن مجموع يحمل رقم ٢٨٤١. وقد اعتمد عليه النعيمى في كتاب الدارس اعتمادًا كبيراً في جزئيه.

معرفة التابعين: (وسمى أيضاً تاريخ الثقات) وقد لخص ضمـن المجلـد الثـالث في تـاريخ ابـن حيان في التابعين. وهو يسجل أسماء المشهورين فقط، وأما غير المشــهور فيثبـت ترجمتـه،ومنـه نسخة بخط الذهبى في الإسكوريال رقم ١٦٨٩ من ٤٦ ورقة.

المعين في طبقات المحدثين: ومنه مخطوط في فيض الله بإسـتامبول رقـم ١٥٢٨ كتـب في القـرن الثامن في ٥٥ ورقة.

المغنى في أحوال الرواة: ذكر صاحب الدارس ج ـ١ص ٧٩.

المغنى في الضعفاء والمتروكين: وهو مختصر ميزان الاعتدال في نقد الرجال. اختصـره الذهبـى في مجلدين. ومنه مخطوط فيض الله برقم ١٥٣٠ في ٤١٣ ورقة. وفـى أحمـد الثـالث رقـم ٣٠٥٣ A ورقم A٣٠٢٨ وقد طبع في حلب سنة ٩٧١ بتحقيق نور الدين عتر.

المقدمـة ذات النقـاب في الألقـاب: ومنـها نسـخة في دار الكتـب المصريـة رقـم ٤٤٢٣ ج بخـــط السيوطى ونسخة في ليدن رقم (٢) ٣١١٤ or من ورقة ١٢٦ ظهر إلى ١٣٣ ظهر ونسخة الثالثـة في مكتبة جامعة الإمام سعود بالرياض.

من تكلم فيه وهو موثق: وهو مخطوط.

الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم: وهو مطبوع في القاهرة سنة ١٩٠٦م.

رسـالة في الإمامـة العظمـى رد فيـها علـى الشيعـة: ومنـها نسـخة في مكتبـة رئيـس الكتـاب ٢/١١٨٥ (من ورقة ١٢٦ ظهر إلى١٣٣ ظهر) ١٢٦.

رسالة في فضائل الأمصار: ولعلها رسالته في الأمصار ذوات الآثار. ومنها نسخة في مكتبة رشيـد أفندى رقم ٩٩١ (من ورقة ٨٧ ظهر إلى ٨٨ ظهر).

الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية: ومنها نسخة في دار الكتب بمصر ١٨٢٣ب، ونسخة في الظاهرية بدمشق رقم ١٣٤٧، ونشرها حسام الدين القدسى بدمشق سنة ١٣٤٧هـ.

أخبار قضاة دمشق: ذكره الكتبى في فوات الوفيات ٣٧٢/٢.

هالة البدر في عدد أهل بدر: ومنه مخطوط الظاهرية بدمشق ضمن مجموع برقم٤٧.

رسالة فيما يذم ويعاب على كل طائفة من علماء الأمة (في عصره): ومنه مخطوط برلين ٥٥٧٠.

نخبة الأعلام في دول الإسلام: ولعله كتاب دول الإسلام نفسه ومنه مخطوط في مكتبة جار الله بإستامبول رقم ١٦٣٥.

أخبار أم المؤمنين عائشة: وقد نشر سعيد الأفغاني ترجمتها عن سير أعلام النبلاء بدمشق سنة ١٩٤٥م.

ترجمة أبى حنيفة: وهو مطبوع في القاهرة بدون تاريخ.

ترجمة أبى يوسف القاضي: وهو مطبوع بالقاهرة. دون تاريخ.

مناقب البخاري: ومنه نسخة في دار الكتب المصرية. طلعت مجموع: ٩٦٥ " بلبل الروض".

مختصر الروض الأنف للسهيلى المتوفى سنة ٥٨١ في سيرة الرسول.

المجرد في تهذيب الكمال: ومنه مخطوط في الفاتيكان رقم ١٠٣٢، وهو في ٣ مجلدات.

تهذيب تاريخ علم الدين البرزالى: ونعنى المقتفى لتاريخ الروضتين لأبى شامة.

مختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى: في مجلدين.

مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: في عشرة مجلدات.

المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثى: في مجلدين. وقد طبع في بغداد، بتحقيق مصطفى جواد، الأول سنة ١٩٥١ والثانى سنة ١٩٦٥.

مختصر وفيات الأعيان لابن خلكان.

المقتضب من تهذيب الكمال للمزى.

المنتخب من التاريخ المجدد لمدينة السلام لابن البخار البغدادى.

المنتقى في تاريخ أبى الفدا.

المنتقى من تاريخ خوار زم لابن أرسلان الخوارزمي.

الدرة اليتيمة في سير ابن تيمية.

الزخزف القصرى في ترجمة الحسن البصرى.

وللذهبى كذالك من مختصرات الكتب التاريخية ومنتقياتها عدد آخر يصل إلى سبعة وثلاثين. وعلاوة ذلك أن له عـدة كتـب في شـتي الموضوعـات تحمـل لآلى ثمينـة. ولم نذكرهـا هنـا خوفـا للأطناب على أننا نستطيع القول من دراستنا لكتبه واهتماماته أنه عنى بالعلوم الدينيـة عمومـا، والعلوم المساعدة لها كالنحو واللغة والأدب والشعر، كما أنه اطلع على بعض الكتـب الفلسـفية. ونشك أنه درس كتبا في العلوم الصرفة لعدم اعتقاده بجدواها.

اتصاله بالصفدي:

كانت الصلة بين الصفدي والذهبي صلة عميقة وثيقة. وكان الذهبي من أبرز أسـاتذته. والذهـبي وإن كان أكبر سنا من الصفدي حوالى ثلاثـين عامـا. مـع ذلـك أنـهما كانـا يلتقيـان كصديقـين حميمين لطول الصحبة في مجال العلم. وكانا يجلسان في مجلس واحـد واسـتفد كـل واحـد مـن الأخر كما كانت عادة العلماء في قديم الزمن.

ولم تكن صلته بالذهبي فحسب، بل كانت صلة بالعلماء والأدباء في عصره. كمـا كـانوا يكـاتبون ويراسلون فيما بينهم كالحافظ أبى الفتح ابن سيد الناس، وجمال الدين بن نباتـة المصـرى وتـاج الدين السبكى، وابن كثير وغيرهم من علماء عصره.

وقد اكّد الذهبى في كتابه 'المعجم المختص' صحبته بالصفدي بقوله نقله عنه ابـن عمـاد "الإمـام العالم الأديب والبليغ الأكمل طلب العلم وشارك في الفضائل وساد في علم الرسائل وقرأ الحديـث وكتب المنسوب وجمع وصنف والله يمده بتوفيقه " سمع منى وسمعت منه".(٢٩)

ابن كثير:

ولادته ونشأته ودراسته:

هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء درع القرشي(٣٠) البصرى الدمشقى الملقب بعماد الديـن، وكنيته أبو الفدا واشتهر باسم جده. وقد صرح ابن كثير في نسبته إلى قريش أن أباه كان من بنى حصلة. وهم ينتسبون إلى الشرف وبأيديهم نسب وقف على بعد ذلك شيخه جمال الديـن المـزى فأعجبه ذلك وابتهج به. " فصار يكتب في نسبى بسبب ذلك القرشى". (٣١)

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته. فمنهم من ذكر مولده سنة ٧٠٠هـ سبعمائه. (٣٢) ومنهم من ذكر سنة ٧٠١هـ إحدى وسبعمائة. (٣٣) ويقول جرجى زيدان أنه ولد في دمشق سنة ٧٠٠هـ. (٣٤) ويذكر الدكتور محمد حسين الذهبى " وكان مولده سنة ٧٠٠هـ سبعمائة أو بعدها بقليل. (٣٥) ويقول شاكر مصطفى أنه ولد في بصرى من حوران سنة ٧٠٠هـ. (٣٦) وبعضهم تردد فلم يقع في شك وذكر سنة الولادة بدون تحديد في مثل العبارات التالية: " ولد بعد السبعمائة أو فيها". (٣٧)

ويتضح خلال دراستنا بأن ابن كثير ولد بقرية شرقى بصرى وهـى في الأصل موطن أمه انتقل إليها أبوه في أواخر حياته فقد كان أبوه بها خطيبا وأقام بها مدة طويلة إلى أن توفي فيها. فتحولت الأسرة منها إلى دمشق سنة ٧٠٧هـ حين كان ابن كثير ابن ست سنين. (٣٨) ونزلت الأسرة في الدار المجاورة للمدرسة النورية التي كان يسكنها من قبل محى الدين عبد الله بن إبراهيم بن مرزوق (ت: سنة٦٦٢هـ) والتي وقفها الأمير جمال الدين آفوش لمدرسة شافعية عرفت بالمدرسة النجبية. (٣٩) وهى المدرسة التى بدأ ابن كثير يدرس بها منذ سنة ٧٣٦هـ، ويذكر شاكر مصطفى تحول الأسرة إلى دمشق، وفقد ابن كثير أباه والتحاقه بمدرسة فيها بقوله "فقد أباه وهو في السابعة فقدم دمشق مع أخيه ودرس فيها فحفظ المتون، وكان حاد المزاكرة، جيد الفهم والاستحضار، مشاركافى العربية والنظم". (٤٠) ويذكر الدكتور محمد حسين الذهبى "هو الإمام الجليل الحافظ، عماد الدين أبو الفدا، إسماعيل بن عمر وبن كثير بن ضوء بن كثير بن

درع البصرى ثم الدمشقى، الفقيه الشافعى قدم دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه".(٤١)

ويتضح لنا أن ابن كثير قد بدأ الاشتغال بالعلم على يدى شقيقه الأكبر الوهاب الذي آنسه بالعلم وجعله يحب العلم ويجتهد في حصوله ويحتمل ما يعانى في سبيله. وقد أخذ ابن كثير العلم من كبار العلماء في عصره في شتى المجالات من العلوم والفنون. حفظ ابن كثير القرآن الكريم سنة ٧١١هـ في المقرى والكتاب على الشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد ابن أبى الحسن بن حسين بن غيلان البعلبكي الحنبلي. وقد كان من الصالحين الكبار والعباد والاخيار، يقرئ القرآن طرفي النهار.، وقال: "إنه سمع الحديث وأسمعه".(٤٢)

وبعد حفظ القرآن الكريم قراء ابن كثير شيئا من القراءات على الشيخ محمد بن جعفر بن فرعوش اللباد. ثم حضر دروس الشيخ بدر الدين محمد بن أحمد بن بضحان شيخ القراء السبع بدمشق في زمانه، وقد باشر مشيخه الإقراء بتربة أم صالح وبالأشرفية.(٤٣) وبعد ذلك تعلم الكتابة على يد الكاتب الفاضل المجود، كاتب الخط المعروف بالمسنوب الشيخ نجم الدين موسى بن على بن محمد الجيلى المعروف بابن البصيص. واشتغل بالنحو على الشيخ ضياء الدين عبد الله الزربندى ومهر فيها بعد أيام قليلة.

وقد أخذ التعليم العالى من العلماء الكبار في عصره كما أنه سمع الموطا للإمام مالك بن أنس وسمع الجامع الصحيح البخارى على الشيخ شهاب الدين أبى العباس أحمد بن أبى طالب وقرأها على الشيخ جمال الدين أبى الحجاج يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن يوسف المزى. وقد ذكر المترجمون أن ابن كثير لازم المزى وصاهره على ابنته وأخذ عنه كثيراً وانتفع به وتخرج عليه وقرأ عليه مؤلفه الشهير 'تهذيب الكمال في أسماء الرجال' كما أنه سمع عليه أكثر تصانيفه.(٤٤)

وسمع ابن كثير الجامع الصحيح لمسلم وغيره من الكتب على الشيخ برهان الدين بن إسحٰق بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزارى المعروف بابن الفركاح. وذكر المترجمون لابن كثير أنه تفقه عليه.(٤٥) كما سمع صحيح مسلم أيضا في تسعة مجالس على

الشيخ نجم الدين العسقلانى وسمع السنن للدار قطنى وغيره من الكتب على الشيخ الفقيه محى الدين أبى ذكريا وكذلك سمع كثيراً من السنن الكبير للبيهقى على الشيخ عفيف الدين محمد بن عمر بن عثمان بن عمر الصقلى. وسمع مسند الإمام الشافعى على علم الدين الجاولى. فيمن سمع عليه من القضاة والأعيان.

فقد سمع ابن كثير بقراءاته شيئاً كثيراً على قاضى القضاة عز للدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة حين قدم دمشق ٧٢٥هـ من مصر.(٤٦) وسمع على الشيخ تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن أبى القاسم بن تيمية الحرانى(٦٦١-٧٢٨) شيخ الإسلام وقد عدة من شيوخ ابن كثير أكثر المترجمين له، وقالو: إنه صحب ابن تيمية وقرأ عليه كثيرا، ولازمه فأكثر عنه وانتفع بعلومه. كما أشاروا إلى حب ابن كثير لابن تيمية وافتتانه به واعتناقه آراءه في الطلاق وغيرها. فأمتحن ابن كثير مثل شيخه بسبب ذلك وأوذى.(٤٧) كما يذكر شاكر مصطفى "وأخذ عن ابن تيمية وأعجب به وامتحن بسببه".(٤٨) وتفقه ابن كثير على الشيخ كمال الدين ابن قاضى شهبه (٦٥٣-٧٢٦) وكان بارعاً في الفقه والنحو، له حلقة يشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة.(٤٩) وكان من عادة العلماء المسلمين وخاصة علماء الحديث منذ فجر الإسلام أن يرحلوا في طلب العلم. فقد زار مدينة القدس مرتين وأشار إلى رحلته العلمية إلى نابلس بطرابلس الشام في ترجمة شيخه شمس الدين أبى محمد عبد الله بن نعمة المقدسى النابلسى فقال قرأت عليه عام ٧٣٣هـ مرجعنا من القدس كثيراً من الأجزاء والفوائد.(٥٠) وسافر إلى مدينة بعلبك بطرابلس الشام مرتين وسافر لأداء فريضة الحج إلى الحجاز سنة ٧٣١هـ في جمع كبير من علماء ومشائخ دمشق وأعلامها، مثل شيخه تاج الدين ابن الفاكهانى وصاحبه ابن القيم الجوزية، وقد نقل عن الشيخ بدر الدين قوله " اجتمع في ركبنا هذا أربعمائة فقيه، وأربع مدارس وخانقاه ودار حديث، وقد كان معنا من المفتيين ثلاثة عشر نفسا".(٥١)

وبعد أن انتهى من التحصيل وأخذه العلوم من أعظم وأشهر علماء عصره كما ذكرنا، بدأ يشتغل بالتدريس في المدارس المشهورة في عصره، مثل في المدرسة النجيبية والمدرسة الفاضلية والمدرسة الصالحية ودار القرآن والحديث التنكزية ودار الحديث الأشرفية الجوانية، ودرس التفسير

بالجامع الأموى وغيرهم من المدارس المشهورة. وفي مدة قليلة اشتهر ابن كثير مدرساً جيداً مشهوراً، وكان يحضر في دروسه جماعة من أعيان الفقهاء وبعض القضاة على عادة العصر عند مباشرة أحد المشائخ الدرس في المدارس إكراماً واحتراماً للشيخ الجديد.

وهكذا بعد أداء خدمة جبارة في مجال الدين والعلوم لبى نداء ربه وهو في سنة أربع وسبعين.

وفاته:

وقد اتفق المؤرخون على أنه توفي في دمشق في شعبان سنة ٧٧٤هـ (أربع وسبعين وسبعمائة).(٥٢) وقد حدد ابن حجر يوم وفاته بخامس عشر شعبان.(٥٣) إلا أن تغرى بردى خالفه في ذلك بقوله "إنه توفي ست وعشرين من شعبان".(٥٤) ودفن بوصيته منه في تربة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق. وكانت له جنازة حافلة مشهورة.(٥٥) وكان حنيفا فتمذهب بالمذهب الشافعي.

مؤلفاته:

قد ألف ابن كثير تصانيف مفيدة نافعة من كتب مطولة ومتوسطة الحجم إلى رسائل مختصرة صغيرة في التفسير والحديث والفقه والتاريخ وما إلى ذلك، طبعت بعضها وما زالت بعضها الأخرى مخطوطة محفوظة في مكتبات العالم. ومن أشهر تصنيفاته:

البداية والنهاية: هي مطول في تاريخ العام شاملة معروفة في التاريخ الإسلامي العام من بدء الحليقة إلى ما يقارب نهاية القرن الثامن الهجري، وهي من أكبر التواريخ الإسلامية حجما وأغزرها مادة أكثرها فائدة. اعتمد في تأليفه على النص من الكتاب والسنة وميز بين الصحيح والسقيم من الخبر الإسرائيل. جمع فيها ابن كثير حصيلة المجهودات العلمية التي قام بها المسلمون في أكثر من سبعة قرون قبله من ميادن العلوم الإسلامية من تفسير وحديث وسيرة وتاريخ وتراجم وما إلى ذلك. وأجود ما فيه السيرة النبوية وإن أخل بإهمال عدد من كبار العلماء، والتاريخ تقليدى المنهج مع ذلك فهو يقوم علا الأساس الحولى اعتبارا من الهجرة. ويقدم الحوادث وينهى بالوفيات، ويذكر ابن حجر. وقد بدأه من سنة مولده٧٧٣هـ فقال مقدمة

كتابه "هذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث أن يكون ذيلا على تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير. فإنه انتهى في ذيل تاريخه إلى هذه السنة ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلا على الوفيات التي جمعها الحافظ تقى الدين ابن رافع فإنها أيضا إلى أوائل هذه السنة".(٥٦) وقد لخصه كثيرون وذيلوه. منه نسخة في فينا في ثمانية مجلدات، تنقص الجزء الثالث من زواج الرسول إلى السنة السابعة للهجرة. والجزء السادس من سنة ٢٩٨ إلى ٦١٤، والثامن من سنة ٧٤٧ إلى النهاية. والجزء الأول منه في برلين. وغوطا وأُكسفورد والمتحف البريطانى وفي دار الكتب المصرية. والثانى في أُكسفورد من المسيح إلى المعراج. وأجزاء في آياصوفيا وكوبرلى وبيازيد وغيرها. وقد ترجم بعضه إلى التركية. ومن الترجمة نسخ في ليبسك وباريس وفي مكتبة إبراهيم (باشا) بالأستانة ولشهاب الدين بن جحى المتوفي سنة ٨١٦ ذيل عليه من سنة ٧٤١ إلى ٧٦٩. منه نسخة في برلين. وللطبرانى المتوفى سنة ٨٣٥ ذيل. في برلين.(٥٧) وطبع البداية والنهاية في مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٥٨هـ ثم طبع مرة أخرى في بيروت سنة ١٩٧٧م والحقت به الفهارس في مجلد منفصل.

تفسير القرآن الكريم: يمتاز تفسير ابن كثير في تفسيره القرآن بالقرآن ثم بالأحاديث الصحيحة المشهورة التي يسوقها بأسانيدها مع تخريجها من دواوين الحديث المختلفة، ثم يتكلم عليها جرحا وتعديلا لبيان ما فيها من غرابة أو شذوذ. ثم يدعم ما يرجحه بأثار الصحابة والتابعين وأقوال السلف الصالحين. مشيراً في ذلك كله إلى مصادره التي اختار منها مواده من كتب التفسير وعلوم القرآن والحديث وأصوله ورجاله والتاريخ والفقه والكلام وما إلى ذلك، وهي في أكثر عشرة أجزاء. منه نسخة في دار الكتب المصرية. وقد اختصره الكازويني في كتاب سماه " البدر المنير".(٥٨) فقد أثنى على هذا التفسير كثيرون. كما رغم البستانى في دائرة المعارف وأثنى علىتفسيره أيضا السيوطى حيث يقول"لم يؤلف على نمطه مثله".(٥٩) وأما الشوكانى فكان يعده " من أحسن التفاسير، إن لم يكن أحسنها" لأنه جمع فيه فأوى ونقل المذاهب والأخبار والأثار وتكلم بأحسن الكلام أنفسه.(٦٠) ولاحظ الدكتور صلاح الدين المنجد

بأنه " من أحسن التفاسير المعروفة على القرآن وعلى الأحاديث الصحاح، وتلك ميزة ذات شأن. وقد كان ابن كثير واسع العلم جيد الاستنباط، فأتى تفسيره صحيحا ممتعاً".(٦١)

وقد زاد اهتمام الناس بتفسير ابن كثير منذ أن تيسر نشر العلم بانتشار الوسائل الحديثة للطبع والنشر، فطبع مراراً ونشرت ترجمة تفسيره باللغة الأردوية في خمسة أجزاء من باكستان سنة ١٩٥٢م.(٦٢)

الاجتهاد في طلب الجهاد: أما الاجتهاد في طلب الهجاد، رسالة صغيرة في ٨٠ صفحة ألفهاللأمير منجك نائب السلطنة بدمشق ليرسله إلى ما حاور البحر من البلاد. ليأخذوا بحظهم من الجهاد. وذكر فيه هجمات الأفرنج على الإسكندرية. وقد صرح ابن كثير في مقدمة هذه الرسالة بأنه ألفها بأمر الأمير المذكور لأنه نائب الإمام. وفيما أمر طاعة لله ولرسوله.(٦٣) ثم أورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في فضل الجهاد ووجوده، ثم ذكر هجوم الفرنج على الإسكندرية وانتقال عصائبهم منها إلى طرابلس، وذكر طائفة من أخبار الفتح الإسلامي في زمن صلاح الدين. وذكر اخيرًا قصد الفرنج من الهجوم وهو أخذ بيت المقدس من أيدى المسلمين. منه نسخة في دار الكتب المصرية وفي كوبرلى.(٦٤)

التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل: أجمع المترجمون على اسم هذا الكتاب، ووصفه بأن ابن كثير اختصر فيه (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) لشيخه جمال الدين يوسف المزى. وأضاف إليه ما تأخر في ميزان الاعتدال في نقد أسماء الرجال لشيخه شمس الدين أبى عبد الله محمد الذهبى أو أنه جمع بينهما مع زيادة مفيدة في الجرح والتعديل. كما يذكر شاكر مصطفى في تاريخه حيث يقول " جمع فيه تهذيب الكمال للمزى وميزان الاعتدال للذهبي مع زيادة وتحرير فيه" ومنه مخطوط الرباط رقم ٢١٩ك في ٩٩ ورقة محزوم الأخر.(٦٥)

جامع المسانيد والسنن: هذا الكتاب عظيم من أنفع كتبه.(٦٦) قد اختلف الناس في اسم هذا الكتاب كما سماه الحسينى " كتاب الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن".(٦٧) وذكر ابن حجرأن ابن كثير سماه " جامع المسانيد والسنن.(٦٨) فقد أراد به ابن كثير تحقيق أصحاب الرواة في الحديث وما هى درجة ثقتهم، ثم جمع بهذا المعانى كتاب جامع المسانيد. هذا نقلا

عن الكتب الستة ترجم فيه كل صحابى له رواية. ورتبه على حروف المعجم ومنه نسخة في دار الكتب المصرية في ثمانية مجلدات وفي كوبرلى.(٦٩)

اختصار علوم الحديث لابن الصلاح: وهو كتاب في مصطلح الحديث مشهور بين أهل العلم. اختصر فيه ابن كثير كتاب علوم الحديث. المعروف بمقدمة ابن الصلاح. ويوجد منه نسخ خطية عديدة في مكتبات الهند القديمة مثل حيدرآباد، ايشياتك سوسايتى كلكتا وفهرست مكتبة رضارامبور.

مولد رسول الله: ومنه مخطوطة في جامعة برنستون بأمريكا (مجموعة يهودا) نشرها الدكتور صلاح الدين المنجد في بيروت سنة ١٩٦١م. ذكر فيه نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار جده وأبيه وأمه وصفة مولده، وأخبار رضاعه وصفاته وشمائله وأخلاقه، ختمه ببعض الأبيات المنسوبة إلى عمى الرسول صلى الله عليه وسلم، أبى طالب والعباس بن عبد المطلب.

سيرة عمر ابن عبد العزيز: هذا مبطوع وموجود في دار الكتب المصرية بالقاهرة.

السيرة النبوية المختصر: (أو الفصول في سيرة الرسول) ذكرها المؤرخون المتقدمون باسم سيرة صغيرة.(٧٠) أما المتأخرون منهم فيذكروها باسم 'الفصول في سيرة الرسول'.(٧١) ولكن نشرها أحد المطابع في مصر سنة ١٣٥٨هـ عن مخطوطة مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة باسم " الفصول في اختصار سيرة الرسول".(٧٢)

طبقات الشافعين: (كما سماه هو نفسه في البداية ٢٥١/١٠ ويسمى طبقات الشافعية): وقد صرح ابن كثير غير مرة بأنه أفرد للإمام الشافعى ترجمة مطولة في أول كتابه طبقات الشافعية، ثم ذكر معه تراجم أصحابه من بعده.(٧٣) ومنه نسخة في الرباط رقم ٣١٩ك (مصورة في معهد المخطوطات، بالقاهرة) ومخطوطة في جامعة برنستون بأمريكا، ونسخة في مكتبة عبد الحى الكتانى يفاس عليها خط المؤلف سنة ٧٤٦ مع نسخة أخرى في المكتبة نفسها ولم تطبع هذه الطبقات.(٧٤)

وله بعض المؤلفات قد كانت، ولكنها فقدت فلا نراها وهذه الكتب هي: الكواكب الدراري وسيرة الصديق والفاروق ومسندهما،وشرح البخاري، واختصار كتاب المدخل إلى كتاب السنن للبيهقى، وكتاب المقدمات، وكتاب الأحكام الكبير، وكتاب أحكام الصغير، وتخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب، وشرح التنبيه لأبى إسحٰق الشيرازى، ورسالة في السماع، وسيرة منكلى بغا الشمسى وغير ذلك.

وهناك بعض الكتب له أكثرها بصورة رسائل صغيرة، عثرنا على أسمائها في تاريخ ابن كثير ولكنها مازالت مجهولة لمترجمين وهى: "والحواشى على زيادات مسلم ورواياته" و"زواج أم سلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاية الابن لأمها في عقد النكاح" و"بطلان وضع الجزية عن يهود خيبر" و"بيع أمهات الأولاد" و"انكار رسول الله صلى الله عليه وسلم الزواج من عزة بنت أبى سفيان" و"جزء في الأحاديث الواردة في المهدى" و"جزء في حديث كفارة المجلس" و"ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية" و "أحاديث التوحيد ورد الشرك" وغير ذلك.

ويتضح لدينا خلال دراستنا كان ابن كثير من المفتيين الكبار في عصره، كما وصفه شيخه الذهبي " الفقيه المفتى".(٧٥) وقد رويت له مؤلفات في الفقه وأصوله وهى الأحكام الكبير والصغير وشرح التنبيه في فروع الشوافع ومختصر ابن حاجب في أصول الفقه المالكى ولكن فقدت هذه الكتب فيما فقدت من مؤلفات ابن كثير.

اتصاله بالصفدي:

كان العصر الذي عاش فيه ابن كثير وبرزفيه عديد من كبار الكتاب والمؤرخين والمفسرين بذلوا جهودهم في سبيل التراث الثقافى والحضارى وضحوا نفوسهم في تنقيحه وإصلاحه وكانوا متعاونين على التعليم والتعلم ويقيمون حلقة الدرس والتدريس ويجتمعون فيها، فتلك الحلقات العلمية ساعدتهم على التعارف بالعلماء المعاصرين وأصبحت صلة البعض بالبعض صلة وطيدة. فمن هذه العادة السائدة أصبح صلاح الدين الصفدي زميلاً وأستاذاً لابن كثير كما يذكر الدكتور مصطفى الشكعة " إن صلاح الدين الصفدي واحد من العلماء القليلين الذين أصبحوا فيما بعد، أساتذة لأساتذهم، أخذ العلم عن عديد من العلماء "في "صفد" ودمشق والقاهرة. أخذ عن الشهاب

محمود وابن سيد الناس وابن نباتة المصرى وأبى حيان المصرى والذهبى وابن كثير، ومن الطريف أن بعض هؤلاء العلماء الأعلام جسلوا للاستماع إليه حين أصبح عالماً كبيراً يجلس للدرس فيئوم مجلسه الكبار والصغار".(٧٦) ويقول أيضا الدكتور شوقى ضيف " وكان يحضر حلقة دروسه أحيانابعض شيوخه مثل الذهبى وابن كثير".(٧٧)

تاج الدين السبكي:

مولده، نشأته وتعليمه:

هو المؤرخ البارع العلامة الباحث "تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن قاضى القضاة تقى الدين أبى الحسن على بن زين الدين أبى محمد الكافى بن ضياء الدين أبى الحسن على بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام السبكى ولد بمصر سنة ٧٢٧هـ" .(٧٨) ونسبته إلى سبك (من أعمال المنصوفية بمصر).(٧٩) وأما والده الإمام العالم المجتهد تقى الدين بن السبكى وهو من أسرة مباركة طيبة لها القدم الراسخة في العلم والأدب والتاريخ. وكان تاج الدين شافعى المذهب كأبيه ونشأ نشأة علمية قويمة. طلب الفقه على أبيه وعلى غيره وسمع الحديث من كثيرين. كما درس العربية والأصول وأجاد في نظم الشعر وكتابة النثر وفي الخط. ومن شيوخه كما يذكر محمود رزق سليم منهم " المزى والذهبى وتقى الدين بن رافع".(٨٠) وعند ابن حجر العسقلانى وقد أُجاز له ابن الشحنة ويونس الدبوسى وأسمع على يحى ابن المصرى وعبد المحسن الصابونى وابن سيد الناس وصالح بن مختار وعبد القادر ابن الملوك وغيرهم، ثم قدم مع والده دمشق سنة ٣٩ فسمع بها من زينب بنت الكمال وابن أبى اليسر وغيرهما. وقرأ بنفسه على المزى ولازم الذهبى وتخرج بتقى الدين ابن رافع " وأمعن في طلب الحديث وكتب الأجزاء والطباق مع ملازمة الاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر وهو شاب".(٨١) وقد صور تاج الدين هذه الحقبة من حياته في كتابه الطبقات، وكشف عن اهتمام والده بتربيته، وحرصه في تثقيفه على يدكبار العلماء ممن يثق في علمهم ويطمئن إلى وسائلهم في الدرس والتلقين، فقال في ترجمة شيخه المزى " وكنت أنا كثير الملازمة للذهبى، أمضى إليه في كل يوم مرتين: بكرة والعصر، وأما المزى فما كنت أمضى إليه غير مرتين في الأسبوع، وكان سبب ذلك أن الذهبى كان كثير الملاطفة والمحبة فيّ، بحيث يعرف من عرف حالى معه أنه لم يكن يحب أحداً كمحبته فيّ، وكنت أنا شاباً، فيقع ذلك منى موقعا عظيما، وأما المزى فكان رجلا عبوسا مهيبا،وكان الوالد يحب أن ألازم المزى أكثر من ملازمة الذهبى، لعظمة المزى عنده، وكنت إذا جئت غالبا من عند شيخ يقول: هات،

ماستفدت، ما قرأت، ما سمعت؟ فأحكى له مجلسى معه، فكنت إذا جئت من عند الذهبى يقول: جئت من عند شيخك، وإذا جئت من عند الشيخ نجم الدين القحقارى يقول: جئت من جامع سكر.(٨٢) لأن الشيخ نجم الدين كان يشغلنا فيه وإذا جئت من عند الشيخ شمس الدين بن النقيب يقول جئت من الشامية لأنى كنت أقرأ عليه فيه، وهكذا، وأما إذا جئت من عند المزى فيقول: جئت من عند الشيخ ويفصح بلفظ الشيخ، ويرفع بها صوته وأنا جازم بأنه إنما كان يفعل ذلك ليثبت في قلبى عظمته، ويحثنى على ملازمته".(٨٣)

ويتضح خلال دراستنا بأن السبكى قد أجيز بالدرس والإفتاء وأجازه شيخه شمس الدين بن النقيب بهما قبل سن العشرين. وبرع في المذهب حتي اعتبر نفسه مجتهد عصره، كما يذكر شاكر مصطفى" وأجيز بالفتيا وكان عمره ١٨ سنة".(٨٤)

وقد ولى مناصب متعددة منها: توقيع الدست بدمشق وكذلك خطا به جامعها وناب في القضاء عن أبيه وأخيه ثم صار قاضيا وتكرر عز له وإعادة للقضاء أكثر من مرة، ووقع له بسببه مجنةوجفاء بينه وبين الشيخ سراج الدين البلقينى الذى وليه في قضاء دمشق، اتهمه بتبزير بعض المال فحكم عليه البلقينى بالسجن كما يذكر شاكر مصطفى " ووقعت له فتنة تركته في السجن نحو ٨٠ يوماً".(٨٥) كما يذكر المحقق محمد الطناحى وزميله " ثم عزل وحصل له فتنة شديدة وسجن بالقلعة نحو ثمانين يوماً".(٨٦) ثم عاد إلى القضاء بعد مدة ويقول خير الدين الزركلى " وكان طلق اللسان، قوى الحجة، انتهى إليه قضاء القضاة في الشام وعزل وتعصب عليه شيوخ عصره فاتهموه بالكفر واستحلال شرب الخمرأتوا به مقيّداً مغلولاً من الشام إلى مصر ثم أفرج عنه وعاد إلى دمشق فتوفي بالطاعون".(٨٧)

وقد وجهت إليه سهام الاتهام وظلم موقف كثر وأصيب بمصائب شتى ومحن عديدة سببا لنقده أعمال الشاسة وإيضاحه لطغيان الطغاة وأخطاء الأمة الإسلامية ومشكلاتهم ولتوضيخ أخطاء السلطان والمناصب السلطانية والعسكرية متدرجا إلى كل الوظائف العامة في عصره بمؤلفاته العديدة خاصة بكتابه العظيم " معيد النعم ومبيد النقم" فقد قال عنه معاصره ابن كثير نقل عنه محمود محمد الطناحى وزميله "جرى عليه من المحن والشدائد مالم يجر على قاض قبله

وحصل له من المناصب والرياسة مالم يحصل لأحد قبله، وانتهت إليه الرئاسة بالشام وأبان في أيام محنته عن شجاعة وقوة على المناظرة، حتى أفحم خصومه، ثم لما عاد عفاعنهم وصفح عمن قام عليه".(٨٨)

وقد قام تاج الدين بالتدريس الحديث بالمدرسة الأشرفية كما درس أكبر المدارس في مصر والشام كالعزيزية والعادلية الكبرى والغزالية والناصرية والأمينية ومشيخة دار الحديث الأشرفية والتقوية والدماعية والمسرورية، كما أنه تولى تدريس الشافعى بمصر والشيخونية والميعاد بالجامع الطولونى. كما تولى تاج الدين خطابة الجامع الأموى بدمشق وناب عن أبيه في الحكم. وولى توقيع الدست بسنة ٧٥٤هـ إذ يقول " وقد وليت توقيع الدست بالشام بين يدى ملك الأمراء الأمير علاء الدين أمير على بن على الماردينى نائب الشام".(٨٩) ولقد طارت شهرة تاج الدين في كل الأقطار الإسلامية وأصبح عمدة الناس في الفتيا وكان أهل مصر يرسلون إليه يستفتونه في كثير مما يعرض لهم كما يقول ابن حجر " ولم يزل من يتعصب للسبكى يلح على أمير على حتى أذن في إحضار تاج الدين وأخيه من دمشق،فقدم بهاء الدين القاهرة وأقام تاج الدين في دمشق، فلما بلغ ذلك البلقينى توجه إلى مصر فأقام قليلا ثم رجع إلى دمشق فتسلط عليه أهل الشام وكتبوا فيه محضرا وأسمعوه ما يكره، وسعى بهاء الدين لأخيه حتى ولى الخطابة فخطب أول يوم من شوال، فشق ذلك على البلقينى وخرج بأهله وعياله إلى القاهرة فأعيد تاج الدين القضاء وهى الولاية الأخيرة التي مات فيها".(٩٠)

وفاته:

وأما في وفاته فقد اتفق المؤرخون بأنه توفي سنة ٧٧١هـ وقد عاش المؤرخ البارع العامة تاج الدين أربع وأربعين سنة إذ يقول الطناحى وزميله " وبعد هذه الحياة الحافلة بجلائل الأعمال توفي تاج الدين أبو نصر على شهيداً بالطاعون، بالدهشة ظاهر دمشق في ذى الحجة خطب يوم الجمعة وطعن ليلة السبت رابعة ومات ليلة الثلاثاء سابعة سنة ٧٧١هـ ودفن بتربة السبكية بسفح قاسيون عن أربع وأربعين سنة".(٩١) وجاء في دائرة المعارف الإسلامية "وتوفى بالطاعون سنة ٧٧١هـ".(٩٢)ويقول محمود رزق سليم " وتوفي فى ٧ذى الحجة سنة ٧٧١ هـ بدمشق وكان

كريماً مهيباً سمحاً".(٩٣) ويذكر ابن حجر " ومات في سابع ذي الحجة سنة ٧٧١هـ خطب يوم الجمعة فطعن ليلة السبت رابعة ومات ليلة الثلاثاء".(٩٤)

مؤلفاته: وقد تمثلت ثقافة تاج الدين تصانيف كثيرة عديدة على صغر سنه، قرئت عليه وانتشرت في حياته وبعد موته، ومن المؤلفات التي خلفها:

طبقات الشافعية الكبرى: وهي في طبقات رجال الشافعية من مبدأ ظهور المذهب إلى أيام المؤلف في ستة أجزاء. وهي ثلاث طبقات: كبرى، وسطى وصغرى، وكبرى هذه الطبقات متداولة مشهورة في عصرنا. وهي تشتمل على مقدمة وسبع طبقات يترجم في كل طبقة منها لأعلام مائة سنة. أما المقدمة فقد استوفي فيه ابن السبكي مباحث عدة وناقش فيها مسائل الحديث ونقد الرجال والنحو وترجم فيها جميع فقهاء الشافعية حتى عهده. ورتبها كل طبقة على حروف المعجم. وبدأ بذكر الأحمدين، ثم المحمدين تيمانا وتبركا. وكذلك فعل في الطبقات الوسطى والصغرى حيث رتب المترجمين على حروف المعجم مع البدء أيضا بالأحمدين والمحمدين. وقد طبعت الطبقات الكبرى مرتين. الأولى في سنة ١٣٢٤هـ بالمطبعة الحسينية بمصر والثانية في القاهرة أيضا بتحقيق الطناحي وزميله في عشرة مجلدات اعتباراً من سنة ١٩٦٤م حتى سنة ١٩٦٧م.(٩٥) ولها مخطوطات في كبار مكتبة العالم كما في مكتبة المتحف العراقي رقم ١٠٥٣ وفي دار الكتب المصرية ومكتبة الحرم المكى رقم ٦٤ وفي عارف حكمت بالمدينة نسخة أخرى في جزئين رقم ١٣٣-١٣٤ وفي إسكوريال رقم ١٦٦٩ وفي المتحف البريطانى رقم ٦٥٢١/٤.(٩٦)

جمع الجمع في أصول الفقه: وهو ملخص، طبع في مجموع في مصر ١٣١٠هـ قال صاحب كشف الظنون: جمعه من زهاء مائة مصنف، مشتمل على زبدة ما في شرحيه على مختصر ابن الحاجب والمنهاج مع زيادات وبلاغة في الاختصار ورتب على مقدمات وسبعة كتب.

منع الموانع: وهو شرح للكتاب السابق، طبع في مجموع. مصر ١٣٢٢هـ.

الأشباه والنظائر في الفروع: ذكره ابن حجر، وابن حبيب وابن تغرى بردى وابن عماد وحاجى خليفة وبروكلمان.

معيد النعم ومبيد النقم: وهو في الطريقة التي يسلكها، مسلوب النعمة لإعادتها طبع في ليدن ١٩٠٨م بعناية الأستاذ David, W. Myhrman وطبع أيضا بالقاهرة طبعات مختلفة، وهو مختصر مرتب على إثنى عشرو مائة مثال، ومنه نسخة بخط المؤلف في مكتبة العزاوى ببغداد.

ترشيح التوشيح: وهو في أصول الفقه. ذكره ابن حجر وابن عماد والكتانى وحاجى خليفة وبروكلمان.

توشيح التصحيح: وهو في أصول الفقه أيضا. ذكره ابن حجر وابن حبيب وابن تغرى بردى وابن عماد وحاجى خليفة وبر وكلمان.

رفع الحاجب عن شرح مختصر ابن الحاجب: وهو في الأصول، ذكره ابن حجر وابن حبيب وابن تغرى بردى وابن العماد والكتانى وحاجى خليفة وبر وكلمان.

شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوى: ذكره ابن حجر وابن حبيب وابن تغرى بردى، وابن العماد، والكتانى وحاجى خليفة.

قواعد الدين وعمدة الموحدين: ذكره برو كلمان، وذكر ابن حجر هذا الكتاب باسم " القواعد المشتملة على الأشباه والنظائر".(٩٧)

جزء في الطاعون: ذكره حاجى خليفة.

جلب حلب: ذكره ابن العماد وقال عنه، جواب عن اسئلة سأل عنها الأذرعى وغيره.

السيف المشهور في شرح عقيدة أبى منصور: (الماتريدى) ذكره حاجى خليفة.

الدلالة عن عموم الرسالة، جوابا عن أسئلة أهل طرابلس: ذكره بر وكلمان.

مصنف في علم الألغاز: ذكره حاجى خليفة.

فتاوى: ذكره بر وكلمان.

معجم الشيوخ: وفيه تراجم ١٧٢ شيخا، ومنه نسخة في التيمورية في مجلدين برقم ١٤٤٦ بدون تاريخ وهى في مجلدين قرئت على المؤلف وعليها خط السخاوى.

مناقب الشيخ أبى بكربن قوام: ذكره بر وكلمان.

رفع الحوبة في وضع التوبة: ذكره بروكلمان.

أحاديث رفع اليدين: ذكره بروكلمان.

أوضح المسالك في المناسك: ذكره بر وكلمان.

تبيين الأحكام في تحليل الحائض: ذكره بر وكلمان.

ترجيح تصحيح الخلاف: ذكره بر وكلمان.

اتصاله بالصفدي :

وقد يثبت بقول تاج الدين السبكي وصلاح الدين الصفدي كان بينهما صلة وثيقة ومؤدة عميقة، وقد كان في صغره يتردد إلى الإمام تقى الدين السبكى طالبا للعلم والفقه، وقد سجل التاج الدين السبكى بن تقى الدين السبكى هذه الفترة من حياة الصفدي . كما يقول السبكى " وكانت بينى وبينه صداقة منذ كنت صغيرًا فإنه كان يتردد إلى والدى فصحبته ولم يزل مصاحبا لى إلى أن قضى نحبه وكنت قد ساعدته في آخر عمره".(٩٨) ويتضح خلال دراستنا بأن السبكى قد صحب في حداثة سنه صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، وبهذه الصحبة استطاع السبكى أن يشحذ ملكته وأن يتناول القريض كما يتناوله مثله من العلماء كما يقول السبكى " ما صنف كتابا إلا وسألنى فيه عما يحتاج إليه من فقه وحديث وأصول ونحو. بينما يقول تاج الدين نفسه في مكان آخر " كنت أصحبه منذ كنت دون سن البلوغ، وكان يكاتبنى وأكاتبه وبه رغبة في الأدب فربما وقع لى شعر ركيك من نظم الصبيان فكتبه هو عنى إذ ذاك وبه رغبت بالأدب وأنا ذاكر بعض ما بيننا مما كان في صغرى".(٩٩) ويقول السبكى أيضا " وكنت قد ساعدته آخر عمره فولى كتابة الدست بدمشق ثم ساعدته فولى كتابة السر بحلب، ثم ساعتدته فحضر إلى دمشق على وكالة بيت المال وكتابة الدست واستمر بهما إلى أن مات".(١٠٠)

وقد يثبت لنا بالمذكور كان بينهما صلة ودّ ومحبة عميقة إذ سافر السبكى في سـنة ٧٦٣هـ مـن دمشق إلى مصر وكان هذه الفراق عند الصفدي مغرماإذ يقول بهذا الصدد:

ولكن جعلت الشام بع * دك كالجحيم وكان جنه
ودمشق بعدك قد ترد * ت ثوب حزن فيه دكنه
لم يسق من برد البريـ * ـص ولو أتى أولاد جفنه
وكذلك ثوب بعد بعـ * ـدك ما تنسّى بل تسنّه
والجامع المعمور كا * د يزعزع الأشواق ركنه
والقبة الشمّاء ليـ * س يجوها للنسر قنّه
كانت به الأعطاف وهـ * ى موائد يملأن صحنه
والآن أقفر وحشة * وأسال منه السّقف دهنه
والله خيّب فيك ما * قال الحسود ورد ظنّه
قد عاد حتي كاديمـ * سى ما تقوّ له عرضنه.(١٠١)

ابن نباتة المصرى:

مولده ونشأته ودراسته:

هو الشاعر الأديب الكاتب المصنف جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن الحسن بن نباتة الفارقى الشافعى المصرىالمعروف بابن نباتة أشعر شعراء المصريين في زمن المماليك. ولد في القاهرة بمصر في زقاق القناديل سنة ست وثمانين وست مائة.(١٠٢) ويثبت ذلك لكتاب مسجوع مطول لابن نباتة كتبه إلى الصلاح الصفدي يقول فيه " فأما مولدى فمصر المحروسة في ربيع الأول سنة ست وثمانين وستمائة بمنزلنا بزقاق القناديل". (١٠٣) وجاء في نهاية الكتاب عن نسبه قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمد بن أبى الحسن بن صالح بن على بن يحى بن ظاهر بن محمد بن الخطيب بن يحى بن عبد الرحيم بن نباتة وكان زقاق القناديل الذي ولد في أحد بيوته ابن نباتة مقام أشراف الناس وأعيانهم كما يؤخذ المقريزى، فعلم أنه نشأ في بيت نعمة أي في بيت علم وأدب وثراء، وشب في أسرة هانئة تمتع بشئ من نعيم الحياة. وكان أبوه شمس الدين بن نباتة من أشياخ الحديث بدمشق. شب ابن نباتة ونما وترعرع الجو العلمى الأدبى ونشأ بين أترابه وأقرانه غلاما منعما. حتي إذا أتم دراسته الأولى سما إلى الدراسة العالية. فدرس الحديث وعلوم الدين واللغة والأدب. فقضى شبابه في أزهى أيام الأدب في عهد المماليك. فقد عاصر كثيرًا من رجال اللغة والأدب والكتاب مثل جمال الدين بن هشام المصرى وابن منظور وابن سيد الناس. وعاصر من الشعراء كثيرًا، منهم نصير الدين الحمامى، محى الدين بن فضل الله العمرى وشهاب الدين وعلاء الدين وشهاب الدين محمود الحلبى وشمس الدين محمد بن العفيف وعلاء الدين الوداعى وزين الدين بن الوردى وصلاح الدين الصفدي وصفى الدين الحلى. أما الفقهاء والمحدثون في أول عهد ابن نباتة بالعلم والتعليم فكانوا كثيرون. فاستفاد من علومهم وآدابهم وأروى ظمأه العلمى بمصاحبتهم. ويتضح عند الباحث أن استعداده السليم في أول نشأته وجد غذاء عليما يسد حاجته وأن الحياة الأدبية التي كانت تحيط به تركت في نفسه آثارا ظهرت ثمارها فيما بعد. وأنه استطاع في حداثته أن ينتهب قسطا وافرا من الأدب والعلم، وبدأ

ابن نباتة حياته العلمية باتصال آل فضل الله وهى أسرة كان نفر من أفرادها يتولون الكتابة للأيوبيين في مصر والشام. ثم غادر إلى الشام واتصل بالملك المؤيد أبى الفدا صاحب حماة فكان يمدحه ويؤلف له الكتب عادة كتاب الزمن وشعرائه واقبلت عليه الدنيا. واتصل ابن نباتة أثناء ذلك بنفر من الوجهاء ورجال الدولة. كان منهم أمين الدولة عبد الله الأمينى وهو الذى جعله ناظرًا على كنيسة القيامة ثم رجع إلى دمشق و لكنه كان يزور القدس كل عام ليجمع متحصل كنيسة القيامة من الزّوار. وفي أوائل سنة٧٤٣هـ دخل ابن نباتة ديوان التوقيع على يد القاضى شهاب الدين ابن فضل الله العمرى. قد عزل من هذا المنصب ثم أعيد إليه. ومن هنا اتصل آل السبكى في دمشق، منهم تقى الدين السبكى وابنه تاج الدين. وفي سنة ٧٦١هـ عاد إلى القاهرة ومدح السلطان الناصر فأكرمه إكراماً كثيرة وألف له مجموعة خطب منبرية. ثم اضطربت حياته بموت السلطان. حتي رحل إلى الدار الآخرة.

وفاته:

أما في تاريخ وفاته فقد اتفق المؤرخون أنه توفي سنة ٧٦٨هـ كما يذكر عمر فروخ " كانت وفاته في أوائل صفر من سنة٧٦٨هـ (خريف ١٣٦٦م) (١٠٤) ويقول الشيخ أحمد الإسكندرى وزميله "إن ابن نباتة ممن لا يعنى باستعمال الجناس، ولا يحفل به كابن الوردى وابن حجة وأن وقع أحيانا في شعره واختلط في أواخر عمره ومات بالبيمارستان المنصورى سنة ٧٦٨هـ".(١٠٥)

شعره:

يرى كثير أن ابن نباتة أشعر شعراء عصره وحامل لواء الفن الجديد بمصر والشام. والحق أنه بلغ الغاية في إجادة التورية حتى أصبح العلم الفرد فيها وساعده على إتقان فنه الشعرى استعداد فطرى سليم وذوق مصرى دقيق. وقد أجمع أهل الأدب في عصر المماليك على تقديم ابن نباتة وعده أمير الأدباء في الصناعة اللفظية والطريقة الفاضلية. كما نقل أحمد الإسكندرى قول بن حجة الحموى المتوفي سنة ٧٣٧هـ من خزانة الأدب عند كلام التورية: "فانه (ابن نباتة) وإن تأخر في السبق عن فحول المتقدمين عصرًا فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانا وسحرًا،

وتفقّه في الطريقة الفاضلية لمذاهب ما سلكها المتقدمون وهانحن نستجدى من حواصلها نظمًا ونثرًا، وكم سأله عالم في سلوك هذه الطريقة فقال لن تستطيع معى صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا، وإن قيل إن الفاضل تمذهب بهذا المذهب فمذهبى. وأنا استغفر الله. أنه (ابن نباتة) وصل فيه إلى درجة الاجتهاد وهذا القول يقول به من رفع الخلاف وتأدّب، فإن هذه الطريقة ما أمها ناظم ولا ناثر في الأيام الأموية ولا ابتسمت ثغورها في الخلاقة العباسية، ولما انتهت الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغريبة وأظهر منها الزيادة المستفادة، واعتادها بلغاء المتأخرين بعد ما شهدوا بسبقه فأكرم بها عادة وشهادة، ولما اتّصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أهّل غربتها وشرّف بأصل شجرته النباتية نسبتها، وأسكن في أبياته من بديع النظم كل قرينة صالحة، وأمست سواجع إنشائها على فروعه النباتية صادحة".(١٠٦) ويقول عمر فروخ "إن ابن نباتةالمصرى شاعر وراجز وشاح ثم هو ناثر باحث ومترسل. يمتاز ابن بناتة المصرى في شعره بالرقة وحسن التورية وبالاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ثم بالاتّكاء على مصطلحات أصحاب النحو والعروض والفقه والتصوف والفلسفة مع نظر إلى مصطلحات الشيعة. وهو في ذلك يكثر من الصناعة حتى يصبح جانب من شعره زمرا.ولابن نباتة المصري قصائد طوال مقطعات تطول وتقصر في المديح والرثاء والخمر والنسيب والغزل ووصف الطبيعة، وجانب من مديحه بديعيات (مدائح نبوية).(١٠٧)

وله شعر كثير في الحنين إلى الصبا ووصف ويلات الهرم والشيب كما كان يكثر من وصف القلم عند ما يمدح الكتّاب والأدباء وفي ديوانه كثير من التهاني وأشهرها تهنئة الأفضل بالملك التي جمع فيها بين التهنئة والتعزية. وقد سارت بها الركبان وترددت أصداؤها في كل مكان.

وله قصيدة في الطرد سماها " مصايد الشوارد" وهى في بحر الرجز في مائة وسبعة وستين بيتا.(١٠٨) حاكى فيها شعراء العصر العباسى ممن طرقوا هذا الفن، كأبى نواس وابن المعتز، وقد وفق ابن نباتة في هذه القصيدة وأظهر فيها براعة في التشبيه محمودة. وله بجانب ذلك ألغاز ومقطعات كثيرة، منها الثنائيات، والثلاثيات، والرباعيات، والخماسيات، وأغلب هذه

المقطعات كان يقولها لإبراز نوع بديعى، أو يرسل بها إلى ممدوحيه في طلب حاجة. وله قليل من الموشحات أيضا.

ومن المعلوم أن ابن نباتة يعد بحق زعيم شعراء مصر في عصره، وإن معاصريه سلكوا مسلكه، واتبعوا مذهبه، واتخذوا قائداً وإماماً فكانوا يتخطفون ما يقوله ابن نباتة فيقولون على مثاله. وأقرب ما يشبه ابن نباتة من شعراء مصر برهان الدين القيراطى. ويتشبه به من شعراء الشام صلاح الدين الصفدي.

أما صفي الدين الحلى فكانت بينهما صلة ود وثيقة تبادلا فيها القريض وتقارض المديح الثناء. وكانت له نزعة في الشعر تخالف نزعة ابن نباتة وكان أقل منه احتفالا بالبديع. وكانت ديباجته أقرب إلى الديباجة العربية السليمة.

مؤلفاته:

كان ابن نباتة كاتباً شاعراً. كما يصف نفسه مخاطبا ممدوحة:

يعظم من كان لكم شاعراً * فكيف وهو الشاعر الكاتب؟(١٠٩)

وقد جرى في الكتابة على أسلوب عصره، ولكنه امتاز بالسهولة والتجانف عن التعقيد، وسلك سبيل البديع في رفق وهوادة، فجاء نثره حسن النسج لا يخلو من جمال فنيّ. وله من المؤلفات من محيط التاريخ منها:

كتاب مجمع الفرائد، كتاب القطر النباتى، كتاب سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، وهو من أحسن مؤلفاته يدل على سعة اطّلاع في اللغة والأدب وتاريخ العرب، كتاب منتخب الهدية من المدائح المؤيدة، كتاب الفاضل من إنشاء الفاضل، كتاب زهر المنثور، كتاب سجع المطوق في التراجم، كتاب إبزار الأخبار،كتاب شعاير البيت التقوى، فرائد السلوك في مصايد الملوك، كتاب تدبير الدول أو سلوك دول الملوك في السياسة وآداب الدولة. ويتعلق بواجبات الملوك نحو أنفسهم وعاياهم، ومن هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة أكاد يمية فيينا ومخطوط في مكتبة أسعد أفندى في إستامبول وفيها نقص ورقمها ١٨٢٢.(١١٠) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد، وهو كتاب حافل في الأدب، رسالة المفاخرة بين السيف والقلم، رسالة المفاخرة بين الورد والنرجس،

حظيرة الأنس في حضرة القدس (وصف رحلته إلى بيت المقدس)، النحلة الأنيسة في الرحلة القدسية، وله ديوان عظيم مرتب على حروف الهجاء طبع بالقاهرة.

اتصاله بالصفدي:

كان بين ابن نباتة وصلاح الدين الصفدي صلة وثيقة ومودة عميقة. كما يقول صلاح الدين الصفدي " وبيني وبينه مكاتبات كثيرة ومراجعات اثيرة منها ما كتبه إليّ وأنا بالقاهرة سنة اثنتين وثلثين وسبع مأية وهو:

رضيت بالكتب بعد القرب فانقطعت * حتي رضيت سلاما في حواشيها.

وينهى أنه كان كسير الخاطر، حسير الناظر، لإنقطاع برّ مولانا الممتاز ولا متناع المملوك من المكاتبة ظنا أن بينها وبين القصد حجاز، فلما وقف الآن على ذكره في حاشية مكاتبة جمالية استأنف للخاطر سرورا، وأقام وزن البيت القلبى وكان مكسورا وضع الطرس على وجه خطّه الأعمى فارتدّ بصيرا، وجمع بين ذلك الخاطر واللفظ والقلب وإنما جمع مسكينا ويتيما وأسيرا، وسرّه أشهد الله أن يكون معدود الذكر في الحاشية، استوقف ألفاظ العتاب وقد كانت إلى درج الإدراج ماشية،

حلال لليلى أن تروع فؤاده * بهجر ومغفور لليلى ذنوبها.

لا تقر عن سماع من تهوى * بتعداد، الذنوب.

ما ناقش الأحباب * الا من يعيش بلا حبيب.

وقد علم الله شوق المملوك إلى تلك الخلايق وربيعها، والألفاظ وبديعها، وشجوه الذى أخفى الجلد وأبانه ووحشته التي أفردته سهماً واحداً في دمشق لا في كنانة.

لم يترك الدهرلى خلاّ اسرّبه * إلاّ اصطفاه نبأىٍ أو بهجران.

والله تعالى يحرس مولانا حيث كان، ويمده بمعونتي المكان والأمكان ويصون نفاسة نفسه وأن تغيرت على أحبابها، واعرضت عن غلمانها، ويأبى ناموس الرتبة أن يقال عن أصحابها، ولايعدم الأولياء على القرب والبعد أن يجتنوا من نظمه ونثره ثمر البيان متشابها، والمملوك يقبّل يد الجناب الأخوى البرهانى شكر الله إحسانه، وأوضح في استحقاق رتب الفضل برهانه، وودّ

المملوك لورآه عند القدوم من حلب فكان يوفّى بعض قروض فضله وفروض بذله، ولكن ابى الحال المناسب إلاّ أن تبدأ هدية ذلك المولى بحسبته فيقابلها المملوك ببخله يا مولانا بلغ المملوك تقدّم المقرّ الفلانى وتبيّنه وتعيّنه وأراد المملوك مطالعته وعرض وسايله ولكنه ذكر حكاية بعض جفاة الأعراب ومعتجر فيهم وقد اشتدّ به ضعفه فقال له بعض إخوانه تب إلى الله تعالى فقال يا أخي! إن عافانى تبت لا أقبل القسر فإن نظر ذلك المقرّ إلى المملوك ونفعه كتب وقال وأطاب وأطال ونهض في خدمة أيامه بما لا ينهض به سواه من أهل المقال والاّ.

كلانا غنىّ عن أخيه حياته * ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا".(١١١)

وكتب الصفدي ردا على رسالته بجواب مفصل بادله فيه عتابا بعتاب واعتذر إليه وقارضه الثناء. وقد لازم حب التحصيل والإفادة الشيخ صلاح الدين، وكان أثر ذلك واضحا في سعة ثقافته وغزارة إنتاجه العلمى والأدبى، ويروى صاحب المنهل الصافى إن الصفدي لما بلغ نيفا وثلاثين سنة " أرسل استجاز الشيخ جمال الدين ابن نباتة وأورد نص استجازة الصفدي وإجازة ابن نباتة له". (١١٢)

وقد كتب صلاح الدين إليه بقصيدتين وذكر أنه سمع من لفظه بعض كتب له كما أنه كتب على قطعة إهداها من شعره يقول الصفدي " ثم إننى سمعت من لفظه "كتاب منتخب الهدية" و"القطر النباتى" وكنت قد كتبت عليه وأنا بالقاهرة.

بحقك لا تقل فيمن تقضى * وفات لقد مضى بالطّيبات

وراح وشعره حلو رقيق * فما يتكلم القطر النباتى.

وسمعت من لفظه " فرايد السلوك " وسمعت من لفطه " المنتخب المنصورى "وسمعت من لفظه "النحلة الأنسية في الرحلة القدسية" وغالب ما أنشأه من النظم والنثر سمعته وكنت قد كتبت بالقاهرة على قطعة إهداها من شعره.

ايا ابن نباتة اهديت شعراً * نصيبى سكّر منه وسكر.

يقوت الغيث عذاً وهو حلو * فشعرك كيف ما حاولت قطر.(١١٣)

وقد بلغت المودة أوجها بين الأستاذ وتلميذه ولكن أصابها التوتر بعض الأحيان حينما اتهمه ابن نباتة بسرقة أشعاره واختلاس كثير من معانيه وأفكاره ونسبتها لنفسه وقد آلمه أن يقع هذا من تلميذه، فألف كتابا يكشف فيه عن سرقات صلاح الدين الصفدي من أشعاره، وأسماه "خبز الشعير".(١١٤)

ومما جاء في مقدمته قوله: بلغني أن بعض أدباء عصرنا، ممن منحته ودى وأنفقت على ذهنه الطالب ما عندى، وأقمته وهو لا يدرى الوزن، مقام من زكاه نقدى، وأودعته ذخائر فكرى فأنفقتها، وأعرته أوراقى العتيقة، فلا والله ما ردها ولا أعتقها، بل إنه غير الثناء بالهجاء والولاء بالجفاء، ونسبني إلى سرقة بيوت الأشعار، مع الغناء عنها والغنى.

فتغاضيت، وقلت هماذ مشاء بنميم وغصة صديق" أتجرّعها ولو كانت من حميم، ولكن وقفت له على تصانيف، وضعها في علم الأدب والعلم عند الله تعالى وشحها بشعره وشعرى المغصوب المنهوب، وما يتضح من جيد تلك الأشعار لمعة إلا من لفظى مشكاتها ولا تتضوع زهرة الاومنى في الحقيقة نباتها فضحكت والله من ذهنه الذاهل وذكرت على زعمه قول القائل:

وفتى يقول الشعر إلا إنه * فيما علمنا يسرق المسروقا.(١١٥)

وقد اشتدت المنافسة، وتحولت إلى جفوة بين الأديبين الكبيرين. فعاتب صلاح الدين الصفدي أستاذه ابن نباتة عتابا مرا، على هذا الادعاء والاتهام ونظم إليه في ذلك قصيدة، ضمنا إعجاز معلقة إمرىء القيس، وأخرج هذه الإعجاز في لباقة وكياسة، من طريقها في المعلقة إلى طريقها في معانيه ومما جاء فيها قوله:

أفي كل يوم منك عتب يسوئني * كجلمود صخر حطه السيل من على

وترمى على طول المدى متجنيا * بسهميك في أعشار قلب مقتل

فأمسى بليل طال جنح ظلامه * على بأنواع الهموم ليبتلى الخ.(١١٦)

وقد رد عليه ابن نباتة عتابا رقيقا في قصيدة من نفس الوزن الروى والتضمين، فقال:

فطمت ولأى ثم أقبلت عاتبا * أفاطم مهلا بعض هذا التدلل.

بروحى ألفاظ تعرض عتبها * تعرض أثناء الوشاح المفصل.

فاحببت ودا كان كالرسم عافيا * بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

تعفى رياح العذر منك رقومة * لما نسجتها من جنوب وشمال الخ.(١١٧)

وكان الاختلاف بينهما بسبب الصنعة الفنية، والتباين في المذهب البديعى، حيث اتجهت عناية ابن نباتة إلى إجادة التورية والتضمين حتي صار بذلك صاحب منهج بديعى جديد، له أنصاره وأتباعه المتعصبون وخالفه الصفدي في ذلك، حيث هام بالجناس وأغرم به، حتى ألف فيه كتابا خاصًا، أسماه " جنان الجناس" فتندر به ابن نباتة وأطلق عليه " جنان الخنّاس" تهكما بصاحبه وزراية بمذهبه، المتمثل في ذلك اللون البديعى، وتابعه في ذلك أنصاره ومؤيدوه، وقد تمادى أنصار ابن نباتة في التحامل على صلاح الدين الصفدي، والتصدى لأدبه ومؤلفاته، فرموه بفساد الذوق الأدبى لمجرد أنه يفضل الجناس ويهتم به، دون بقية ألوان البديع الأخرى، وكان في طابعتهم ابن حجة الحموى، الذي حمل عليه حملة ضارية وتصدي له في صرامه وعنف، مستغلاً معارضة الصفدي لبعض أشعار ابن نباتة، مع أن ابن نباتة هو الآخر كان يسطو على أشعار سابقيه باعتراف ابن حجة الحموى ذاته، حيث يقر بذلك في خزانته فيقول "انتهى ما أوردته من ترجمة الشيخ علاء الدين الوداعى ومن غرائب نكته البديعة في باب التورية وأيدت سمو رتبته بتطفل مثل الشيخ جمال الدين بن نباتة على موائد بدائعه وغرائبه ولكن أقول: إن الجزاء من جنس العمل، كما أغار الشيخ جمال الدين على الوداعى ودخل بيوته وابتذل حجاب بنات فكره، قيض الله له الشيخ صلاح الدين ...الخ.(١١٨)

وهكذايتضح لنا أن السبب الحقيقى لحملة ابن حجة على الصفدي، يتمثل في مخالفته لمذهب ابن نباتة البديعى، حيث اعتبره ابن حجة مذهبا مقدسا، يجب الالتزام به وعدم الخروج عليه من الشعراء والأدباء.

المصادر والمراجع للباب الثالث.

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ٤٣١/٩.

(٢) كنوز الاجداد، محمد كرد على، ٣٧٠/٢، والتاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٥٢/٤

(٣) عصر سلاطين المماليك، محمود رزق سليم، ١١٤/٣.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، ٤٣٢/٩.

(٥) الأعلام، خير الدين الزركلى، ٢٢٦/٥.

(٦) التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٥٢/٤.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية، ٤٣٢/٩.

(٨) طبقات الشافعة، تاج الدين السبكى، ١٠٢/٩.

(٩) كنوز الاجداد، محمد كرد على، ٣٧٢/٢.

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية، ٤٣٢/٩ والتاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٥٢/٤.

(١١) سير اعلام النبلاء، شمس الدين الذهبى، مقدمة ص:٣٦.

(١٢) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ١٦٣/٢.

(١٣) كنوز الاجداد، محمد كرد على، ٣٧١/٢.

(١٤) المصدر السابق، ص: ٣٧٠

(١٥) عصر سلاطين المماليك، محمود رزق سليم، ١١٤/٣.

(١٦) الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلانى، ٤٢٧/٣.

(١٧) عصر سلاطين المماليك، محمود رزق سليم، ١١٥/٣.

(١٨) دائرة المعارف الإسلامية، ٤٣٢/٩.

(١٩) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ١٦٥/٢.

(٢٠) دائرة المعارف الإسلامية، ٤٣٢/٩.

(٢١) تاريخ آداب اللغة العربية ،جرجى زيدان، ٣/٢٠٠.

(٢٢) التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٤/٦٢.

(٢٣) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان، ٣/١٩٩.

(٢٤) المصدر السابق، ص: ٢٠٠.

(٢٥) التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٤/٦١.

(٢٦) المصدر السابق، ص: ٥٩.

(٢٧) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان، ٣/١٩٩.

(٢٨) طبقات الشافعية، تاج الدين السبكى، ٥/٢١٧.

(٢٩) شذرات الذهب، ابن عماد، ٦/٢٠١.

(٣٠) "القيسى" عند ابن حجر، الدرر الكامنة، ١/٣٧٣ والسيوطى، (ذيله ٣٦١) وهو خطأ.

(٣١) البداية والنهاية، ابن كثير، ١٤/٣١.

(٣٢) شذرات الذهب، ابن عماد، ٦/٢٣١.

(٣٣) النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، ١١/١٢٣ والبدر الطالع، الشوكانى، ١/٥٣.

(٣٤) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان، ٣/٢٠٢.

(٣٥) التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسين الذهبى، ١/٢٤٣.

(٣٦) التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٤/٨٣.

(٣٧) تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبى، ٤/٢٩٠.

(٣٨) البداية والنهاية، ابن كثير، ١٤/٣٢، ٤٦.

(٣٩) المصدر السابق، ١٣/٢٤٤.

(٤٠) المصدر السابق، ١٤/٢٠٦.

(٤١) التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٤/٨٣.

(٤٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ١٤/١٥٠.

(٤٣) المصدر السابق، ١٤/٨٨، ٢٠٨

(٤٤) الدرر الكامنة، ابن حجر، ٣٧٣/١، و طبقات،ابن قاضي شهبة، ص: ٤٧٣.

(٤٥) البدر الطالع، الشوكاني، ١٥٣/١ وطبقات، ابن قاضي شهبة، ص: ٤٧٣.

(٤٦) البداية والنهاية، ابن كثير، ١١٨/١٤.

(٤٧) الدرر الكامنة، ابن حجر، ٣٧٣/١، ٣٧٤ وطبقات، ابن قاضي شهبة ص: ٤٧٣.

(٤٨) التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٨٣/٤.

(٤٩) البداية والنهاية، ابن كثير، ١٩٧/١٤.

(٥٠) المصدر السابق، ١٤ :٢٤٨-٢٧٤.

(٥١) المصدر السابق، ص: ١٢٣/١٤.

(٥٢) الدرر الكامنة، ابن حجر، ٣٧٤/١ والبدر الطالع، الشوكاني، ١٥٣/١ وشذرات الذهب، ابن عماد، ٢٣٢/٦ وطبقات، ابن قاضي شهبة، ص: ٤٧٥.

(٥٣)أُنباء العمر بأُبناء الغمر، ابن حجر، ٤٦/١.

(٥٤) النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، ١٢٣/١١.

(٥٥) شذرات الذهب، ابن عماد، ٢٢٢/٦ وطبقات، ابن قاضي شهبة، ص: ٤٧٥.

(٥٦) أُنباء العمر بأُبناء الغمر، ابن حجر، ٤٧/١.

(٥٧) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ٢٠٣/٣.

(٥٨) المصدر السابق، ص:٣٠٣.

(٥٩) ذيل السيوطى، ص: ٣٦١.

(٦٠) البدر الطالع، الشوكانى، ١٥٣/١.

(٦١) مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ١/٤ صفحة ١٦٦ (مايوسنة ١٩٥٨م).

(٦٢) نشرت الترجمة من أُصح المطابع آرام باغ، كراتشى، الباكستان.

(٦٣) الاجتهاد في طلب الجهاد، ابن كثير، ص: ٥.

(٦٤) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان، ٢٠٣/٣.

(٦٥) التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٨٥/٤.

(٦٦) كشف الظنون، حاجى خليفه، ٥٧٣/١.

(٦٧) ذيل الحسينى ٥٨. وتبعه في ذلك الشوكانى، البدر الطالع ١٥٣/١

(٦٨) أنباء العمر بأبناء الغمر، ابن حجر، ٤٧/١.

(٦٩) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان، ٢٠٣/٣.

(٧٠) شذرات الذهب، ابن عماد، ٢٣١/٦.

(٧١)، معجم المؤلفين، عمر رضاكحالة، ٢٨٤/٢.

(٧٢) عمدة التفسير، أحمد محمد شاكر، ٣٥/١.

(٧٣) البداية والنهاية، ابن كثير، ٢٥١/٦.

(٧٤) التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٨٤/٤.

(٧٥) تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبى، ٢٩٠/٤.

(٧٦) مناهج التأليف عند علماء العرب، الدكتور مصطفى الشكعة، ص: ٥٩٠.

(٧٧) تاريخ الأدب العربي، الدكتور شوقي ضيف، ٧٨٨/٦.

(٧٨) مقدمة طبقات الشافعية، تاج الدين السبكى، ص: ٥.

(٧٩) الأعلام، خير الدين الزركلى، ١٨٤/٤.

(٨٠) عصر سلاطين المماليك، محمود رزق سليم، ١٣٩/٤.

(٨١) الدرر الكامنة، ابن حجر، ٢٣٣/٣.

(٨٢) لعله جامع تنكز.

(٨٣) مقدمة طبقات الشافعية، تاج الدين السبكى، ص: ٦.

(٨٤) التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٨١/٤.

(٨٥) المصدر السابق، ص: ٨١.

(٨٦) مقدمة طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، بتحقيق محمود محمد الطناحى وزميله، ص: ٩.

(٨٧) الأعلام، خير الدين الزركلى، ١٨٤/٤.

(٨٨) مقدمة طبقات الشافعية الكبرٰى، تاج الدين السبكي، بتحقيق محمود محمد الطناحى وزميله، ص: ١٠.

(٨٩) المصدر السابق، ص: ٨.

(٩٠) الدرر الكامنة، ابن حجر، ٢٣٤/٣، ٢٣٥.

(٩١) مقدمة طبقات الشافعية الكبرٰى، تاج الدين السبكي، بتحقيق محمود محمد الطناحى وزميله، ص: ١١.

(٩٢) دائرة المعارف الإسلامية، ٢٦٣/١١.

(٩٣) عصر سلاطين المماليك، محمود رزق سليم، ١٤٠/٤.

(٩٤) الدرر الكامنة، ابن حجر، ٢٣٦/٣.

(٩٥) التاريخ العربي والمؤرخون، شاكر مصطفى، ٨٢/٤.

(٩٦) المصدر السابق، ص: ٨٢.

(٩٧) الدرر الكامنة، ابن حجر، (الهامش) ٢٣٥/٣.

(٩٨) معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف سركيس، ص: ١٢١١.

(٩٩) مقدمة طبقات الشافعية الكبرٰى، تاج الدين السبكي، بتحقيق محمود محمد الطناحى وزميله، ص: ١٤.

(١٠٠) طبقات الشافعية، تاج الدين السبكى، ٩٤/٦.

(١٠١) مقدمة طبقات الشافعية الكبرٰى، تاج الدين السبكي، بتحقيق محمود محمد الطناحى وزميله، ص: ٨، ٩.

(١٠٢) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ٣١٦/١.

(١٠٣) المفصل في تاريخ الأدب العربى، أحمد الإسكندرى وزملائه، ص: ٤٢٩.

(١٠٤) تاريخ الأدب العربى، عمر فروخ، ٧٩٥/٣.

(١٠٥) الوسيط في الأدب العربى وتاريخه، أحمد الإسكندرى وزميله، ص: ٣١٥.

(١٠٦) المفصل في تاريخ الأدب العربى، أحمد الإسكندرى وزملائه، ص: ٤٤٣.

(١٠٧) تاريخ الأدب العربى، عمر فروخ، ٣/٧٩٥،٧٩٦.

(١٠٨) المفصل في تاريخ الأدب العربى، أحمد الإسكندرىوزملائه، ص:٤٥٣.

(١٠٩) نقله أحمد الإسكندرى وزملائه في كتابهم المفصل في تاريخ الأدب العربي، ص: ٤٥٥

(١١٠) التاريخ العربي والمؤرخون، شاكر مصلطفى، ٣/٢٢٠.

(١١١) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ١/٣٢٠،٣٢١.

(١١٢) المنهل الصافى، ابن تغرى بردى، ٢/٦٦.

(١١٣) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ١/٢١٩،٢٢٠.

(١١٤) خزانة الأدب، ابن حجة الحموى، ص:٣٤٦،٣٤٧ـ(وابن حجة هو أبو بكر علي ابن حجة الحموى، كاتب وناقد كبير ولد في حماة عام ٧٦٧هـ وجد في طلب العلم وتحصيله حتى صار من كبار الأدباء والنقاد في عصره).

(١١٥) المصدر السابق، ص:١٩.

(١١٦) عصر سلاطين المماليك، محمود رزق سليم،٨/٢٦٥، ٢٦٦.

(١١٧) المصدر السابق، ص:٢٦٦.

(١١٨) خزانة الأدب ، ابن حجة الحموى، ص: ٣٤٦،٣٤٧.

الباب الرابع.

مساهمة صلاح الدين الصفدي في الآداب العربية.

الباب الرابع.

مساهمة صلاح الدين الصفدي في الآداب العربية :

قد اتضح خلال دراستنا وتحليلاتنا لعصر المماليك وجميع نواحى حياته وبيئته وأدبائه وكتابه وشعرائه ومؤرخيه أن صلاح الدين الصفدي الذي هو كوكب من كواكب هذا العصر كان من الائمة المصنفين وألمع المؤرخين العرب فهو احتل مكانة عالية في شعراء عصره وسبق كتاب زمانه وأحرز قصبات السبق في مضمار النقد والتاريخ. وقد أشار الكثير من معاصريه بما حظى من مكانة مرموقة بين أقرانه فهذا أستاذه ابن سيد الناس يثنى عليه ويبدى إعجابه بشعره وما يتميز به من جودة وعذوبة فيقول " وشعره رقيق، سهل التركيب، منسجم الألفاظ، عذب النظم، ترسله جيد، وكان النظم عليه بلا كلفة، يكاد لا يتكلم إلا بالوزن".(١) كما شهد له أيضا بذلك صديقه الحميم تاج الدين السبكى إذ يقول " الإمام الأديب الناظم الناثر أديب عصره برع في الأدب نظما ونثرًا وكتابة وجمعا".(٢) ووصفه ابن تغرى بردى في أكثر كتبه التي أرّخ بها لهذا العصر فقال في نجومه " الإمام البارع المفتنّ، الشاعر المشهور، وكان إماماً بارعاً، ناظماً ناثراً شاعرًا، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين.(٣) ويقول في المنهل الصافى " وشعر الهيثم صلاح الدين كثير، وفضله غزير، وهو شاعر مجيد".(٤)

وشهد لتفوقه ويثنى على مهارته أستاذه ومعاصره حافظ شمس الدين الذهبى في معجمه المختص ونقل عنه الدكتور حسن ذكرى حسن "كان إماماً عالماً. صادقاً، ماهراً رأسا في صناعة الإنشاء، قدوة في فن الأدب، كتب وصنف التصانيف الكثيرة وله نظم رائق، ونثر فائق".(٥)

ولم يقتصر المعجبون بأدبه في أقرانه وزملائه فحسب، بل الكثيرون من غيرهم قد أغرموا بأسلوبه وأعجبوا بأدبه ونقده وبراعته في كتابة التاريخ، فإنه قد تمتع بمنزلة رفيعة وحظى بمكانة أدبية مرموقة، حيث كان له نشاط ملحوظ في ميدان الدراسات الأدبية والنقدية وترك عدة مؤلفات أدبية قيمة. كأمثال 'الغيث المسجم في شرح لا مية العجم' و'نصرة الثائر على المثل السائر' و'تمام المتون لشرح رسالة ابن زيدون' وغيرها من المؤلفات التي يبلغ عددها إلى أكثر من ما ئتى مؤلف.

فقد تنوعت الجوانب العلمية والأدبية لشخصية هذا الرجل فهو عالم أديب وناقد أدبى كبير حملت مصنفاته كما تضمنت كتبه العديد من الارآء والنظرات النقدية المهمة التي تحدد مذهبه الأدبى كما تكشف عن مكانته بين أدباء ونقاد عصره. فشخصيته جديرة أن تدرس جميع جوانبها وأن يستعرض اتجاهات براعتها وتفوقها في كل فن من الفنون. فإسهاما لأداء هذه المسئولية ندرسه كأديب، وشاعر، وكاتب، وناقد، ومؤرخ.

لقد اتضح بعد مراجعة المصادر المعتمدة أن الصلاح الدين الصفدي دخل في مجال الأدب من بابيه، النظم والنثر وأجاد في كليهما. فكما أنه شاعر مجيد دخل بأشعاره الرائقة في زمرة الشعراء المشهورين في عصره. صعد ذروة كتابة النثر الأدبى فعد من فحول الكتاب في زمانه. فنحن هنا نقف أولا عند براعته في عالم الكتابة.

الفصل الأول:

صلاح الدين الصفدي كاتباً:

يعتبر صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك الصفدي أعظم كتاب التراجم في الأدب العربى بلا منازع. كما أنه كان شاعراً مجيداً ومؤرخاً قديراً. كان أديبا مفتنا وصاحب أسلوب رائع رائق، فهو مكثار في نثره وشعره وتاريخه، لا يرضى في عمله الأدبى بالموجز المقنع أو القليل النافع ولم يعمل قط بتلك الحكمة التى تقول "خير الكلام ما قل ودلّ" وكأنما كان يشعر أن ليس وراء الإيجاز إعجاز، ولا رغب الإقتصاب إعجاب، وإن المقل إما أن يبقى شيئا في ضميره أو يعبر عن عجزه وتقصيره لأجل هذا زادت مؤلفاته على المأتين وإن كان ما وصل إلينا لم يجاوز ثلاث وستين في صورة مطبوعة أو مخطوطة. عرض في العديد منها بمختلف الموضوعات الأدبية والنقدية، وقد أفتن في الكتابة والتأليف حتى صار من المكثرين في هذا المجال، فقال فيه الذهبى " الأديب البارع الكاتب وشارك في الفنون، وتقدم في الإنشاء وجمع وصنف وقال أيضا وساد في علم الرسائل".(٦)

ويلوح لمن يخوض في بحر نثره الأدبى أن الصناعة البديعة صفة بارزة فيه فإنه كمااستمحلها في العديد من أشعاره التزمها ما في أسلوب نثره وبخاصة في نثره الإنشائ حيث كان يرى أن الصناعة موطنها ومجالها، ولكنه كان يفرق بين ما كان يكتب في رسائله الإنشائية ومقامته الأدبية بين ما يكتب في كتبه ومؤلفاته التي يعرض فيها لقضاء الأدب والنقد، إذاً كان الصفدي يلتزم في نثره كما رأيناه في شعره طريقتين ألزم نفسه في إحدٰهما بالأسلوب المرسل التي تحرر فيه من قيود صناعة البديع التي عرفت في عصره والتي كان يلتزمه كتاب زمانه وهذا الأسلوب التزمه في معظم كتبه الأدبية والنقدية، والعديد من مؤلفاته التي ترجم فيها لمشاهير الأعلام وناقش فيها كثيرا من المشاكل والقضايا الأدبية، وبعض المسائل العلمية فجاء أسلوبه فيها متحرراً من أثقال الصنعة ومال فيه إلى الترسل، حيث تغلب عليه ملاحظة المعانى والاهتمام بالأفكار والموضوعات ويقل فيه الاعتماد على الأسجاع والمحسنات البديعية. اللهم الاما استدعاه المقام ورضيته السليقة فجاء عفو الخاطردون تكلف أو افتعال. كما يشاهد في كتابه الشهير 'الوا في بالوفيات' فأكثر عباراته خالية عن التصنع والإفتعال' فإنه ذكر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم في بيان سيرته بهذا الأسلوب " تزوج خديجة بنت خويلد قبل البعثة وقد مر ذكرها، ثم تزوج سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى وكبرت عنده فأراد طلاقها فوهبت يومها لعايشة وقالت لا حاجة لى في الرجال وانما أريد أن احشر في زوجاتك وانفردت به صلى الله عليه وسلم ما بين وفاة خديجة إلى أن دخل بعائشة رضى الله عنها، ثم تزوج عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما تزوجها بمكة قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلث وهى بنت ست أو سبع وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة وتوفيت سنة ثمان وخمسين وقيل غير ذلك ولم يتزوج بكرا غيرها، ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما روى أنه طلقها فنزل جبريل فقال إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوامة قوامة وفي خبر قال رحمة لعمر، وتزوج أم حبيبة رملة بنت أبى سفيٰن أخت معوية رضى الله عنهما وهي بالحبشة فأصدقها النجاشى أربعماية دينار وولى نكاحها عثمان بن عفان ولم يصح وقيل خالد بن سعيد بن العاص وتوفيت سنة أربع وأربعين وتزوج أم سلمة هند

ابنة أبى أمية بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم وماتت سنة اثنتين وستين وهى آخر هن موتا وقيل ميمونة، وتزوج زينب بنت جحش بن رياب بن يعمر بن صبرة بن مرّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة وهي ابنة عمته اممة توفيت بالمدينة سنة عشرين وهي أولهن وفاة وأول من حمل على نعش وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة فطلقها فزوجها الله إياه من السماء ولم يعقد عليها، قال الحافظ عبد الغنى وصح أنها كانت تقول لأزواجه زوجكن آباؤكن وزوّجني الله من فوق سبع سموات، وتزوج جويرية بنت الحرث بن أبى ضرار بن الحرث بن عايذ بن ملك بن المصطلق سبيت في غزوة بني المصطلق فوقعت لثابت بن قيس بن شماس فكاتبها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها وكانت امرأة ملاحة فقال لها رسولالله صلى الله عليه وسلم أو خير من ذلك اؤدّى عنك كتابتك واتزوّجك فقبلت فقضى عنها وتزوّجها وأطلق من أجلها جميع أسراء بنى المصطلق وتوفيت سنة ست وخمسين".(٧)

فالباحث وكل من له صلة يسيرة بصناعة البدعية إذا ألقى نظره على هذه العبارة يستنتج بأن المصنف لم يتصنع في بيان ما أراد إيضاحه ولم يستعمل فيها أية صناعة من الصناعة البدعية تكلفا وإفتعالاً، بل سرد عبارة ساذجة غير مثقولة ولا مصنوعة مقصودة.

وأما الطريق الأُخر وهو الأسلوب المصنوع. فقد مال إليه الصفدي بشتى ألوان الصناعة ومختلف ألوان المحسنات فلا تفوته فيه سجعة واحدة وأخذ فيه الصفدي طريقة القاضى الفاضل وعد أكثر هذا الأسلوب بشكل خاص في مقدمة كتبه ومؤلفاته المختلفة كما يتضح كذلك في رسائله الإنشائية ومقامته الأدبية. كما يقول في مقدمة كتابه "جنان الجناس في علم البديع" الحمد لله الذي رفع في فن البديع جناب جناسه. وملك من شآء من البشر قياد قياسه. وأعلى مقداره للأديب إلى أن قاس المسك إلاذفر بأنفاسه، وحرك البليغ في الإنشاء لأن جاس خلاله الطاهرة من أنجاسه. وفتح على فرسان النظم والنثر بالانفال من أنفاسه. ووهب لمن شاء السبق إلى البلاغة على أفراد أفراسه. ونصر كتائب الفصاحة بأجناد أجناسه. وبعث إلى النفوس اللطيفة أطراب أطراسه. نحمده على ما خص به من اللغة التي لا يزال جلالها وجمالها يروع ويروق. واتحف به من الآداب التي لا تبرح رياضها وحياضها تفوح وتفوق. وفتح به من الألفاظ التي تسوم البلاغة وتسوق. ومنح من

المعانى التي تعوج عن الفهاهة وتعوق. حمدا يذوب حلاوة لمن يذوق. ويشوب بالطرب سمع من يشوق. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نعوذ بامانها من الحالة الخاسئة والكرة الخاسره، ونجدها يوم القيامة سترا من العيوب البادية والفرطات البادرة. وتنال بها في ذلك اليوم المآرب القاصية وتنصر الحجة القاصرة.

ونبعث بها اليقظة إلى العيون الساهية عن آفات الساهرة. ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفصح من رقم في الطروس خط خطابه وأبلغ من أمطرت الأسماع صوب صوابه".(٨)

فقد التزم في هذه المقدمة أشياء كثيرة من الصناعة البدعية ما لم تمس الحاجة إليه. فإنه قد التزم فيه على القوافى و براعة الإستهلال وصناعة الجناس المتكلفة التي لا يخفى على من نقد الأشياء بعين المعقول وانعم النظر في مبانى الأصول. وكذلك فعل في الرسائل الآتية.

وهكذا نجد الصفدي يفعل في أكثر مقدمات كتبه يكثر الأسلوب المسجوع الملئ بالمحسنات البدعية ثم إذا يبدأ موضوعات الكتب التي ألف الكتاب لأجلها يتحول إلى أسلوب آخر، أسلوب يمتاز بثلاثته وحلاوة العبارة وغذوبة اللفظ متحررا من القيود اللفظية والمحسنات البديعية. إلا ما اقتضته الحال دون تكلف وتصنوع كما نرى في كتابه " نصرة الثائر على المثل السائر" حيث يقول في مقدمته" الحمد لله الذي فطر عقول البشر متغايرة. وجعل النفوس برأيها على نقطة الرضى دائرة. وزين لها أعمالها حتى توهمت أنها في الأمثال سائرة. أحمده على نعمه التي أوضحت ما أبهم وألبس وأبدت نار المهدى التي لم تكن بسوى أنامل الذوق تقبس، وراضت جواد الانتقاد الذى أم غاية لم يثن عنانة ولم يحبس ...الخ.(٩) ثم ينتقل من التقديم إلى موضوعات الكتاب الأساسية فيقول: "قال ابن الأثير. سامحه الله تعالى نسأل الله أن يبلغ بنا من الحمد ما هو أهله.. الخ أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل كلام لا يبدأ فيه بحمد لله فهو أجذم" فلو قال: الحمد لله لكان أفضل وربما عيب ذلك على الزمخشرى في أول المفصل كونه قال: الله أحمد وعلى الحريرى كونه قال: اللهم إنا نحمدك، لأنهما ما افتتحا كلامهما بالحمد والأولى الأخذ بما جاء عن الله تعالى، فإنه لا مقام للعبد أشرف من الصلاة، لأنها عبادة حتى قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد" والفاتحة هي أم الكتاب...الخ.(١٠)

واتخذ نفس الأسلوب في بقية كتبه من أمثال كتابه 'تمام المتون' وكتاب 'الغيث المسجم في شرح لامية العجم' و'الوافى بالوفيات' و'لوعة الشاكى ودمعة الباكى' وغيرها من بقية كتبه.

ونرى هذا الأسلوب المصنوع في رسائله الإنشائية وهذه إحدى رسائله كتبها ردا على رسالة ابن نباتة المصرى وقد بادله عتابا بعتاب واعتذر إليه وقارضه الثناء قال من ذلك "وينهى ورود المثال العالى، والفضل الذى نصب لى لواء الفخر لو أنه كما أعهده متوالى والبر الذي كم تمسكت بحباله فأرسل الحبالى،والروض الذي هو لابن الشجرى نهاية الأمانى في الأمالى، والأزاهر التي أصبحت من جناة جناتها فلا بدع إذا كنت لنا رعتبها اليوم صالى.

إذا لم يخن صب ففيم عتاب * وإن لم يكن ذنب فمم يتاب

أجل ما لنا إلا هو اكم جناية * فهل عند كم غير الصدود عقاب.

فوقف الملوك عليه، بعد أن تمثل واقفا لديه، شاهد ذلك اللفظ الرقيق المشتمل على العتب الفظ وتحقق أنّ هذا من جزئيّات ما ساق إليه القسم وحضّ عليه الحظ.

وغايتى أن ألوم حظّى * وحظّى الحائط القصير.

ولقد علم المملوك عند رؤيته أنه غمامة تقعقع بالعتب رعدهاعند الفض ورسول جاء بعد فترة يدعو القلب إلى الكسر والطرف إلى الغضّ. وخصم يروع بالعتب ويروق باللطف وكذا جرى لأنّ الرّوع تعجّل نقده في النضّ.

هذا عتابك إلا انه مقة * قد ضمّن الدرّ إلاّ أنه كلم.

فياله من عتاب ماحاك العتّابى منه لقطة لفظة، ولا رقا إلى رقّته عتاب جرى بين الزمان وجحظة، ولا استحضر مهديه عند تسطيره من القرآن الكريم "وليجدوا فيكم غلظة".

وأطيب أيام الهوى يومك الذى * تروّع بالهجران فيه وبالعتب

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضىّ * فأين حلاوات الرسايل والكتب.(١١)

ونفس هذا الأسلوب نراه بارزًا في مقامته الأدبية حيث التجأ فيها إلى شتى ألوان البديع والمحسنات اللفظية والمعنوية لاسيما صناعة الجناس والطباق والتورية والاستخدام والاقتباس والتشبيه كما فعل في "رشف الرحيق في وصف الحريق " فقال فقرات من هذه المقامة يصف بها الحريق ساد دمشق "فسألت عن الخبر ممن غبر. فقال: إن الحريق وقع قريبا من الجامع وانظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع. فبادرت إلى صحنه، والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذئبة بتلك النار كما يذوب الشحم ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام معصفرات ذوائبها، وصعدت إلى السماء عذبات ذوائبها.

ذوائب لجت في علو كأنما * تحاول ناراً عند بعض الكواكب.

وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي "ترمى بشرر كالقصر" فكم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية، وكم نفس كانت في النازعات وهى تتلو "هل أتاك حديث الغاشية "ولم تزل النار تأكل ما يليها، وتفنى مايسفلها ويعتليها. إلى أن ارتفعت إلى المنارة الشرقية. ولعبت ألسنتها المسودة في أغراض أخشابها النقية وثارت إليها من الأرض لأخذ النار. وأصبح صخرها كما قالت الخنساء، كأنه علم في رأسه نار. فنكست وكانت للتوحيد سبابة ولمعبدها المطرب شبابة. وابتلى رأسها من الهدم والنار بشقيقة. وأدار الحريق على دائرها رحيقة.

وبالأرض من حبها صفرة * فما تنبت الأرض إلا بهارا

وأصبح " باب الساعات" وهو من آيات الساعة. وخلت مصاطب الشهود من ألسنة والجماعة. وعادت الدهشة وقد آل أمرها إلى الوحشة. وحسنها البديع وقد ثلت النار عرشه. كأن لم أربها سميرا. ولا شاهدت من بنائها وقماشها جنة وحريرا.(١٢)

ففي هذه الفقرات المسجوعة أظهر صلاح الدين الصفدي تفوقه وبراعته في البديع والتجأ إلى شتى ألوانها منها الجناس مثل: أدار الحريق رحيقه وباب الساعات من آيات الساعة.

والتورية مثل: جاثية والغاشية وسبابة وسقيقة وآيات الساعة والجماعة.

وفي الكلمتين جاثية وغاشية ودخان توجيه.

والاقتباس مثل: ترمى بشرر كالقصر وهل أتك حديث الغاشية وجنة وحريرا.

والتشبيه مثل: عقائق اللهب والناس قطعة لحم وحداد الظلام.

الفصل الثاني:

الصفدي شاعراً:

ومن الفنون التي برع فيهاصلاح الدين الصفدي فن الشعر حتى عده كثير من الكتاب والنقاد والمتقدمين والمحدثين من كبار شعراء عصره. ولم تكن مساهمته في هذا الميدان ضئيلة فقد استكثر زملائه المعاصرون أشعاره واشادوا مساهمته في قرض الشعر وانشاده، فهذا صديقه تاج الدين السبكى يشهد لمساهمته في الشعر حيث يقول " الإمام الأديب، الناظم الناثر أديب عصره، برع في الأدب نظمًا ونثراً، وكتابة وجمعاً".(١٣) ويذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى عن شعر صلاح الدين الصفدي شيئا كثيرا، إذ يقول شعر الشيخ صلاح الدين الصفدي المذكور كثير، وفضله غزير، وهو شاعر مجيد على أن جيده يجيد على رديئه. ولو لا أنه كان ضنينا بنفسه راضيا بشعره لكان يندر له الردىء ويكثر منه الجيد، فإنه كان غواصا على المعانى مبتكرًا للنكت البديعة، عارفا بفنون الأدب، ولكن رأيت من نظمه بخطه عندما يعارض من تقدمه من مجيدى الشعراء في معنى من المعانى اللطيفة. فيأخذ ذلك المعني أو النكتة فينظمها في بيتين ويجيد فيهما بحسب الحال. ثم ينظم أيضا في ذلك المعني وهو يقول: قلت ...وقلت.. وقلت... أنا...إلى أن يمله النظر وتسأمه النفس يمجه السمع، فلو ترك ذلك وتحرى في قريضه لكان من الشعراء المجيدين لمايظهر لى من قوة شعره وحسن اختراعه.(١٤)

ويتضح للباحث أن الصلاح الصفدي يميل في شعره المقطعى إلى العناية بالصناعة والإهتمام بالبديع ويذكر على الجناس بشكل خاص ولأجل شدة شغفه بالجناس قد ألف كتابا مستقلا في هذا الموضوع أسماه " جنان الجناس في علم البديع" حاول فيه أن يرفع من قدره. ويعلى من شأنه وشأن البديع بشكل عام. فهو يقول في مقدمته: وبعد: فلما كان فن البديع في الزمن المتأخر أحسن بدعة. وأوضح لمعة. وأملح طلعة، وأكثر رواية وسعة، ولا أقول ريآء وسمعة، به تبنى بيوت الشعر في أشرف بقعة. وتبرز أبكار الإفكار منه في خلعة بعد خلعة. وإذا كان الشعر بحراً

فهو منه أعذب جرعة. والمكاتبات حلة مرقومة فهو طراز كل رقعة. خصوصا نوع التجنيس الذي هو ركن شريعته وبيان شرعته. وديباجة صنعآئه في صنعته. وآية سجدته وغاية سجعته وغياث نجدته وعيث نجعته. تشهد الخطباء له بفضل جماعته وجمعته، وتعترف الشعرآء يرفع محله ومحل رفعته، وتدخل به الألفاظ الفصيحة الإذن بغير إذن لشفاعة حقه وحق شفعته. فله في كل خلوة جلوة وفي كل خطوة خطوة. إن دخل في خطبة توجها أو قصيدة ديجها. أو شبهة روجها. أو وضع في الطروس نمقها أو نسخ كلمة جاء بخير منها وحققها. فهو في البديع خال خده وطراز برده. وفص خاتمة وجود حاتمه. وسجع حمامه. وسح غمامة وزهر كمامة وقرتمامة. متى عد في القصيدة بيت كان الجناس طرازة. ومتى طاف بالبلاغة متكلم كانت أركانه كعبة وحجابة حجازه ومتى كان للسحر الحلال باب كان في الحقيقة إليه مجازه ... إلى أن قال أحببت أن أصنع فيه ما يشفى الغلة، وينفى العلة، ويوضح سبل الشواهد بالأدلة...(١٥)

وكتابه هذا يشتمل كثيرًا من الأشعار في شتى أبوابها وموضوعاتها حتى صارديوانا لجناس الصفدي، تتكيف هذه الأشعار بصفات ونعوت متنوعة بعضها رقيقة جيدة وبعضها كثيرة التكلف واضحة الثقل وما إلى ذلك.

ولم يكتف صلاح الدين الصفدي بهذا الكتاب لإظهار حبه وشغفه بالصناعة البديعة. بل إنه صنف كتابا أخر بإسم 'فض الختام عن التورية والاستخدام' ويعتبر هذا الكتاب أيضا ديوانا شعريا مستقلا له. يقول في مقدمة هذا الكتاب "وإذا كان الشعر له هذه المزايا، وفي زواياه نفائس الذخائر. وتحف الحنايا. وتعين أن تصرف الهمم إلى تحصيله، وأن يلبس الأديب منه حلة لا جمال تكون في الجملة على تفضيله. وكلما علت في البديع صناعته، علت في البضائع فصاحته. كلما أدخل ذلك في غصونه جنت الألباب ثم غصونه".(١٦)

أعقب هذه المقدمة بسلسلة من الأشعار نظمها في هذا اللون من ألوان البديع فهذا الالحاج الواضح في إطراء البديع والترويج لبعض ألوانه يدل على ما ادعيناه من شغف الصفدي بصناعة البديع. نعم، إنه لم يخرج بها إلى حد التصنع الذي يفسد المعنى ويخل في الفصاحة ومما يلاحظ هنا أن الصلاح الصفدي إنما كان يكثر رعاية الصناعة البديعة في المقطعات الموضوعة فإنه يقول معرض

حديثه عن شعر الطغرائى " وله مقاطيع شعر في الصنعة، وله ديوان شعر على عادة الشعراء".(١٧) فهو لا يرضاها إلا في المقاطيع حيث يبحث الشاعر من خلالها عن المتعة الآتية وليست هى كل شئ في أدبه.

أما عامة أشعاره صورة واضحة لحياته بكل طموحاتها وأحداثها ومشاعرها وأفكارها. فلم يرد فيه الصناعة البدعية إلا بقدر وحينما مست الحاجة إليها. فلم يلتزم الصفدي البديعة والصناعة إلا في شعره المقطيعى. وبخاصة التي أعقب بها الحديث عن الجناس والتورية والاستخدام وما استشهد بها في العديد من موضوعات كتبه. حيث ساق هذه المقطعات محاولة منه لإظهار مهارته في الصنعة والقدر على إيرادها في أى وقت وكيفما شاء.

وكل ما نظم من الأشعار سواء أكان الذي يتعلق بالصنعة البديعة أو هو من أشعار عامة يدل على ثقافته الشعرية الواسعة حتى أنه خلف ديوانا شعريا كبيرًا. ولكنه فقد كما فقد غيره من دواوين الشعراء والعديد من المؤلفات والمصنفات، علاوة ذلك أن له أشعارًا كثيرة أخرى مبثوثة بين صفحات كتبه المختلفة. لا سيما كتابيه 'جنان الجناس في العلم البديع' و'فض الختام عن التورية والاستخدام' حيث يعتبر ما جاء في كل واحد منهما ديوانا شعريا مستقلا كما أسلفناه.

ولم يكتف الصفدي بشرحه على لامية الطغرائ باسم 'الغيث المسجم في شرح لامية العجم' بل إنه نظم في اللامية أشعاراً جيدة ودخل بها في زمرة شعراء اللامية القليلين وهذه لاميته:

الجد في الجد والحرمان في الكسل * فانصب تصيب عن قريب غاية الأمل.
وأصبر على كل ما يأتى الزمان به * صبر الحسام بكف الدارع البطل.
وجانب الحرص والأطماع تخط بما * ترجو من العز والتاييد في عجل.
ولا تكون على مافات ذاحزن * ولا تظل بما أوتيت ذاجذل.
واستشعر الحلم في كل الأمور ولا * تسرع ببادرة يوماً إلى رجل.
وإن بليت بشخص لاخلق له * فكن كانك لم تسمع ولم يقل.
ولا تمار سفيها في محاورة * ولا حليما لكى تنجو من الزلل.
ولا يغرنك من يبدى بشاشته * إليك خدعا فان السّم في العسل.

وإن أردت نجاحا أو بلوغ منى * فاكتم أمورك عن حاف ومنتعل.
إن الفتى من بماضى الحزم متصف * وما نقص القول والعمل.
ولا يقم بأرض طاب مسكنها * حتى يقد أديم السهل والجبل.
ولا يضيع ساعات الزمان فلن * يعود مافات من أيامه الأول.
ولا يراقب إلا من يراقبه * ولا يحاصب إلا كل ذي نبل.
ولا يعد عيوبا في الورى أبدًا * بل يعتنى بالذي فيه من الخلل.
ولا يظن بهم سوءاً ولا حسنا * بل التجارب تهديه على مهل.
ولا يؤمّل آمالاً بصبح غد * إلا على وجل من وثبة الأجل.
ولا يصد عن التقوى بصيرته * لإنها للمعالى أوضح السبل.
فمن تكن حلل التقوى ملاسه * لم يخس في دهره يوما من العطل.
من لم يصن عرضه مما يدنسه * عار وإن كان مغمورا من الحلل.
من لم تفده صروف الدهر تجربة * فيما يحاول فليرعى مع الهمل.
من سالمته الليالى فليثق عجلا * منها بحرب عدو جاء بالحيل.
من ضيّع الحزم لم يظفر بحاجته * ومن رمى بسهام العجب لم ينل.
من جاد ساد وأحيا العالمون له * بديع حمد بمدح الفعل متصل.
من رام نيل العلى بالمال يجمعه * من غير جود بلى من جهله وبلى.
من لم يصن نفسه ساءت خليقته * بكل طبع لئيم غير منتقل.
من جالس الغاغة النوكى جنى ندما * لنفسه ورمى بالحادث الجلل.
فخذ مقال خبير قد حوى حكما * إذ صغتها بعد طول الخبر في عمل.(١٨)

والقصيدة تتضمن حكما رائعة ومعانى جليلة والصنعة فيها غير متعملة. جاءت حيث يستدعيها المقام. فلا تكلف فيها ولا ثقل وهذا عكس ما تعمده الصفدي من أساليب الصنعة التي جاءت في مقطعاته المختلفة واضحة جلية وحاول أن يعرض فيها قدراته البديعة ويتفنن في استعمالها ولا كثار منها. ليواكب حركة الشعر في عصره بشكل عام.

ونورد هنا نماذج بعض أشعاره التي نظمها في الصناعة البديعة فيقول في حرف الهمزة:

لوحف منك الغرام جفاء * ما عز فيك على المحب عزاء.

يا خاليا من لوعة الصبا الذي * تحشى بجمر غرامة الأحشاء.

الله أكبر لم بسمت وكم بكى *فتلاقت الأنوار والأنواء.

لولا ولاء الصب فيك وتارة * مابات يخفق للبروق لواء

كلا ولا سح السحاب وطاف في * خلل الحدائق ديمة طفاء.(١٩)

ويقول في حرف الباء:

تعشقته حلو المراشف ان صبا * إليه فؤادى يصبح الدمع في صبب.

له قامة الغصن النضير إذا خطا * وألفاظه السحر الحلال إذا خطب.

ولفتته تحكى الغزال إذا عطا * وكم بين جفنيه إذا مارنا عطب.

غدا فاطرا قلبى وعقلى قدسبا * وليس لهجرى في محبته سبب.(٢٠)

ويقول في حرف التاء:

حوى الفضائل من سيف ومن قلم *فليس عند الورى الافضالات.

له محاريب حرب كلما ركعت * سيوفه سجدت إذ ذاك هامات.

فالأرض طرس وغى والخيل أسطره * والسمهرى ألف والسلام لامات.

أن أظلم الجو من جون العجاج فمن * خرصان ذبله فيه ذبالات.

وإن أتاك بنقل فالبحور طمت * ويعضد الرأى ما تهدى الروايات.

من معشر قدسها طرف السهى ولهم * عليه من مجدهم ترخى الذؤابات.(٢١)

ويقول في حرف اللام:

للمرء في الدهر إغفاء وإغفال * عما يراد وأهواء وأهوال.

أليس يدرى بنو الدنيا وزخرفها * بأنه مامع الإبطاء أبطال.

وإن طالبهم بالموت يدركهم * وليس مع كثرة الإمهال إهمال.

والكاتبان على فعل الخلائق لم * يلحقهما في مدى الأملاء إملال.

رزق يضيق وفعل عند كاتبه * يحصى فذلك سجان سجال.

وعيشه ما صفت الاوكدرها * من حادث الدهر أو جاع وأوجال.

والمرء بعد الفضا يفضى إلى جدث * ذنوبه فيه إعلال وأغلال.

لعله وعساه أن يكون له * من ربه بعد ذا الافضاء أفضال.(٢٢)

ومما ذكره له ابن تغرى بردى في كتابيه النجوم الزاهرة والمنهل الصافى من المقطعات، قوله:

بسهم أجفانه رمانى * وذبت من هجره وبينه.

إن مت مالى سواه خصم * لأنه قاتلى بعينه.(٢٣)

وقوله:

المقلة السوداء أجفانها * ترشق في وسط فؤادى نبال.

وتقطع الطرق على شلوتى * حتى حسبنا في السويد ارجال.(٢٤)

وقوله:

سألتم عن منام عينى * وقد براه جفاً وبين.

والنوم قد غاب حين غبتم * ولم يقع لى عليه عين.(٢٥)

وقوله:

أنفقت كنز مدائحى في ثغره * وجمعت فيه كل معنى شارد.

وطلبت من جراء ذلك قبلةً * فأبى وراح تغزّلى في البارد.(٢٦)

ولكن الشئ الذي يعيبه عليه ويعترض على وقوعه منه معارضته لغيره من الشعراء ويرى أنه لو ترك ذلك الطريق وحاول الاعتماد على شاعريته وحدها لكفته، ولكان من الشعراء المجيدين، لأنه يمتلك من وسائل التفوق، وأدوات الإبداع الكثير فيقول "ولكن رأيت من نظمه بخطه عنه، ما يعارض به من تقدمه من مجيدى الشعراء في معني من المعانى اللطيفة، فيأخذ ذلك المعني أو النكتة فينظمها في بيتين آخرين ثم بيتين ولا يزال ينظم ذلك المعني ويقول: وقلت أنا إلى أن يمله النظر وتسأمه النفس ويمله السمع، فلو ترك ذلك وتجرى في قريضه لكان من الشعراء المجيدين، لما يظهر من قوة شعره وحسن اختراعه".(٢٧)

وقد أشار إلى ذلك أيضاً، صاحب البدر الطالع وعاب عليه تعلقه بالبديع وكثرة إيراده له فيقول: ونظمه مشهور، قد أودع منه في شرح لامية العجم وغيرها، ما يعرف به مقداره، ولكثرة ملاحظاته للمعانى البديعية، صار الغث من شعره كثيرا، وينضم إلى ذلك ما يطريه من المبالغة في حسنه، فيزداد ثقلا، وقد يأتى له ما هو من الحسن بمكان".(٢٨) كما شهر عن الصفدي تعلقه بالمعارضات الشعرية وشدة هيامه بها، فعارض العديد من الشعراء، سواء أكانوا معاصرين له أم من القدماء، وبخاصة أشعار ابن نباتة المصرى وأسرف في ذلك، حتى اتهم باختلاس معانيه، ونسبتها لنفسه وقد جلبت له تلك الهواية الشعرية العديد من الانتقادات التي بالغت في التحامل عليه وغالت في الحظ من شعره وشاعريته، فيقول صاحب البدر الطالع في ذلك: "وكان يختلس معانى شعر شيخه ابن نابته وينظمها لنفسه".(٢٩)

وقد اتهمه ابن حجة من قبل بسرقة معانى الشعراء وأورد جملة من المعانى التي أخذها الصفدي عن ابن نباتة تأكيدا لدعوته ضده، وتبريرا لتهجمه عليه.(٣٠)

كان صلاح الصفدي محبا لشيخه ابن نباته ومعجبا بأدبه وشعره فقلده، وعارض العديد من قصائده ومقطعاته، وهذا لا يمنع من أنه كانت تقوم بينهما بعض الأمور والمسائل، وتقع بينهما المنافسات والمعاتبات، فيتبادلان الاتهامات، حتى أن ابن نباتة غضب منه لاعتقاده بأنه يسطو على بعض أشعاره، وألف في لومه كتابا أسماه "خبز الشعير" ليشير إلى أن ما يقوم به الصفدي من سرقة لمعانيه وسطو وإغارة على أشعاره مذموم مذمة خبز الشعير وأكله.

لقد أغرم الصفدي بمعارضة أستاذه، وهام باحتذائه والنسج على منواله، مما عرضه لحملة عنيفة من النقد والاتهامات، قادها أنصار ابن نباتة و في طليعتهم ابن حجة الحموي، فاتهموه بالسرقة والاختلاس لأشعار ابن نباتة والسطو على معانيه وأفكاره.

الفصل الثالث:

صلاح الدين الصفدي ناقداً:

الأديب لا يكون أديباً إلا أن يكون ناقدًا يميز أحسن الكلام من اردئها. فلم يتخلف أديبنا صلاح الدين الصفدي عن مساهمته في النقد الأدبى، إنه كان من مشاهير نقاد القرن الثامن الهجرى. وقد ترك في هذا المجال عدة مؤلفات وآراء وتعليقات فكان ناقداً ذوّاقة تمتع بموهبة نقدية. وشارك في التصنيف النقدى تطبيقا لا تنظيرًا وطرق أبوابا النقد في عدة مجالات منها اللفظ والمعنى والسرقات الأدبية والمعارضات وحل المنظوم، فله في هذه الإتجاهات آراء نقدية:

اللفظ والمعني:

تناول الصفدي في نقده الكلمة والتركيب من حيث الشكل والمعني ولكنه كان يهتم باللفظ باديا لأنه في رأيه قالب للمعنى وقائم على خدمته. فإنه لا يفتأ في كل مناسبة يذكر المعني مشفوعا باللفظ من ذلك أنه عرض لفن الاسخدام في البديع فقال مؤكدا المعني فاللفظ " قل ان حاوله متكلم فملك منه قيادا أو أعمل في ترتيبه فكرا لأنه يحتاج إلى لطف ذوق وحدة ذهن وتوقد فكر حتى يتم لمن يتعاطاه قصده ويصح لمن حاول معناه ويرد لمن احتاره في صحة الذهن كما توهمه في ذهنه منثورا. ثم إذا اتفق ذلك يبرزه في قالب ألفاظه ركيكة وتراكيبه مستثقلة".(٣١)

وهو يدرك أن المعني لا أثرله على اللفظ عذوبة وركة حيث يقول" فلو أنه يؤثر لكانت هركولة للمرأة المرتجفة الأطراف والأرداف عذبة، وكانت لفظة سعير وحيف ثقيلة في السمع" وقال "ولما لم يكن العذوبة والثقالة تتعلقان بالمعنى علمنا أن المعني لا عبرة له بالفصاحة".(٣٢)

نعم: إن الصفدي يرى أن الفصاحة وكل ما يتعلق بخصائص الألفاظ يؤثر في المعني ويتحكم في جملائها وحسنها وجمال اللفظ وعذوتبه يتحصل عنده لصحته اللغوية. ولم يغفل الصفدي الصناعة في اللفظ فهو يود دائما أن تتنقى الألفاظ التي تحقق لونا بديعيا.

يتضح للخائض في آرائه النقدية في اللفظ والمعني أنه ترك في نقده موضوعات وعلوم وفنون متعددة اللغة والبلاغة والأدب وكتب في نقد هذه العلوم عدة كتب أمثال "نفوذ السهم فيما وقع للجوهرى

من الوهم" في اللغة و"نصرة الثائر على المثل السائر" في البلاغة و"الغيث المسجم في شرح لامية العجم" و"الاقتصار على جواهر السلك في الانتصار لابن سناء الملك" في الأدب.

السراقات الأدبية:

قد احتلت قضية السرقات حيّزًا واسعاً من النقد العربى وهي قضية قديمة قدم الشعر العربى. ولكنها شاعت وتعددت فنون تحقيقها في عصر صلاح الدين الصفدي حتى أضحت مثارًا لحركة نقد محمودة. فكان بعض الشعراء والكتاب يعلنون تضمينهم وأخذهم لمعني أشعار الاخرين كما فعل مجير الدين ابن تميم(٣٣) في قوله:

أطالع كل ديوان أراه * ولم أزجز عن التضمين.

أضمن كل بيت فيه معني * فشعر نصفه من شعر غيرى.(٣٤)

واشتهرت سرقات ابن نباتة من علاء الدين الوداعى المتوفي سنة ست عشرة وسبعمائة هجرية. وسرقات الصفدي من ابن نباتة وسرقات ابن الوردى من الصفدي. والصفدي لا يخالف رجال عصره في نظرته إلى السرقات، ويتفق مع من ذكر من الأدباء المعتدلين في القول بأنه "لا سرقة إذا كان المعني ليس ببديع ولفظه ليس بفظيع، خصوصاً إذا كان للتأخر ليس يعاجز عن الإتيان بمثل ما أتى به المتقدم، مثال ذلك ما نجده في بيت الطغرائ:

وذى شطاطٍ كصدر الرّمح معتقل * بمثله غير هيّات ولا وكل.

وبيت الحريرى في مقامته الرابعة والأربعين من القصيدة البائية لأنه قال:

وذى شطاط كصدر الرمح قامته * صادفته بمنى يشكو من الجدب.(٣٥)

علق عليهما الصفدي بقوله: "صدر بيت الطغرائى هو بعينه صدر بيت الحريرى، ومثل هذا لا يعد سرقة، بل جرى على لسان الطغرائى، ونسى أن هذا لغيره لعدم الاحتفال بأمره، إذ هو ليس بأمر كبير، وهذا كثير الوقوع للناس لا يكاد يسلم الفحول منه، ولهذا قال أشياخ الأدب: ما حفظ المقامات أحد ونسيها إلا نظم ونثر".(٣٦) هذا ما يراه الصفدي بالنسبة للمعني المألوف واللفظ المتداول، أما المعني البديع فالفضل لمن يبرزه في صورة حسناء خاصة "إذا كان ذلك المعني خاملا والقالب الذي احتواه ركيكا غير مستعمل ولا دائرًا على الألسنة في المكاتبات والمحاورات

والأمثال، فيأتى بعض الشعراء إلى ذلك المعني الخامل ويسبكه في قالب أرشق وألطف من الأول، فيحلو ويعذب ويتداوله الناس ويعود الأول نسياً منسياً كأن لم يكن، كما إذا بدأ النجم ثم يبدو البدر من بعده، فلا يشتغل البصر بالنجم ويدع البدر، ولا يلتفت في الثانى إلا إلى حسنه من غير بحث عن أصله وهل هو مسروق أو مبتدع" والصفدي في قوله هذا يبيح سرقة بعض المعانى دون ألفاظها مستأنسا برأى من جوز ذلك ، ويؤكد هذا بقوله:

سرقات الأديب بعض المعانى * جوّزوها في مذهب الشعر شرعا.

لكن اللفظ لايجوز وهذا * قول قوم من قبل ذا العصر صرعن.(٣٧)

ثم يقول: لا شك أن قول عمارة:

وهل درى البيت أنّى بعد فرقته * ما سرت من حرم إلا إلى حرم

أحسن وأرق من قول أبى تمام يمدح بعض الخلفاء وقد حج:

يا من رأى حرماً يسعى إلى حرم * طوبى لمستسلم يأتى وملتزم.

ولهذا ساغ واشتهر واستعمل مثلا على تأخر زمانه وتقدم زمان أبى تمام خصوصا عجز بيت عمارة، فإنه ذاع وضاع وملأ الأفواه والأسماع".(٣٨) ومن الشواهد الأخرى التي أتى بها الصفدي توثيقا لرأيه، قول الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد:

الحمد لله كم أسمو بعزمى في * نيل العلى وقضاء الله ينكسه.

كأننى البدر يبغى الشرق والفلك الأعلى يعارض مسراه فيعكسه، أخذه من ناصح الدين الأرجانى في قوله:

سيعى إليكم في الحقيقة والذي * تجدون عنكم فهو سعى الدهر بي.

أنحوكم ويردّ عزمي القهقرى * دهرى فسيرى مثل سير الكوكب.

فالقصد نحو المشرق الأقصى له * والسير رأى العين نحو للغرب.

يقول الصفدي معلقا: "إن تقى الدين أتى بالمعنى كاملا في بيت واحد، والأرجانى أتى بما يحتاج فيه الثالث إلى الثانى، فكان ذلك أكمل".(٣٩)

ونجد الصفدي هنا متفقا مع ابن طباطبا حيث يجيز السرقة شرط التحسين، فيقول إذا تناول الشاعر المعانى التي سبق إليها فأبرزها في أحسن من السكسوة التي عليها لم يعب، بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه.

أما من أخذ معنى غيره ولم يحسن صياغته وأداءه عيب وحكم عليه بالسرقة وبقى الفضل للاؤل كما فعل الطغرائى في بيته:

مجدى أخيراً ومجدى أولاً شرع * والشمس رأد ا لضّحى كالشمس في الطفل.

قال عنه الصفدي: "قد أخذ هذا المعنى من قول أبى العلا المعرى:

وافقتهم في اختلاف من زمانكم * والبدر في الوهن مثل البدر في السّحر.

فهذا في الشمس وهذا في القمر، ولكن قول المعرى ألطف عبارةً وأحسن إشارة، لأن الطغرائى أغرب في لفظتى رأد والطفل وعذوبة الألفاظ أمرمهمّ في البلاغة".(٤٠)

وعلى الرغم من أن الصفدي يبيح السرقة، لكنه ينكر على من يأخذ معنى غيره ويدعى أنه ابتكره لذا فقد تعقب ابن الأثير في كل فصل حرره في كتاب "المثل السائر" وقال إنه هو الذي ابتدع معناه ليستوثق من صحة قوله وبالتالي يعرض جملة نصوص سبقت ابن الأثير قيلت في المعنى الذي أتى به، وهكذا يقتد ادعاده.(٤١)

وعلى المعموم فقد تسامح الصفدي في السرقة وأباح المعانى لمن يزيدها حسنا، لكنه لم يتسامح في أمر القافية؛ إذ قال في معرض كلامه عن قصيدة لا مية العجم للطغرائى: "والقافية المتمكنة هي التي يبنى البيت من أوله إلى آخره عليها، فإذا ختم البيت بها نزلت في مكانها ثابتة فيه متمكنة في محلها قد رسخت في قرارها ودفعت إلى مركزها فهي لا تتزحزح ولا تتغير منه بخلاف القافية القلقة التي اجتلبت وجئ بها لتمام الوزن وهي أجنبية منه غريبة من تركيبه عارية من الإلتحاف به والاتحاق بحسبه ومتى غيرت القافية المتمكنة بغيرها جاءت نافرة عن الطباع في غاية الركّة وليت شعرى بماذا يغير قوله:

لو أنّ في شرف المأوى بلوغ منىً * لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل.

وقوله أيضا:

وإن علانى من دونى فلا عجب * لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل.

إلى غير ذلك من بقية القوافى المتمكنة التي هي في البيت بمثابة القاعدة التي إذا زحزحت أو نقلت تهدّم البيت وخرب وذهب حسنه وزال رونق تركيبه".(٤٢)

المعارضات:

وهي أن يعمد أديب إلى تقليد أديب آخر سبقه أو عاصره في قصيدة له أو رسالة عرفت الجودة ورزقت سعادة وإنتشاراً، إعجابا منه بتلك القصيدة أو بتلك الرسالة، وربما ليدل الشاعر أو الكاتب بالمعارضة على تمهره في النظم أو الكتابة وقدرته على مطاولة الأصل أو التسامى عليه.

قد شاعت هذه المعارضة في العصور السابقة لاسيما في عصر صلاح الدين الصفدي وكان أحد أولئك الأدباء المعاصرين أدلى بدلوه مجارة لما شاع بين أدباء عصره فعارض قصائد غيره، نجد على طليعتهم شهاب الدين ابن خيمى والشريف الرضى ولكن رأيناه يقر عدم جدوى المعارضة.

حل المنظزم:

كان حل المنظوم في عصر صلاح الدين الصفدي قائما على قدم وساق وأكثر الأدباء المعاصرين له كانوا ينهلون معانى التراث الأدبى القديم ويحلون نظمه وينظمون نثره وكان صلاح الدين الصفدي لا يستطيع الحل إلا بشرط الخلقة والحلاوة والتحصين حيث يقول "وحل المنظوم إنما هو نوع واحد وقسم لو فقد ما كان عليه واحد، وما لم يكن فيه خفة تروجه وحلاوة تغرنه بالسمع وتزوجه لم يلق بالسمع قرطه ولا يجاز بالقبول شرطه وما أمثله إلا بعقد نثرت حباته وروض صوحت زهراته، فأى حسن لقريض خانه وزنه؟ وأي نضارة لروض جفاه مزنه؟ اللهم إلا أن يكون المنشى سليم الفطرة، قويم الفكرة، يستدرك على الناظم ما فاته، يرهف صارمه ويثقف قناته، إما باحتراز ما لم يحد عنه أو الإيتان بملائم لم يتمكن لضيق الوزن منه، أو باختصار ما يقوم المعنى بدونه أو بزيادة زهر في غصونه، أو بجودة سبكه أو بإتقان حبكه، وهنا نظهر القدرة المتمكنة وتكون أدلة الفصاحة بينه".(٤٣)

يتضح من عبارة صلاح الدين الصفدي هذه أنه يخالف ابن الأثير ويحجم عن الحل لاعتقاده بأن المقدم عليه كمن نثر حبات عقد وصوح زهرات روض، إلا أن يمتع هذا بمقدرة على الإنشاء تفوق

مقدرة الأول بحيث يستطيع أن يسبغ صفة التحسين على النص. ويخالفه أيضا في جعل الحل نوعاً واحداً لا أنواعا ثلاثة كما فعلها ابن الأثير.

هذه كانت آراء الصفدي النقدية ومناهجه الأدبية أخذناها من خلال القضايا النقدية والأدبية التي شاعت في عصره. نستعرض الآن آراءه النقدية فهو كان يعتمد في النقد على ناحتين:

الناحية الأولى:

هى الجانب الغلمى الذي ارتكز على عدة فروع من العلوم النحوية والصرفية والبلاغية والفقهية ونحو ذلك، استطاع الصفديى أن يقيس بها بحوث العلماء وآداب الأدباء، وأن يهين الوجه الصحيح قيما يعرض له من مسائل فقهية وقضايا علمية.

والناحية الثانية:

هي جانب الذوق الفنى الذي صقله بالمعرفة وقواه بالعلم، وغذاه بشاعريته وأحاسيسه، وهو ايته في الرسم الذي أصفى على روحه شقافية وعمق عنده حاسة النقد.

وكان الصلاح الصفدي يحرص على تغليب الذوق على القواعد المتبعة في تقويم النصوص كما يظهر من عبارته " أحمده على نعمه التي أوضحت ما أبهم وألبس، وأبدت نار الهدى التي لم تكن بسوى أنامل الذوق تقبس وراضت جواد الانتقاد الذي إذا أم غاية لم يثن لسانه ولم يحبس..(٤٤)

ونجد من مناهجه في نقد كلام أو رسالة أنه لا ينقد كلاما ولا يناقشه حتى يقف على أصله وكان يؤاخذ على من يتصدى لنقد كلام بدون نصه كما حدث عندما وقف على نقد لابن الأثير تعلق بكلام للكاتب ابن زيادة فقال "ولم يذكر ابن الأثير ما أتى به، يعني ابن زيادة ولعلى أظفر به فيما بعد وأثبته في الحاشية" ثم قال فيما بعد " وقفت على كلام ابن زيادة فيما بعد".(٤٥)

ويلوح لمن يفحص عن كتبه التي خصها بالنقد أن منهجه بدأ فيها أكثر دقة وشمولا وتنظيما لأنه يقف إزاء النص موضع النقد شارحا ومحللا ممثلا وموازنا، معللا ومبرزا، وتتجلى في نقد الصفدي خواص أملاها عليه خلقه وأدبه، وهي التجرد الفني والنزاهة والاعتدال، فإنه لا يطعن على أحد ولا يرميه بالعيب، بل يلتمس له العذر ويظهر من قوله إن احداً أن وقع في خطأ في

موضع فليس معني هذا أنه ليس له حسن يعد فإن الحاذق قد يفوته المقصود وأن العالم قد يقع في خطأ فينبغي أن يكون العبرة بالأغلب.

" ولو أن الناس إذا رأوا جوادا بخل في وقت أو شجاعا فرقي وقت أو صانعا ماهرا قصر في وقت يرمونهم بالعيب ويطعنون عليهم ولا يعدون لهم إحسانا لما كان في الوجود جواد ولا شجاع ولا صانع ماهر ولا خطيب بليغ ولا شاعر مجيد، وإنما العبرة بالأكثر والقليل معفو عنه، لأن العصمة لا تشترط إلا للمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه".(٤٦)

وهناك جوانب عديدة اتخذها الصفدي في نقده فهو قد سلك طريقا مبتكرا في هذا الميدان وإن كنا نراه يقلد فيه أحيانا، النقاد الذين سبقوه، وكل من يستعرض عمله النقدى يقر من صميم قلبه أن مساهمته في مجال النقد كانت كبيرة ذا قيمة.

وإنه قد ترك فيه عدة آثار نافعة منها " نصرة الثائر على المثل السائر" وضع هذا الكتاب ليرد على ابن الأثير ويناقشه في كثير مما ذكره من موضوعات في كتابه " المثل السائر" من القواعد والرسائل والأراء الأدبية والنقدية ومنها "الغيث المسجم في شرح لا مية العجم" وهذا الكتاب وإن كان شرحا على لا مية العجم للتغرائى في الحقيقة ولكنه مظهر نقده الأدبى ونضج مواهبه الأدبية والنقدية ومنها " تشنيف السمع" فإن الصفدي عرض في مقدمة هذا الكتاب جملة من الموضوعات الأدبية والنقدية، ومنها "تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون" وهذا الكتاب عرض فيه الصفدي لعدد من الموضوعات الأدبية والنقدية وفي نهاية الكتاب قدم فصلا خاصا للنقد حاول فيه أن يجمل ملاحظاته الأدبية ويسجل اعتراضاته النقدية التي وجهها إلى ابن زيدون وهذا النقد يتعلق بالمزاوجة في الأسلوب وصحة التضمين ومناسبة الأبيات لما سبقها من سجعات، وأخيرا تمشى الأسلوب مع قواعد النحو حتى يكتمل فيه البيان.

ولعل من أبرز الصفات التي اتسمت بها شخصية الصفدي سمتين رئيستين:

أما الأولى منهما:

فهو رجل بديعى يحب البديع ويتحمس له بشكل واضح، فيستكثر منه دون أن يكون ذلك على حساب المعني، فهو دائم الحرص على أن يكون استعمال البديع مرتبطا بخدمة المعني حتى

يسهم في التمكين للشاعر مـن إجـادة التعبـير عـن أحاسـيه وصـف مشـاعره بصـدق دون تكلف أوإفتعال، فإن جاء على عكس ذلك رفضه واستقبحه وأنكر على صاحبه الإتيان به.

فعلى الرغم مما شهر عن عشق الصفدي للبديع وهيامه به إلا أنه كان يتحرى أن لا يكون الإتيان به من أجل الزينة وتحسين اللفظ فقط، بل لابد أن يقوم بـدوره في أداء مـا يريـد الشـاعر التعبـير عنه وتصويره تصويراً دقيقاً. فللصنعة عند الصفدي شروط، لا يستطيعها إلا الموهبون مـن الشعـراء والأدباء وحدهم.

أما السمة الثانية:

فهي أنه كان رجل ذوق وطبع يفهم تاريخ وطبيعة البلاغة والأدب والنقد حق الفهم، وقد استطاع بأصالته الأدبية. وبخاصة في أواخر أيام حياته. أن يوفر بين هـاتين السـمتين المتنـاقفتين دون أن تطغى إحداهما على الأخرى فتوافقتا وصارتا جنبـا إلى جنـب. فـهو أديـب نـاقد يعشـق الصنعـة ويهيم بالبديع ويكثر منه في أدبه في الوقت الذي يحافظ فيه على طبعه وذوقه فلا يطغـى جـانب منهما على الجانب الآخر. ولا يتحقق ذلك إلا لأصحاب المهارات الخارقة.

الفصل الرابع:

صلاح الدين الصفدي بلاغياً:

من الفنون التي برع فيها صلاح الدين وآثار موضوعها وخالف في جزئياتها الأدباء المعـاصرين فـن البلاغة وإن كان في دراسة ألو انها درج على نظام تقليـدى لـن سـبقه مـن البلاغيـين أمثـال ابـن الأثير وابن أبى الأصبع العدوانى، وذلك من حيـث الإتيـان بـالتعريف الإصطلاحـى وشرحـه ثـم التفصيل والتقسيم ثم أيراد الشواهد الشعرية العديدة التي كثيراً ما يوازن بينها، مبينا الجيد منها والقبيح، مناقشا السابقين في تسياتهم وتعريفاتهم، مرجحا بالدليل ما يراه صحيحا أو يـأتى بمـا يخالفهم مدعما ذلك كله بالأدلة.

وقد يظهر الصفدي أصالته في بعض الأمـور كإتيانـه بـالمعني اللغـوى دليـلا علـى مناسـبة الألفـاظ لمسمياتها، وذلك في مقام ترجيح اسم على اسم آخر، كما حدث في مبحث، اختـلاف البلغـاء في

اسم التورية وتفضيله اسمها على اسم الايهام، والتوجيه، والتخييل مستنداً في ذلك بالمعني اللغوية لهذه الألفاظ.

وقد يعرض أيضاً لاشتقاق اللفظ الذي يريد تعريفه، ويبحث دوران مادته، ولكن باستطراد ممل، كما حدث في مبحث "أصل التورية واشتقاقها".

وكان الصفدي ـ أحيانا ـ يخرج محتززات التعريف، مثله في ذلك مثل المناطقة ويظهر هذا في تعريفه للمشترك من الألفاظ. وكانت له تقاليد المناطقة؛ كطريقته في حصر الأقسام، وكتعبيره بالرسم والماهية، ويظهر ذلك في تعريفه للمشترك والتورية والاستخدام كما يظهر في مقدمة كتابه "جنان الجناس".

كل ذلك يجعلنا نقول: إن الصفدي جمع في تأليفه للبلاغة بين المنهج العلمي والمنهج الأدبي أى طريقة أهل الكلام، وطريقة الأدباء، فقد أخذ من المنهج العلمي تقرير القاعدة بالتعريف، والحصر والتقسيم بأدلة عقلية ثم الدقة في استعمال الألفاظ، وأخذ بذلك المنهج لغرض أداء الحقائق العلمية والإفادة بتقريرها وتقعيدها. كما أخذ من المنهج الأدبي إلا كثار من الشواهد الشعرية والنثرية وتحليلها تحليلا تطبيقا، يربى الذوق وينمي العاطفة ويرهف الحس ويوقف على مواطن الجمال، وذلك بأسلوب أدبي يصور الحقائق تصويرًا رائعًا جميلا، وهذا الغرض التشويق والتأثير. فالصفدي يجمع في منهجه بين الاتجاه العلمي أو الكلامي وبين الاتجاه الأدبي الوجداني لغرض التشويق والتأثير في النفس.

وقد تصدى صلاح الدين الصفدي لمخالفة البلاغيين المعاصرين في عدة مواضع منها مدلول التورية والاستخدام وقد وضع فيه كتابا سماه " فض الختام عن التورية والاستخدام وذكر سبب وضع الكتاب بقوله " وقد أحببت أن اضع في نوع التورية والاستخدام موضعا يكشف عنهما النقاب ويرفع عن محياهما البدرى حجاب السحاب فأبتدأ بعون الله هذا التأليف الذي وضعته عجيبا واتحفت به من أصبع بالأدب في الناس غريبا".(٤٧)

وقد ظهرت للصفدي في كتابه هذا قدرات علمية في حسن عرضه للموضوعات التي يتناولها وبراعته في مناقشة الآراء وفي ترجيح ما يراه مدعما رأيه بأدلة علمية. لغوية أو نحوية أو صرفية

في بحوثه، وإن كان يقلد في أمور كثيرة ويتأثر بما قاله السابقون من البلاغيين والنقاد شأنه في ذلك شأن مؤلفى عصره الذين جمعوا بين الاصالة والتقليد والإبتكار والتأثر.

وأطال الصفدي البحث عن اصطلاحات الصناعة البدعية أظهر قدرته العلمية في مبحث اختلاف البلغاء في اسم التورية وأشار إلى نسبة إيهام أو التوهيم بالتورية. ثم عرف التورية والاستخدام بعبارة يستنتج بها الفرق بينهما حيث قال وحاصل أمران المشترك إن لزم استعماله في مفهومه معا فهو الاستخدام وإن أريد أحد مفهومه في الظاهر مع لمح الاخر فهو التورية.(٤٨)

وإلى جانت آخر خالف الصفدي معاصريه من البلغاء تفضيل صناعة الجناس والتورية والاستخدام. فكان هو يكثر استعمال الأول ويريد ترويجه حينما كان المعاصرون يفضلون التورية والاستخدام وهذا الأمر قد أثار اختلافا بينا بينه وبين معاصريه حتى أنه ألف في هذا كتابا سماه "جنان الجناس في علم البديع".

وتلخيص البحث أن الصفدي قد تأثر في بحوثه البلاغية بعلماء سبقوه. مثل السكاكى وشراح تلخيصه، ويظهر ذلك في تعريف التورية والتوجيه ومثل: بدر الدين بن مالك في كتابه "المصباح" ويظهر ذلك في تقسيم التورية إلى أقسامها الأربعة: المجردة، والمرشحة والمبينة والمهيئة مع أمثلة لكل قسم.

ومثل ابن أبى الأصبع العدوانى في نقل بعض أمثلة كما سبق أن أضحت. كذلك تأثر الصفدي بابن أبى الحديد في تعريفه للمشترك وللمترادف.

كما أنه تأثر بشعراء عصره في جهم للتورية وولوعهم باستعمالها في قوالب متعددة. وعلى أشكال مختلفة. بل قد نقل منهم توريات ضمنها شعره، وغالى في بعضها فنقلها بالنص حتى عد متطفلا على موائدهم في هذا الفن البلاغي.

وهؤلاء الشعراء أمثال: أبى الحسين الجزار، والنصير الحمامى ومحى الدين بن قرناص وسراج الدين الوراق وجمال الدين بن نباتة وغيرهم.

ومع هذا كله أن له أراء مستقلة في هذا الفن كما شاهدناها خلال دراستنا ولأجل شغفه بهذا الفن قد ترك عدة آثار ذاقيمة منها "ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء" و"فض الختام عن التورية والاستخدام" و'اختراع الخراع' و'جنان الجناس في علم البديع' وما إلى ذلك.

الفصل الخامس:

صلاح الدين الصفدي مؤرخاً:

التاريخ مرآة للزمان وتراجم العالم مرقاة للمشاركة في المشاهدة وأخبار الماضين ملهاة لمن عاقر الهموم. فقد جرت عادات أهل العالم أن ساهموا في إبراز هذه الحقيقة. كانوا يؤرخون من قديم الزمان بطرق مختلفة. كانت العرب تؤرخ بالنجوم في البداية ولا نتأكد بقول يثبت أن العرب بدوأ يؤرخون من زمان معين. وما هو أقدم التاريخ ومن هم أؤلئك بدؤا يؤرخون في شتى مجالات التاريخ، ولكن ذكر صلاح الدين الصفدي ما يكشف الحجاب عن هذا الظلام حيث يقول "رغم بعضهم أن أقدم التواريخ تاريخ القبط لأنه بعد انقضاء الطوفان وأقرب تواريخ المعروفة تاريخ يزد جرد بن شهريار الملك الفارسى وهذا تاريخ أرخه المسلمون عند افتتاحهم بلاد الأكاسرة وهى البلاد التي تسمى بلاد ايران شهر. أما التاريخ المعتضدى فما أظنه تجاوز بلاد العراق وفيما بين هذه التواريخ تواريخ القبط والروم والفرس وبنى إسرائيل وتاريخ عام الفيل وأرخ الناس بعد ذلك من عام الهجرة، وأول من أرخ الكتب من الهجرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة.(٤٩)

وظل العرب يساهمون في كتابة التاريخ في صدر الإسلام وفيما بعده ولكن نهض هذا الفن وارتقى من العصر العباسى فقد خلف علماؤه كتبا قيمة في هذا الفن على رأسها تاريخ ابن جرير طبرى، ثم لم يزل هذا الفن يتطور ويزدهر حتى يومنا هذا. ولكن تعتبر مدرسة التاريخ المملوكى من أغذر مدارس التاريخ الإسلامي انتاجا وأكثرها موضوعية وتنوعا. ويمتز هذا التاريخ بالتنوع الكبير والكمية الهائلة وظل يفوق الكتب التاريخية غير الإسلامية المعاصرة له عدة قرون. ذلك أنه رغم ما عرفه العالم الإسلامي من تقطع سياسى في ذلك العصر. فقد بقيت حركة التأليف التاريخي

مستمرة من ابن عبد الحكم إلى ابن أياس ويركـز المصريـون علـى نهضـة القرن التاسـع الهجـرى حيث بلغت بنظرهم حركة التأليف التـاريخي أوجـها ووصلـت الـزروة مـن حيـث وفـرة الإنتـاج وتنوعه ومن حيث عدد المؤرخين العظام الذين ظهروا في هذا القرن وكلهم مؤلفـو موسـوعات غـير أنه من الأمور النظرية التحدث عن تيار التأليف التاريخي المصرى في قرن واحد من قرون الحقبة المملوكة، وذلك نظراً للترابط الذى كان متواجداً بين القطرى المصـرى وغـيره مـن اقطـار السـلطنة المملوكية، وللعلاقات الوثيقة التي كانت تربط مؤرخى القطر المصرى ببقية الأقطـار ونظـر لوجـود أكثرهم في حيزّين زمنيين.

ويعتبر صلاح الدين أبو الصفا خليل ابن أيبك الصفدي الذي كان يعيش في دمشـق ومصـر في هـذا العصر المملوكى أعظم كتاب التراجم والسير في الأدب العربى. فإنه كتب كثيراً وألّف كتبا عديـدة في الأدب وعلومه ولكنه كان يعتقد أن التاريخ ربما يفيـد حزمـا، وعزمـا، وموعظـة وعلمـا وهمـة تذهب هما وبيانا يزيل وهنا ووهما وحيلا تثار للأعادى من مكامن المكايد وسبلا لاتعرج بالأمـانى إلى أن تقع من المصايب في المصايد. وصبراً يبعثه التأسى بمن مضى واحتسابا يوجـب الرضـا بمـا مر وحلا من القضا. فأحب أن يكون في زمرة من عكفوا حياتهم علـى خدمـة فـن التـاريخ وبذلـوا جهدهم الجهيد في إبراز الحقائق وكشف الدقائق. نعـم، أنـه دخـل التـاريخ مـن بـاب الـتراجم والسير خاصةً، وجمع من تراجم الأعيان من هذه الأمة الوسط. وكملة هذه الملة التي مد الله تعالى لها الفضل الأوفي ونجباء الزمان والرؤساء والأساطين والأبطـال والفرسـان. فجمـع تراجـم الخلفـاء الراشدين وأعيان الصحابة والتابعين. والملوك والأمراء والقضاة والعمال والوزراء والقرّاء والمحدثـين والفقهاء والمشايخ والصلحاء وأرباب العرفان والأولياء والنحاة والأدباء والكتاب والشعراء، والأطبـاء والحكماء والألباء والعقلاء وأصحاب النحل والبدع والآراء، وأعيان كل فن اشتهر ممـن أتقنـه مـن الفضلاء من كل نجيب مجيد ولبيب مفيد.

فكما أن الصلاح الصفدي برز أديباً شهيراً، برز مؤرخاً كبيراً، فعـد مـن كبـار المؤرخـين في الشـام ومصر يقول محمد كرد على " وكان بعض المؤرخين في هذا العصر من الشـاميين أرجـح وزنـا مـن

المصريين. ومن نوابغ المؤرخين في الشام أبو الصفا صلاح الدين الصفدي كان والده من المماليك من عنصر تركى".(٥٠)

وقد زاد كتابة تاريخية حسنا احتمامه بعلم الحديث شأنه شأن الكثير من المؤرخين المسلمين. فكان هذا الأمر ضمانة لسيرة على نهج قويم في كتابته التاريخية ذلك أن العلاقة و ثيقة بين علم الحديث وبين منهجية البحث التاريخى. وقد قرأ الصفدي المغازى والسير على الشيخ الإمام الحافظ شمس الدين الذهبى فهو يقول في مجال تعداد كتب التواريخ الجامعة "وتاريخ الإسلام لشيخنا شمس الدين الذهبى وهو كتاب علم نافع جداً، قرأت عليه مغازى وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وإلى آخر أيام الحسن رضى الله عنه وحوادثه إلى آخر سنة سبع مأية ولم انتفع بشئ مثله وعليه العمدة في هذا الكتاب (الوافى بالوفيات) وهو القطب لهذه الدايرة واللب لهذه الجملة السائرة".(٥١)

وأفضل ما تمتاز به مؤلفات الصفدي التاريخية العناية بتراجم معاصريه وتسجيل نصوص من شعرهم ونثرهم مع نصوص من شعره ونثره، فقد نراه أنها مصادر فريدة لأدب جيله وتاريخ رجاله، وإن من كتب بعده في أخبار الرجال اعتمد عليها اعتماداً ملحوظاً عند حديثه عن الجيل المذكور.

ولما كانت مساهمة الصفدي في علم التاريخ ذاقيمة نقف قليلا عند منهجه التاريخي. كان الصفدي يعتبر التاريخ مرآة للزمان وتعرفا على أحوال من غبر، ومطالعة لأخبار من تقدم، وقد رأئ كخطوة أولى، ضرورة إخراج أخبار الأمة الإسلامية ورجالها من الظلام الغارقة فيه، بعد ما جمعها المؤرخون في "تواريخ " ماتت أخبارها في جلدها. أما السبيل المتبع والمراحل التي يسير خلالها الباحث لبلوغ الحقيقة التاريخية بقدر المستطاع. فقد أفرد لها مؤرخنا فصلا في مقدمة كتابه 'الوافى بالوفيات' باسم "في أدب المؤرخ" وقد اعتمد فيه على قاضى القضاة تقى الدين السبكى نظراً للتعاون الوثيق الذي كان قائما بينهما يقول فيه "نقلت من خط الإمام العلامة الحجة شيخ الإسلام قاضى القضاة تقى الدين أبو(٥٢) الحسن على بن عبد الكافى السبكى الشافعى ما صورته قال: يشترط في المؤرخ الصدق وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى وأن لا يكون

ذلك الذي نقله أخذه في المذاكرة وكتبه بعد ذلك وأن يسمى المنقول عنه فهذه شروط أربعة فيما ينقله ويشترط فيه أيضا لما يترجمه من عند نفسه ولما عساه يطول في التراجم من النقول ويقصر أن يكون عارفا بحال صاحب الترجمة علما ودينا وغيرها من الصفات وهذا عزيز جدا وأن يكون حسن العبارة عارفا بمدلولات الألفاظ وأن يكون حسن التصور حتى يتصور رجال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه، وأن لا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه والتقصير في غيره بل إما يكون مجردا عن الهوى وهو عزيز وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ويسلك طريق الإنصاف فهذه أربعة شروط أخرى، ولك أن تجعلها خمسة لأن حسن تصوره وعلمه قد لايحصل معهما الاستحضار حين التصنيف فيجعل حضور التصور رايدا على حسن التصور، والعلم فهى تسعة شروط في المؤرخ واصعبها الاطلاع على حال الشخص في العلم فإنه يحتاج إلى المشاركة في علمه والقرب منه حتى يعرف مرتبته". (٥٣)

فمن هذه الشروط التي يشترطها الصفدي للمؤرخ الأربعة الأولى منها وهى: الصدق، واعتماد اللفظ دون المعنى عند النقل، واعتماد النقل الفورى، وتسمية المنقول عنه رئيسية في عملية جمع الأصول والمصادر وتعيين شخصية المؤلف ولم يقصر الصفدي في هذا المجال إذ نجد عنده قائمة ببيبليوغرافية ضخمة. هى الأولى من نوعها التي وقعت عليها في كل مارجعت إليه من مصادر منشورة ومخطوطة وهي قائمة مبوبة حسب البلدان. فمن تاريخ المشرق وبلاده تسعة وستون مؤلفا، ومن تاريخ مصر اثنا عشر كتابا وفي تاريخ المغرب وبلاده أحد وعشرون مؤلفا وفي تاريخ اليمن والحجاز خمس مؤلفات أو حسب الموضوعات، فنجد التواريخ الجامعة أربعة وأربعون مؤلفا ومن تواريخ الخلفاء حوالى اثنين وعشرين كتابا ومن تواريخ الملوك نحو ثمانية عشر مؤلفا. ومن تواريخ الوزراء العمال اثنا عشر مؤلفا ومن تواريخ القضاة ستة مؤلفات ومن تواريخ القراء أربعة مؤلفات ومن تواريخ العلماء سبعة عشر مؤلفا ومن تواريخ الشعراء واحدوثلاثون مؤلفا ومن التواريخ المختلفة ستة وعشرون مؤلفا. أما كتب المحدثين فقد حجم الصفدي عن ذكرها لكثرتها قلائلا (وأما كتب المحدثين) في معرفة الصحابة رضى الله عنهم مثل الاستيعاب لابن عبد البر،

وأسد الغاية لابن الأثير وغيرهما، وكتب الجرح والتعديل والأنساب ومعاجم المحدثين ومشيخات الحفاظ والرواة فإنها شئ لا يحضره حدّ ولا يقصره عدّ ولا يستقصيه ضبط ولا يستدنيه ربط لأنها كاثرت الأمواج أفواجا وكابرت الأدراج اندراجا فلهذا لم اذكر منها هاهنا (في كتابه الوافي بالوفيات) شيئا، وإذا جاء ذكر شئ منها في ترجمة من يأتي ذكره ذكرته هناك إن شاء الله تعالى.(٥٤)

ثم الشروط الخمسة التي ذكرها الصفدي فيما بعد يشترطها على المؤرخ عندما يرجع إلى نفسه في إيراد حادثة ما أو ترجمة ما وهذه الشروط هي:

أن يكون المؤرخ عارفا بحال صاحب الترجمة علما ودينا وغيرهما من الصفات.

وأن يكون حسن العبارة عارفا بمدلولات الألفاظ وأن يكون حسن التصور حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ويعبر عنه بعبارة لاتزيد عليه ولا تنقص عنه.

وأن لا يبلغه الهوى فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه والتقصير في غيره، بل إما أن يكون مجردا عن الهوى وهو عزيز وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه وسلك طريق الإنصاف.

وأن يكون حاضر التصور ليحصل مع حسن التصور الاستحضار حين التصنيف هذه الشروط للصفدي تجوز أية شروط وضعت للمؤرخ ليسلك في نهجه أو اتجاهه نحو غايته وتوفرت هذه الشروط في الصفدي فإنه كان يعرف حال المترجم له دينا وعلما كما نراه في ترجمته للمتقدمين الذين يعترف بقربه من علمهم وبالتالي إمكانيته في إعطاء رأيه، فيهم فمنهم من أجاز للصفدي بخطه كابن نباتة المصرى وابن جماعة ومنهم من حكى للصفدي أخباره مشافهة وأعطاه براهن حسية ومنهم من اشتغل مع الصفدي وسمع منه وأجازله ككمال الدين أبو عبد الله محمد خطيب 'صفد'.

ويظهر للباحث ومن يتصفح مقدمة كتابه 'الوافى بالوفيات' أنه قدم فيها أحد عشر فصلا بين فيها أموراً نافعة لايستغنى عنها مؤرخ ولا كاتب السير فهو تصدى في الفصل الأول لمسئلة التاريخ استناداً إلى وقع مشهور وحاول تبيان المسافة الزمنية الفاصلة بين آدم وأيامه فيجعلها ستة الآف

سنة وسبعماية وتسعا وسبعين سنة. ثم يتنقل بعد ذلك فيقسمها محطات وترد في المقدمة أيضاً أمور عظيمة الفائدة للعاملين في تحقيق التراث الإسلامي وهي تتعلق بكيفية كتابة التاريخ في شهر معين كما يقول "وجرت العادة بأن يقولوا في شهر المحرم شهر الله وفي شهر رجب شهر رجب الفرد أو الأصم أو الأصب وفي شعبان شعبان المكرم وفي رمضان رمضان المعظم وفي شوال شوال المبارك".(٥٥) وتتعلق بذكر بداية الشهر كما يقول" والواجب أن تقول في أول الشهر لليلة خلت منه أو لغيرته أو لمستهلة فإذا تحققت آخره قلت انسلاخه أو سلخه أو آخره".(٥٦)

وهناك أيام من أشهر متفرقة لا تذكر تواريخها إنما يستعاض عنها بحوادث معينة حيث يقول "ويؤرخوا أول شوال بعيد الفطر وثامن ذي الحجة بيوم التروية وتاسعه بيوم عرفة وعاشره بعيد النحر وتاسع المحرم بيوم تاسوعاء وعاشره بيوم عاشوراء فلا يحتاجون أن يذكرواالشهر ولكن لابد من ذكر السنة".(٥٧)

وذكر في تلك المقدمة أموراً أخرى تتعلق بالنسب والعلم والكنية واللقب وكيفية ترتيب تتابعها مع النسبة على اختلافها المتنوع كما فيها طائفة من قواعد الكتابة تأتي بالنسبة للمضاف والمضاف إليه وتنقيط الحروف حيث يقول "لا يكتب المضاف في آخر السطر الأول ويبتدأ بالمضاف إليه في السطر الثاني كعبد الله وأبى بكر والمغاربة يفعلون ذالك وليس بحسن وأبلغ من هذا أن يكتبوا الكلمة الواحدة مفصولة الحروف في السطرين كالزاى والياء والدال والواو في السطر الأول آخرا والنون من تتمة زيدون في أول السطر الثاني وهو أقبح من الأول. (قاعدة) لا تنقط القاف ولا النون ولا الياء إذا وقعن أواخر الكلم برهانه أن الإعجام إنما أتى به للفارق فان صورة الباء والتاء والثاء والحاء الخاء والدال والذال متشابهة القاف والنون والياء آخر الكلمة لا تشبهها صورة أخرى أما إذا وقعن في بعض الكلمات وجب نقطهن لأن الفارق بطل.(٥٨)

وهناك أمور أخرى مستحسنة قد التزمها الصفدي في تأليف كتابه الشهير 'الوافى بالوفيات' وفي كتابه التاريخية فعلى هذا النحو تصدى الصفدي لمسألة الكتابة التاريخية بنهج واضح وعقل واع مرتب ومنظم فتصدي لنوع معين منها وهي السير والتراجم وتناول في ميدانهما المضمون والشكل

وهى مسائل لم ترد في أكثرها عند غيره من المؤرخين. فاقتضى الأمر تناولها وإيرادها واستعراضها للاستفادة منها.

ونتيجة لشغف صلاح الدين الصفدي بفن التاريخ وبراعته ومهارته فيه قد خلّف آثاراً تاريخية كثيرة ذا قيمة منها كتابه الشهير 'الوافى بالوفيات، الذي ارتقى عدد أجزائه إلى الثلاثين قد طبع جميعها بإعتناء هلموت ريتر، وهذا الكتاب يحتوى على أربعة عشرالف سيرة من سير الخلفاء الراشدين وأعيان الصحابة والتابعين، والملوك والأمراء والقضاة والعمال والوزراء والقراء المحدثين والفقهاء والمشايخ والصلحاء وأرباب العرفان والأولياء والنحاة والأدباء والكتاب والشعراء والأطباء والحكماء والألباء والعقلاء وأصحاب النحل والبدع والآراء، وأعيان كل فن اشتهر ممن أتقنه من الفضلاء من كل نجيب مجيد، ولبيب مفيد، وفي الحقيقة' هو أضخم وأوفى موسوعة للأعلام في الإسلام يشك في أن تكون قد وصلتنا بكاملها. وقد ذكر فيه المؤلف تراجم الرجال حتى أُخر سنة ٧٦٠هـ ويشتمل جزؤه الأول على مقدمة في علم التاريخ ثم بدأ بالتراجم وبدأ باسم 'محمد' تبركا برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سار التاريخ على الترتيب الهجائ، وقد أخذ على نفسه الاّ يهمل أحداً في تاريخه وكان يكثر من المختارات الشعرية ونماذج الأدبية. إن الوافى بالوفيات ليس كتاب تاريخ فحسب، إنه كتاب تاريخ وأدب، بل هو موسوعة من موسوعات الثقافة العربية في القرن الثامن. وسنتحدث عن هذا الكتاب فيما بعد إن شاء الله.

وقد أفرد صلاح الدين الصفدي من كتابه هذا ستة مجلدات لأهل عصره وأعيان زمانه من رجال ونساء أسماه "أعيان العصر وأعوان النصر" وذكره ابن حجر العسقلانى باسم أعوان النصر في أعيان العصر.(٥٩) وهو في نظرنا أهم كتب التراجم لأعلام النصف الأول من القرن الثامن. وإذا علمنا أن ابن حجر العسقلانى ألف كتابه القيم "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" في أربعة أجزاء، وإن مؤلف الصفدى "أعيان العصر ثلاثة أمثاله بان لنا قدره و عظيم أهميته وأجزاء هذا الكتاب لاتزال مغتربة عن وطنها. وفي دار الكتب المصرية منه ثلاثة أجزاء هي الثالث والسادس والسابع يقع كل منها في مجلدين. وهي مصورة تصويراً شمسيا عن نسخة مخطوطة.

ومن أمتع كتبه التاريخية كتاب " نكت الهميان في نكب العميان" وهو مطبوع وذو موضوع طريف، وهو الحديث عن العميان وبيان أحوالهم شخصية وغير شخصية وشرعية وغير شرعية وما يدور حولهم عن نوادر وفكاهات وحوادث أدبية طريفة، وترجمة النابهين منهم ويحتوى الكتاب على عشر مقدمات ونتيجة واحدة. وفي المقدمات المذكورة جملة بحوث نافعة في فنون العربية المختلفة وتعتبر المقدمة الأولى ذات قيمة في فقه اللغة إذ بحث فيها عن مادة "العين والميم" وما يتصل بها من الحروف وما تدل عليه من المعانى ورأى أن هذه المادة مهما اتصل بها من الحروف تدل على التستر أو نحوه وبحث عن مادة "أعمى " وتكلم عن تفضيل السمع على البصر أو العكس وفسر قوله تعالى " عبس وتولى أن جاءه الأعمى" وقوله "وما يستوى الأعمى والبصير" وتعرض للحديث الشريف الخاص بقصة الأقرع والأبرص والأعمى الذين أتاهم الله ما يريدون، فلم يشكره منهم إلا الأعمى، وتحدث عن بعض الأحكام الشرعية الخاصة بالعميان كالإمامة في الصلاة ووجوب الجمعة إلى غير ذلك.

أما النتيجة فهى في صلب التاريخ إذ ترجم فيها لنحو ثلثمائة وخمسين كفيفا سواء منهم من ولد أعمى. ومن كف بصره بعد ولادته. وأورد في كل ترجمة الحوادث البارزة في تاريخ صاحبها وشيئا من شعره أو نثره إذا كان أديبا وهكذا.

ولهذا المؤلف خصوصيات نافعة فمنها أن فيه تراجم للأعلام معاصرة للصفدي أنه جرى في ضبط كثير من الأعلام مجرى ابن خلكان في ضبطها، أي أنه ضبط نطقها بالحروف وأنه حدد مواقع بعض الأماكن وأنه أودعه شيئا من آثاره الأدبية وآثار بعض معاصريه.

وعلى نمط من هذا المؤلف، أخرج كتابه "الشعور بالعور" وهو في تراجم هذا الصنف من الرجال. ومنه مخطوطة بدار الكتب، وللصفدي كتاب "التذكرة الصفدية" في أكثر من خمسين جزأ من دار الكتب منها خمسة مخطوطة في خلالها فصل عن تاريخ الآداب العربية وفنونها ونشأتها. وفصل آخر فيمن ولى دمشق من أول عهد بنى العباس إلى عصر المؤلف، وهى مليئة. إلى جانب ما تفيض به من النصوص الأدبية بأخبار الأعلام وحوادثهم.

ونحس هذه الروح سارية من الصفدي في معظم مولفاته ، مثل كتابه" الحان السواجع بين البادي والمراجع " وهو مخطوط بدار الكتب كذلك ، وبه أخبار وسير ووقائع بجانب ما يعج به من أنباء المراسلات ونصوصها مما كان بين الصفدي وأنداده.

الفصل السادس:

أسلوب صلاح الدين وذوقه الأدبى:

اتضح خلال دراستنا عن شخصية صلاح الدين الصفدي وتحليلنا لحياته الكتابية والشعرية والنقدية والبلاغية أسلوبه الذي يختص بكل جهة منها فقد تبين لنا أسلوبه في كتابته النثرية والشعرية والنقدية والبلاغية. وهنا نقف قليلا عند أسلوبه الذي يعم جميع كتاباته. إن العصر الذي عاش فيه صلاح الدين شاع فيه أسلوب القاضى الفاضل ومحى الدين ابن عبد الظاهر وعماد الدين الكاتب الإصبهانى. وكان الصلاح الصفدي كأدباء غيره من المعاصرين بهذا الأسلوب وطريقتهم الإستعارة فلا عجب حينما غلب على أسلوبه ألوان البديع المحسنات اللفظية والمعنوية خاصةً السجع والارذواج والجناس والطباق بالدرجة أن هذه القوالب أصبحت في بعض ضياغاته طاغية على معانيه. فكانت هذه المعانى تتضاءل أمام ألفاظه المنمقة المتكلفة وكأنه يسعى أولا لوضع اللفظ البديعى ثم يبحث له عن المعانى. وكان بعض مواضع يميل إلى التصنع ليظهر تفوقه وبراعته في علم البديع كما رأيناه عند التكلم عن مقدمة كتبه . وكان اتخذ هذا الأسلوب ليجارى أدباء عصره ويرضى نقادهم الذين كانوا لا يحفلون باللفظ إلاّ إذا تضمنا لونا بديعيا وساعده على ذلك كونه مؤلفا لألوان بديعية عديدة. وكان يلتزم بهذا الأسلوب في المقامة الأدبية وفي الرسائل الإنشائية ومقدمات عامة كتبه في شتى الموضوعات.

ونراه يخالف أساليب كتاب عصره في كتابة السير والتراجم. فيبتعد عن عبارات مسجوعة مقفى فلا يستعمل فيها ألوان البديع إلا ما اقتضاه المقام يقول الأستاذ محمد كرد على" أدب الصفدي من أقعد أساليب الأدب في دهره لا يلتزم السجع كثيراً، خصوصاً إذا ترجم للرجال وشعره كثير وبعضه جيد وأجود ويعد في باب التأليف من المكثرين المجودين".(٦٠)

ويقول محقق كتابه 'نصرة الثائر على المثل السائر' محمد على سلطانى " وأما في أسلوبه فيتبين في عبارته التي تخلت عن نهج عصره في المماحكة اللفظية وعبودية الأداء السقيم، ويتبين أيضا في استلهام الذوق السليم الذي نمسته التجربة والاستعداد القويم ويتبين أيضا في الجرأة على معايير زمانه من معارضة أئمة البيان في أيامه، والاستشهاد بما لم يكن إلا مثلا ينظر إليه على أنه بعيد المرعى عسير البلوغ ويتبين أيضا في نهجه الذي تقتضيه نزاهة النقد. سوى فضائل أخرى تستوقف القارى هنا وهناك تحمله على أن يعاود النظر فيما استقر عنده من هذا العصر وما صدر عليه من أحكام شتى".(٦١)

وقد اثرت وظيفته في دواوين الإنشاء عند سلاطين عصره في أسلوب كتابته. فإنه كما يقال "كلام الملوك ملوك الكلام" فتعالى أسلوب كتابته متأثراً بما يكتب في دواوين الإنشاء وظهرت له قدرة علمية وملكة كتابية في جميع أنواع الكتابات.

وأما في أسلوب شعره فقد كانت الفنون الشعرية الغالبة على عصره إلى جانب القصيدة هى المواليا والبليق والدوبيت والموشحة، فظهرت بعض آثار هذه الأشعار في شعره ولكنه كان يغوص في المعاني ويبتكر النكت والبديعية يقول ابن تغرى بردى كما على شعره "وشعر الشيخ صلاح الدين الصفدي كثير وفضله غزير' وهو شاعر مجيد على أن جيده يجيد على رديئه. ولولا أنه كان ضنينا بنفسه، راضيا بشعره لكان يندر له الردئ و يكثر منه الجيد؛ فإنه كان غواصا على المعاني مبتكراً للنكت البديعية عارفا بفنون الأدب، لكن رأيت من نظمه يخطه عندما يعارض بعض من تقدمه من مجيدى الشعراء في معنى من المعانى اللفظية فيأخذ ذلك المعنى أو النكتة فينظمها في بيتين آخرين. ثم بيتين ثم بيتين. ولا يزال ينظم في ذلك المعنى وهو يقول : "وقلت أنا إلى ان يمله النظر وتسأمه النفس ويمجه السمع. فلو ترك ذلك وتحرى في قريضه لكان من الشعراء المجيدين لما يظهرلى من قوة شعره وحسن اختياره.(٦٢)

ذوقه الأدبى:

يحس القارئ لمؤلفات الصلاح الصفدي أن الله قد وهبه موهبة أدبية وذوقاً سليماً عالجها بالدرب والتجارب والمران . فاستوت موهبته ونضج ذوقه مما صنع منه أدبيا فذّا وناقداً متذوقا ومؤلفا كبيراً، يأتي في طليعة من كتب وصنف في النقد والأدب في عصره، والعصور التي تلته، حتى مطلع العصر الحديث فكلما قرأ كتابا أو صنف مصنفا احتكم إلى ذوقه وموهبته فيه فأهتدي إلى التعليل المناسب الذي تسكن إليه نفسه ويستقر له خاطره وفكره فقد لاحظنا في كتبه الكثير من النصوص الأدبية. والعديد من المواقف النقدية تكشف عما يتمتع به من موهبة أدبية متأصلة وما ينعم به من ذوق فنى خلاّق منها ما قاله في أبيات أبى العلا المعرى التي يدافع فيها عن الكهولة والشيب.

وأُذكرى لى فضل الشباب ومايجـ * مع من منظر يروق وطيب.

غدره بالخليل أم حبه للغـ * ى أم أنه كدهر الأديب.

فيقول: " وهذا هو تشبيه المعقول بالمحوس، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة، لأنه ينشأ عن لطف ذوق، وسلامة فطرة وصحّة تخيّل فهو صعب على من يرومه، متقاعس عمّن جذب زمامه لأن العلوم العقلية تستفاد من الحواسي في المقادير والألوان والطعوم والرائحة....الخ.(٦٣)

ومع إعجاب صلاح الدين بهذا التشبيه في قول ابن التعاويذى.(٦٤)

بين السيوف وعينيه مشاكلة * من أجلها قيل للأغماد أجفان.(٦٥)

يستنكر قال المتنبى الذى أفاد منه ابن التعاويذى فيقول وإن كان أخذه من أبى الطيب في قوله:

ولذا اسم أغطية العيون جفونها * من أنها عمل السيوف عوامل.

ويكشف عن سبب ذلك الإختلاف في رأيه فيقول "فإنه تناوله خبث حديد، وأعاده قلادة جيد، ولم يكف أبا الطيب بشاعة اللفظ في قوله "أعطية العيون حتى هجنه بتقديم ترتيبه تأخيره والتقدير من أنها عوامل عمل السيوف.(٦٦)

هكذا يرى الصفدي بيت المتنبى على الرغم من حبه له وإعجابه بشعره مع أن ابن تعاويذى قد أفاد منه وأخذ معناه كاملة.

وكثيراً ما يهزه قول الطغرائى في العديد من أبيات قصيدته اللامية فيبدى إعجابه بالكثير منها ويحاول جاهد البحث عن سر الجمال والإبداع فيها،فيعلق على قول الطغرائى:

"إن العلى حدّثتنى وهى صادقة".(٦٧)

وقد استعار الحديث للعلى، لأن العلى أمور معنوية لا تتصف بالكلام، ولكنه لما جرب وجود العز بالنقلة والحركة فصارت التجربة عنده علما استفاده، فصار كأنها حدثته بذلك، فأستد ذلك إلى العُلا، تعظيما للرواية في إسنادها إلى العُلا ليتلقاها السامع بالقبول وقوله"وهي صادقة" جملة اعتراضية اعترض بها وقد زاد الكلام حسنا لتأكيد الصدق عند المخاطب وهذا أبلغ من قوله إن العُلا حدثتنى "أن العز في النقل".(٦٨)

وعلى شاكلته قد كشف الصفدي بذوقه الأدبى السليم ما في كلام الأدباء وشعر الشعراء من حسن وقبح وكان ذوقه يستحسنه كل من كان له صلة بالأدب ونقده.

المصادر والمراجع للباب الرابع.

(١) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ٢٨٩/١.

(٢) طبقات الشافعية، تاج الدين السبكى، ٩٤/٦.

(٣) النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، ١٩/١١.

(٤) المنهل الصافى، ابن تغرى بردى، ٨٣/٢.

(٥) صلاح الدين الصفدي ومنهجه في دراسة النص الأدبي ونقده، الدكتور حسن ذكرى حسن، ص: ٥٨.

(٦) شذرات الذهب، ابن عماد، ٢٠٠/٦.

(٧) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ٧٩/١، ٨٠.

(٨) مقدمة جنان الجناس، صلاح الدين الصفدي، ص: ٦، ٧.

(٩) نصرة الثائر على المثل السائر، صلاح الدين الصفدي، ص: ٤١، ٤٢.

(١٠) المصدر السابق، ص: ٥٣، ٥٤.

(١١) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ٣٢١/١، ٣٢٢.

(١٢) عصر سلاطين المماليك، الدكتور محمود رزق سليم، ٤٠٧/٥، ٤٠٨.

(١٣) طبقات الشافعية، تاج الدين السبكي، ٩٤/٦.

(١٤) المنهل الصافى، ابن تغرى بردى، ٧٢/٢.

(١٥) مقدمة جنان الحناس ، صلاح الدين الصفدي، ص: ٧.

(١٦) فض الختام عن التورية والاستخدام، صلاح الدين الصفدي، ص: ٢.

(١٧) الغيث المسجم في شرح لامية العجم، صلاح الدين الصفدي، ٢٠/١.

(١٨) هذه المجموعة قصيدة للصفدي وأصلها ستون بيتا على حد قول الأستاذ حسن الكرمى في "قول على قول" جزء ـ ٢ ص: ١٩، وقد ذكر عنه الدكتور محمد صالح البنداق في كتابه "الجواهر المختارة من تراث العرب" ص: ٦٤-٦٧.

(١٩) جنان الجناس، صلاح الدين الصفدي، ص: ٣٧.

(٢٠) المصدر السابق، ص: ٤٠.

(٢١) المصدر السابق، ص: ٤١، ٤٢.

(٢٢) المصدر السابق، ص: ٧٥.

(٢٣) النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، ١١/١٩.

(٢٤) المصدر السابق، ص: ١١/٢٠.

(٢٥) المصدر السابق، ص: ١١/٢١.

(٢٦) المصدر السابق، ص: ١١/٢١.

(٢٧) المنهل الصافى، ابن تغرى بردى، ٢/٨٣.

(٢٨) البدر الطالع، محمد بن على الشوكانى، ١/٢٤٣، ٢٤٤.

(٢٩) المصدر السابق، ص: ٢٤٤.

(٣٠) خزانة الأدب، ابن حجة الحموى، ص: ٣٤٦، ٣٤٧.

(٣١) فض الختام عن التورية والاستخدام، صلاح الدين الصفدي، ص: ٦٥.

(٣٢) نصرة الثائر على المثل السائر، صلاح الدين الصفدي، ص: ١٦٣.

(٣٣) فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبى، ٢/٥٣٨ (هو مجير الدين محمد بن يعقوب بن تميم الإسعردى وهو سبط فخر الدين بن تميم، سكن حماة وخدم الملك المنصور وكان جنديا محتشما شجاعا مطبوعا كريم الأخلاق، بديع النظم، رقيقه لطيف التخيل. توفى بحماة سنة أربع وثمانين وستمائة).

(٣٤) المصدر السابق، ص: ٢/٥٣٩.

(٣٥) الغيث المسجم في شرح لامية العجم، صلاح الدين الصفدي، ١/٢٥٩.

(٣٦) المصدر السابق، ص: ١/٢٥٩

(٣٧) جنان الجناس، صلاح الدين الصفدي، ص: ٦٦.

(٣٨) نصرة الثائر على المثل السائر، صلاح الدين الصفدي، ص: ٣٧٥، ٢٧٦.

(٣٩) الغيث المسجم في شرح لامية العجم، صلاح الدين الصفدي، ٢٣٧/١.

(٤٠) المصدر السابق، ٩٠/١.

(٤١) نصرة الثائر على المثل السائر، صلاح الدين الصفدي، ص: ٩٥، ٩٨.

(٤٢) الغيث المسجم في شرح لامية العجم، صلاح الدين الصفدي، ٢٧/١، ٢٨.

(٤٣) نصرة الثائر على المثل السائر، صلاح الدين الصفدي، ص: ٧٣، ٧٤.

(٤٤) المصدر السابق، المقدمة.

(٤٥) المصدر السابق، ص: ١٨.

(٤٦) المصدر السابق، ص: ١٩١.

(٤٧) فض الختام عن التورية والاستخدام، صلاح الدين الصفدي، تحقيق الدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى، ص: ٦٠.

(٤٨) المصدر السابق، ص: ٧٥.

(٤٩) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ١١/١، ١٢.

(٥٠) كنوز الأجداد، محمد كرد على، ص: ٣٨٠.

(٥١) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ٥٠/١، ٥١.

(٥٢) هكذا في نسخ المصنف ولعله 'أبى'

(٥٣) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ٤٦/١.

(٥٤) المصدر السابق، ص: ٥٥/١.

(٥٥) المصدر السابق، ص: ٢١/١.

(٥٦) المصدر السابق، ص: ٢١/١.

(٥٧) المصدر السابق، ص: ٢١/١.

(٥٨) المصدر السابق، ص: ٤٠/١، ٤١.

(٥٩) الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلانى، ٢٠٨/٢.

(٦٠) كنوز الاجداد، محمد كرد على، ص: ٣٨١.

(٦١) مقدمة نصرة الثائر على المثل السائر لصلاح الدين الصفدي، محمد على سلطاني، ص: ٦.

(٦٢) المنهل الصافى، ابن تغرى بردى، ٢/١٧.

(٦٣) الغيث المسجم في شرح لامية العجم، صلاح الدين الصفدي، ١/٣٤٦.

(٦٤) ابن التعاويذى هو محمد ابن عبيد الله أبو الفتح شاعر بغدادى عاصر الدولة السلجوقية وسيطرتها على الخلافة العباسية وتوفى عام ٥٨٣هـ.

(٦٥) الغيث المسجم في شرح لامية العجم، صلاح الدين الصفدي،٢/٢٩.

(٦٦) المصدر السابق،ص: ٢/٢٩.

(٦٧) المصدر السابق،ص: ٢/٨٥.

(٦٨) المصدر السابق،ص: ٢/٨٥.

الباب الخامس.

دراسة نقدية لآثار صلاح الدين الصفدي.

الفصل الأول: النثر (وفيه مباحث).

المبحث الأول: في الأدب.

المبحث الثاني: في البلاغة.

المبحث الثالث: في النقد.

المبحث الرابع: في التاريخ والترجمة.

الفصل الثاني: الشعر.

المصادر والمراجع.

الباب الخامس.

دراسة نقدية لآثار صلاح الدين الصفدي.

يستطيع الباحث أن يزيل عن العصر المملوكى والعثمانى غبار التهم التي رمى بها المستشرقون وبعض الكتاب العرب إليه بأنه عصر الإنحطاط والإنحدار، وذلك حينما يقوم بالبحث والنقد عن آثار خالدة لأولئك رجال العلم والأدب الذين عكفوا حياتهم على التحلي بالعلوم والمعارف ثم أبرزوها على صفحات الكتب حتى عدوا من المكثرين المجيدين ويعد ما خلدوا من آداب وعلوم وفنون من أفضلها وأرقاها دقة ولذة وحسنا وبهاءاً. وكان من هؤلاء الكتاب الكبار المؤرخين المكثرين الذين لم يقنعوا بالقليل والذين وضعوا في تاريخ بلادهم وغيرها الموسوعات الجامعة وعلوما نافعة لا غنى عنها حتى في عصر النهضة الحديثة ، الأديب البارع والناقد الذواقة والمؤرخ الكبير أبو الصفا صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الذي تدل مؤلفاته الكثيرة في شتى الموضوعات من العلوم والفنون على نشاطه الجم وعلمه الغزير وصبره العجيب الذي ترك في عالم التأليف حوالى خمسمائة مجلد في الأدب والتاريخ والعلوم الأخرى، كما ترك أنه أكثر من ذلك في ديوان الإنشاء حيثه يقول هو نفسه "كتبت بيدى ما يقارب خمسمائة مجلدة ولعل الذي كتبته في ديوان الإنشاء ضعف ذلك".(١) وقال معاصره تاج الدين السبكى إن عدد مؤلفاته يتجاوز ست مائة مجلد على قول له حيث يقول " وصنف الكثير في التاريخ والأدب قال لى أنه كتب أزيد من ستمائة مجلد تصنيفا وكانت بينى وبينه صداقة منذ كنت صغيرًا".(٢) ولكن نرى معاصراً آخر له وهو ابن كثير فإنه يقول إن عدد مؤلفاته يبلغ إلى مائتى مجلد "وقد كتب الكثير من التاريخ واللغة والأدب وله الأشعار الفائقة والفنون المتنوعة وجمع وصنف وألف، وكتب ما يقارب مائتين من المجلدات".(٣) ومثله قال خير الدين الزركلى " كثير التصانيف المتعة له زهاء مائتى مصنف".(٤) ولأجل كثرة ما كتبه وصنفه عده محمد كرد على في باب التأليف من المكثرين المجيدين.(٥)

ولكن آثاره كآثار الأدباء والكتاب الآخرين لم تصل إلينا بتمامها فمنها مالم نسمع أسمائها ومنها ما سمعنا عنها، ولكنها فقدت وغابت عن صفحات الأرض فلم تدركها أيدينا ومنها مجهولة لم نطلع عليها باليقين. وأما الذي وصل إلينا فقد بلغ عدده ستين ونيفٍ ولكن أكثرها مخطوطة لم تطبع حتى الآن، فلم يمكن أن يطلع عليها ويستفيد منها كل الناس إلا أننا نقول إن مصنفاته وتأليفه جملة تقع في قسمين كبيرين: قسم مخصص للتراجم وقسم للأدب، أما المخصص للتراجم فإن الأساس فيه كتابه 'الوافى بالوفيات' في ثلاثين مجلد ولعله ليس لدينا معجم يفوقه اتساعا ويحوى الأشخاص من كل الطبقات حتى عصر الصفدي، وقد اعتمد فيه على مصادر كثيرة واعتمد في تراجم معاصريه على الروايات المسموعة وعلى المعرفة والمشاهدة، وكان يطلب إلى بعضهم أن يمدوه بمعلومات عنهم ليسجلها في كتابه ثم نفرغ عن هذا الأصل الكبير كتابه في تراجم المعاصرين وهو " أعوان النصر وأعيان العصر" ومن السهل أن نفترض أيضا أنه استخرج من تاريخه الكبير كتابه في تراجم مائة مليح وكتابه المسمى 'نكت الهميان في نكت العميان' وكتابه 'الشعور بالعور' فقد أصبح الوافى معتمداً هاماً لأكثر كتبه التي صنفها في تراجم صنوف من الناس فهي مأخوذة عن الوافى كما أنه أصبح معتمداً لكل من كتب في الطبقات والرجال بعد الصفدي، فاقتبس منه ابن حجر في الدرر الكامنة وابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة وغير هما في غيرهما.

وأما القسم المخصص بالأدب فإنه يشمل كتبا كثيرة تتناول بعض الموضوعات الصغيرة مثل 'جر الذيل في وصف الخيل' و 'كشف الحال في وصف الخال' و'ألحان السواجع' و'شرح لامية العجم' و'نصرة الثائر على المثل السائر' ومنها ما يتناول موضوعات بديعية مثل 'التنبيه على التشبيه' و'توضيح التشريح' و' جنان الجناس' و'فض الختام عن التورية والاستخدام' وهذه الكتب مليئة بالفوائد كثيرة الاستطراد محشوة بالنقول عن كتب كانت متيسرة لديه، ومن شاء أن يتصور الحياة الأدبيةوالفكرية في عصر الصفدي فلا غنى له عن النظر فيها.

ويجمع كتابه التذكرة الصفدية أو الصلاحية بين هذين الاتجاهين ففيه معرض كبير لما اختاره الصفدي من شعر ورسائل وكتب، ولم ينشر من هذا الكتاب إلا الجزء المتعلق بأمراء دمشق وعلى الجملة فقد بقي من آثار الصفدي قدر صالح، ويتبين منها أنه كان منقادا لروح عصره بكل مافيه

من فضائل ونقائض، فنقف هنا قليلا عند جميع آثاره المخطوطة والمطبوعة الموجودة على ترتيب الحروف الهجائية من حيث الموضوعات المرتبة في الكتب العلمية وتدر يسها دراسة نقدية بناء على النصوص الموجودة عندنا أو على ضوء أقوال وآراء النقاد والكتاب الذين درسوها واستعرضوها وصنفوا فيها كتبا قيمة ومقالات عديدة.

المبحث الأول: في الأدب:

الإنشا "كتاب الإنشاء:

مخطوط يتضمن منشآت الصفدي، يوجد في جامعة استانبول القسم العربى.

توشيح الترشيح:

ذكر ابن حجر العسقلانى هذا الكتاب بهذا الاسم.(٦) ولكن ابن تغرى بردى ذكره في المنهل الصافى المخطوط باسم "توسيع التوشيح".(٧)

وقد طبع هذا الكتاب في بيروت عام ١٩٦٦م بتحقيق الأستاذ ألبير باسم " توشيع التوشيح" وذكر الدكتو حسن ذكرى حسن أن نسخة من هذا الكتاب موجودة في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية.(٨)

جرالذيل في وصف الخيل:

هذا الكتاب مخطوط ذكره ابن حجر العسقلانى في الدرر الكامنة والشوكانى في البدر الطالع بهذا الاسم.

جلوة المذاكرة في خلوة المحاضرة:

هكذا ذكره محمد على سلطانى وعبد الاله نبهان وسيد الشرقاوى والدكتور محمدى عبد العزيز و خير الدين الزركلى وهو خطأ لأنه ورد بخط الصفدي باسم "جلوة المحاضرة في خلوة المذاكرة" كما يقول الدكور صلاح الدين المنجد 'جلوة المذاكرة وخلوة المحاضرة' كذا أثبته المحقق وهو خطأ فقد ورد في سماع الصفدي بخطه هكذا "جلوة المحاضرة وخلوة المذاكرة".(٩) هذا الكتاب لم يزل مخطوطا. وذكر الدكتور السلطانى أنه موجود في دار الكتب تيمورية ١٩٨. ١٦٨ أدب.(١٠)

حرم المرح في تهذيب ملح الملح:

لم نطلع على هذا الكتاب إلا ما ذكره عبد الاله نبهان في تحقيق كتاب" غوامض الصحاح للصلاح الصفدي.

حقيقة المجاز إلى الحجاز:

صور فيه صورة رحلته ، ذكره صاحب المنهل الصافى.(١١)

خلع العذار في وصف العذار:

ذكره البغدادى في هدية العارفين.(١٢)

رموز الشجرة النعمانية:

قد ذكرها الكتاب محمد على سلطانى في تحقيق كتاب الصلاح الصفدي 'نصرة الثائر على المثل السائر' في مصنفات الصفدي واعتمد فيه على هدية العارفين حيث قال " رموز الشجرة النعمانية" وهو مخطوط ورد في هدية العارفين ٣٥١/١ وفى دائرة الكتب الظاهرية بدمشق ورد باسم " شرح الشجرة النعمانية في الدولة العثمانية ، رقم. ٨٧٣١ و٦٢٣٢ و ٧٣٣٠.(١٣) وكذا الدكتور المحمدي عبد العزيز الحناوى في تحقيق كتاب الصفدي 'فض الختام عن التورية والاستخدام' وعبد الاله نبهان في تحقيق كتاب الصفدي 'غوامض الصحاح' والسيد الشرقاوى في تحقيق كتاب الصفدي 'تصحيح التصحيف وتحرير التحريف'.

ولكن المحقيقن يشكون في أنه من مصنفات الصلاح الصفدي فإنه لم يذكر أحد من قدماء الكتاب أنه من مصنفاته ، وقد أكّد الدكتور صلاح الدين المنجد بأن هذا الكتاب ليس للصلاح الصفدي بل إنه للشيخ محى الدين ابن عربى حيث يقول "رموز الشجرة النعمانية" أورد المحقق (محمد على سلطانى) هذا الكتاب في مؤلفات الصفدي، وليس له "فالشجرة النعمانية في الدولة العثمانية" كتاب ينسب إلى الشيخ محى الدين بن عربى الفيلسوف المتصوف المتوفى سنة ٦٣٨هـ " وهو فى ذكر حوادث الزمان المنبعثة من تأثيرات الإقتران وحركات الأفلاك في الدوران وكله حروف ورموز وعندنا مخطوطة منه ، كتبت سنة ١١٠٠هـ وفي ذيلها شروح. للكتاب لابن عربى نفسه ،

وللصدر القونوى، وللشهاب المقرى وللصلاح الصفدي، وقد رجعنا إلى الكتاب المنسوب إلى الصفدي فوجدنا في أو له ما يلى:

" شرح رموز الشجرة النعمانية للصلاح الصفدي نفعنا الله به وببركاته في الدينا والآخرة ...."

وما كدنا نقرأ الورقة الأولى حتى جزمنا بأن الكتاب ليس للصلاح الصفدي، فقد وجدنا صاحبه يقول: ولما رأيت في تلك الشجرة من الرموز والألغاز ما يحتاج إلى البيان والإيضاح زيادة على ما يفهم من مضمونها توجهت إلى الله عزوجل بنية صادقة وسألته المعونة على ذلك، فلم تمض أيام قليلة واجتمعت بفرد من أفراد العالم يقال له محمد بن على ابن محمد التونسى وجدته بمقام الشيخ رسلان بمحروسة دمشق في سنة ثلاث وسبعين و سبعمائة (٧٧٣) فذاكرنى وذاكرته في علوم شتى من جملتها أنى سألته عن الشجرة النعمانية......" فهذا الأسلوب ليس أسلوب الصلاح الصفدي الأديب ثم أن صاحب الكتاب كان حيًّا سنة ٧٧٣ والصلاح الصفدي توفى سنة ٧٦٤.(١٤)

زهر الخمائل وذكر الدلائل:

لم نفلح بمصدر يثبت أن هذا الكتاب لصلاح الدين الصفدي إلا ما ذكره ابن تغرى بردى في المنهل الصافى، وقال إنه مخطوط وتبعه في ذلك السيد الشرقاوى في تحقيق 'تصحيح التصحيف وتحرير التحريف' وكذا ذكر عبد الاله نبهان في تحقيق 'غوامض الصحاح' للصفدي إلا أنه ذكر "زهر الخمائل وذكر الأوائل" مكان "زهر الخمائل وذكر الدلائل".

شرح الجهورية:

لم نفلح بمصدر يثبت أن هذا الكتاب للصلاح الصفددي إلا ما ذكره الدكتور رمضان ششن في نوادر المخطوطات وذكر أن منها نسخة في تركيا فيض الله ٩/٢١٥٨ كتبت سنة ١٠٤٤هـ من ٣٠٧أ إلى ٣٨٣ب.(١٥) وتبعه ذلك عبد الاله نبهان. ولكن يمكن أن يكون هذا الكتاب نفس كتاب الصفدي "تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون".

صرف العين عن حرف العين:

هكذا ذكره في هدية العارفين وقال إنه موجـود في دار الكتـب العموميـة.(١٦) وذكـر محمـد علـى سلطانى باسم "صرف العين عن صرف العين في وصف العين " وهو خطأ كما قال الدكتور صـلاح الدين المنجد فإن من هذا الكتاب مخطوطة في بايزيد عمومـى رقمـها ٦٨٣٢ـ أثبـت الاسـم عليـها هكذا " صرف العين عن حرف العين.(١٧) (بصاد وحاء) وهذا الكتاب موضوع في الأدب.

صورة رحله:

لم نطلع على هذا الكتاب ولم نتأكد بمصدر يثبت أن هذا الكتاب للصلاح الصفدي إلا ابن خطيب الناصرية ذكر أنه كتابه.(١٨)

طراز الألباب:

وهذا الكتـاب كالكتـاب السـابق ذكـره ابـن خطيـب الناصريـة في الـدر المنتخـب ولم يذكـر أحـد المترجمين القدماء للصفدي إلا أن تغرى بردى ذكـر في المنـهل الصـافى هـذا الكتـاب باسـم طـراز الألغاز.

طرد السبع عن سرد السبع:

ذكره ابن خطيب في كتابه الدر المنتخب وقال: إنه في أربعة مجلدات، ذكره الدكتور صلاح الدين المنجد وقال: إنه مخطوطة في يني جامع، رقم ٩٨٤ كتبت سنة ٨٣٨هـ.(١٩)

عبرة اللبيب بعثرة الكئيب:

وذكره بروكلمان عبرة اللبيب بمصرع الكئيب ومنه نسخة في دار الكتاب المصريةالتيمورية.

غرة الصبح في اللعب:

لم يذكر هذا الكتاب في مصنفات الصلاح الصفدي إلا صاحب الدر المنتخب وتبعه فيه عبد الالـه نبهان في تحقيقه لكتاب الصلاح الصفدي 'غوامض الصحاح'.(٢٠)

الفضل المنيف في الولد الشريف:

هكذا ذكره ابن خطيب الناصرية في كتابه الدر المنتخب وتبعه فيه عبد الإله نبهان في تحقيق كتاب الصلاح الصفدي "غوامض الصحاح".(٢١) ولكن ذكر تغرى بردى أن اسم الكتاب "الفضل المنيف في المولد الشريف" كذلك ذكره السيد الشرقاوى في تحقيق كتاب 'تصحيح التصحيف وتحرير التحريف' للصفدي.(٢٢)

قانون الترسل:

لم نطلع على أحد يعد هذا الكتاب في مصنفات الصلاح الصفدي إلا ما ذكره ابن خطيب الناصرية في كتابه الدر المنتخب، وعبد الإله نبهان في تحقيق كتاب الصلاح "غوامض الصحاح".(٢٣)

كشف السر المبهم في لزوم ما لا يلزم:

هو مخطوط منه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٧١٥١.(٢٤) ولم نطلع على أحد نسب هذا الكتاب إلى الصفدي.

لوعة الشاكى ودمعة الباكى:

هذا عنوان كتاب للصفدي في ٤٨ صفحة من القطع الصغير وقد طبع مراراً. طبع أول مرة سنة ١٢٧٤هـ ثم سنة ١٢٨٠ في تونس ثم طبع في الأستانة فالقاهرة فهذا يدل على سعة انتشاره، وهو في الحقيقة مقامة قصصية تصف رحلة الكاتب ومعه أحد أصدقائه إلى رياض آهلة وسرد فيه قصة في صورة مقامة أدبية في المحبة والعشق وفيها قصائد قيلت في الغلام الذي عشقه صاحبه.

وبدأ الصفدي كتابه هذا بمقدمة مملوءة بالمحسنات البديعية فإنه قال: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ولابدّ من شكوى إلى ذي مروءة• يواسيك أويسليك أو يتوجع (أما بعد)

حمد الله الذي قضى بالمحبة والولوع. وحكم بإحراق كبد كل عاشق ووعلو وبهوان أهل الهوى فلم يفرحوا بهجوم الهجوم. وأمر بشقاهم إذ شقاهم كأس التفرق والتشوق والتحرق والدموع

والصلوة والسلام على سيدنا محمد صاحب قدر العلم المزيد والحلم المديد والبطش الشديد والـرأى السديد القائل وقوله يدنى من بلغ الحكمة كل بعيد، من عشق وكـم وعـف فمـات فـهو شـهيد، صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه الذيـن بذلـوا المـهج في محبتـه ولم يتبعـوا غـير طريقتـه، ولم يبتغواسنته، ما هبت نسمات الصبا فتروح الصب إليها. وتمشت من ديار الأحبة فجـرت دموعـه عليها ثم أنى أعرف إخوانى وأصحابى وخلاتى وأترابى. سلمهم الله من سطوات العشق ونهباتـه وروعة الحب وحسراته ودواعي الهوى وهجومه، وحديث الوجد وقديمهوولوع القلـت واشتغالـه، ومسكنته وذله واشتغاله. ومرارة فراق الحبيب وفقده. وما يقاسيه المقيم بعد بعده وما يكـابده مـن تجرّع كؤس هجرة وصده. وما يحصل عليه من وجود شتاته. وعدم سناته وما تذكيه نـار المحبـة من همول مقلتيه وتصاعد زفراته وما يبديه الغرام من تواتر أحزانه وتزايـد حسـراته. ومـا يجنيـه البعاد من تتابع أنفاسه وتواصل أثاته. فمعانيه مقهور بالأوجاع والأوجال. مأسـور بحبـائل الفـتن وأغلال الأغلال، ولا ينهض بمقاساته إلا الفحول من الرجال، ويضعف عنه كل ضعيـف نشـأ في النعيم والدلال. ولقد أجاد من أوضح هذا المقال حيث قال:

هوى بين الملاحة والجمال * يقاسيه القوىّ من الرجال.

ويضيف عنه كل ضعيف قلب * تربى في النعيم وفى الدلال.(٢٥)

ثم حدث الصفدي في مقامته هذه بأنه كان يصف نفسه يخلوها من العشـق والهيـام إلى أن صـادق جماعة من الغلمان الأتراك فأصابه بهم مس من الهوى وخاصة من أحدهم، ثـم أتيـت لـه فرصـة خلوة به. فعنفه غلامه هذا على حبه. بعد أن كان يزجر المحبين من قبله فادعى لـه أن الحـب قدر محتوم وقضاء مقسوم. ثم طفقا يتناجيان الغرام واللوعة، يتبادلان اللثمة والدمعة كـل ذلـك في ألطف عبارة وأجمل إشارة. وقد ذكر الصفدي وصف هذا الغلام وقوله له بعبارة أنيقة حيـث قـال "فبدأ بينهم ظبى كأنـه بـدر سـافر أو غـزال نـافر. فاقـهم حسـنا وظرفـا. وفاتـهم رشاقـة ولطفـا. قدتقمص بالحسن وارتدى بالجمال. وتسربل بالغنج وتمنطـق بـالدلال إن تبدى أنكـرت البـدر في تمامه أو تثنى لم تعرف الغصن من قوامه أو رنا لم تدر أسـحر بـدأ أو نصـال. أو التفـت لم تذكـر

بعدها جيد الغزال. قد أسهر العاشق بطرفه الوسنان وفتن الرامق بقده الفتان. وأطار الفؤاد على مائس غصن قده، وأوهي جلد الكئيب المستهام بحل عقدة بنده.

من الترك لو عاينت ذلى وعزه * لعاينت مولى لا يرق لعبده.
أحب التفات الظبى حبا لجيده * وأعشق غصن البان حبا لقده.
رعى الله هاتيك الشمائل إنها * لبانةمن يهوى وغاية قصده.
أيا سقمى أعياك رقة خصره * ويا جلدى أو هاك عقدة بنده.

فحين رأيته خطف قلبى. وأضعف صبرى وضاعف كربى وتهت في مهالك الوجد وموامه الغرام. وبت أتفكري لطف هاتيك الشمائل. وهيف ذلك القوام. وحرت عن معاينة هاتيك العيون الرواشق. وهمت في رقة ذلك الخصر وقراطق المناطق. وشغلنى الهوى عن التماسك والتقية. وقادنى الوجد والغرام قود المطية. وملت بعد الراحة إلى التعب. وبعد الترفة إلى الشقاء والنصب. ووقفت في مصايد مصائب الوسواس. وهونت ما كنت أستصعبه من لوم مناس.
وجريت في مجال ميدان التصابى كالصبا. وذهبت في مناكب العشق مذهبا" الخ ـ
وما زال الصفدي يصف عشقه وولهه، ويجيد في استعطاف معشوقه واسترقاقه، حتى استطاع أن يلينه ويعطفه نحوه، فظل يشكوله غرامه وهيامه حتى وصل إليه فقال:
" فضممته إلى صدرى ضمة وأى ضمة. وبادرته بلثمة بعد لثمة. فسلم إليّ في اللثم وفي الرشف قيادى وأبلغنى من الضم والقبل مرادى. وقال: أيحتك نفسى هذه الجلسةوسلمتك أمرى هذه الخلسة. قبس ما استطعت أن تبوس وأزل بالعناق مالك من عناء وبوس. فبادرت في امتثال أمره، وتنقلت من برد ثغره ونجد ردفه إلى غور خصره:

يا طيب يوم ظلت فيه معانقا * من أشتهي قد كان يوماً أزهرا.
واصلت فيه معذبى ولثمة * ألفا على وجناته أو أكثرا.
ويعز، والله العظيم، عليّ أن * أصف الذي قد كان منى أجرى.(٢٦)

فالمقامة قصصية وصيفة، بين غزل عريق، ومجون رفيق رقيق، وهكذا استطاع الصفدي في مقامته هذه أن يسلك الغزل بين أغراض النثر في أسلوب بديعى تتخلله الأبيات الشعرية المناسبة من

نظمه، ولا يعاب الصفدي في تغزله بالمذكر لأنه ليس بحادث جديد في عصره وإنما هو ظاهرة موروثة رادتها الظروف الاجتماعية في ذلك العصر لكثر ما عجّت به والأسواق والدور من غلمان الأتراك وما اتسموابه من حسن وجمال ودقة وملاحة ورضاء واستسلام.

ويبدو للباحث عن مقامة الصفدي هذه أنه قد أفرط في مدح غلام من الغلمان وقد أطال الكلام عن هذا الموضوع الذي كان يحترز عنه.

المثاني والمثالث:

ليس من المتأكد أن هذا الكتاب لصلاح الدين الصفدي لأننا لم نطلع على مصدر مدعم يثبت أنه للصفدي. ولكن تغرى بردى ذكر في كتابه المنهل الصافى أنه من مصنفات الصلاح الصفدي، وتبعه الدكتور المحمدى عبد العريز الحناوى.(٢٧) وذكر ابن خطيب الناصرية في كتابه الدر المنتخب ولكنه ذكر اسم هذا الكتاب" المثالث والمثانى" وتبعه فيه عبد الاله نبهان وقالوا إنه كتاب مقاطيع ونظم.

المجاراة والمجازاة:

ذكر ابن خطيب الناصرية أنه في مجلدين. وذكر الدكتور سلطانى باسم المنتقى من المجاراة والمجازاة.وقال وهو مخطوط. وورد في الدرر الكامنة ٢٠٨/٢ باسم " المجارة والمجازاة في ماجريات الشعراء".(٢٨) وهذا المخطوط موجود في طوب قبو سرايى. ويمكن أن يكون المنتقى من المجاراة والمجازاة مختصرا من المجاراة والمجازاة فهو الأصل.

المحاورة الصلاحية في الأحاجى الاصطلاحية:

لم يذكره أكثر المترجمين المتقدمين وذكره بروكلمان. الإسكوريال ٤٣٢.

المقترح في المصطلح:

لانتأكد أن هذا الكتاب للصلاح الصفدي لأن المصادر القديمة ساكتة عنه إلا أن تغرى بردى ذكره في كتابه المنهل الصافى وابن خطيب الناصرية في الدر المنتخب. وتبعهما عبد الاله نبهان والسيد

االشرقاوى والدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى في تحقيقهم لكتب الصفدي 'غوامض الصحاح' و'تصحيح التصحيف' و'*فض الختام عن التورية والاستخدام*'.

منشآت الصفدي:

مجموعة مقالات أو رسائل على لسانه، أولسان الأشرف أو غيره، وتواقيع وتقارير رسمية ومناشير ونحو ذلك، ويشتمل على كثير من الفوائد الاجتماعية والعادات السياسية والتاريخية. وفي بروكلمان أن هذا المخطوط يوجد في القاهرة أول ٣٣٤/٤ وموشح. جوتا ٣٦ وفي دار الكتب المصرية تيمورية ٤١١ أدب باسم قانون الترسل.(٢٩) وليس من المتأكد أن هذا الكتاب هو نفس كتابه "قانون الترسل" وإن كان بروكلمان قد ذكره هنا والنسخة التي موجودة في دار الكتب المصرية تحمل ١٤٠ صفحة.(٣٠)

نجم الدياجي في نظم الأحاجي:

مخطوط نسب تغرى بردى في *المنهل الصافي* وابن خطيب الناصرية في *الدر المنتخب* هذا الكتاب إلى الصفدي، ولم نطلع على أحد من المعاصرين للصفدي والقدماء من الكتاب يذكره ومن المحدثين المحققين لكتب الصلاح الصفدي نجد عبد الاله نبهان وسيد الشرقاوى والدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى ذكره في مصنفات الصلاح الصفدي.

المبحث الثاني: في البلاغة:

اختراع الخراع:

هذا الكتاب مخطوط، موجود بدار الكتب التيمورية بالقاهرة ومنه نسختان في تركيا:

- رئيس الكتاب ٢/٨٠٥ كتبت في القرن الحادى عشر.
- كتاهية، وحيد باشا، رقم ٦٥٣ كتبت في القرن الحادي العشر.
- دار الكتب الوطنية بتونس، مصور في معهد المخطوطات العربية بالكويت.(٣١)

قال محقق هذا الكتاب هو شرح مفصل لأشعار مع تعليقات في علوم اللغة والعروض، ولكن كتب الأستاذ على الطنطاوى عن هذا الكتاب عدة مقالات في مجلة الرسالة المصرية فعدل عن هذا التعريف حيث يقول "هذه الرسالة هي في شرح بيتين من الشعر شرحهما المؤلف شرحاً مستفيضا حلاه بالنكات اللغوية، والمسائل النحوية،والطرائف الأدبية والآراء الفسلفية، وزينه بالحكم الباهرة، والأمثال السائرة ولكنه وتلك ميزه الكتاب، تعمد الايأتي إلا بما هو خطأ محرف من أصله، معدول به عن جادة الصواب، فلا بيت ينسب إلى صاحبه ولا كتاب إلى مؤلفه ولا مسألة تورد على وجهها. ولا بلدة توضع في موضعها. وقد أورد ذلك كله بحذق ومهارة ولباقة وظرف...(٣٢)

وكان الأستاذ الطنطاوى قد وصف هذا الكتاب عن نسخة مخطوطة كانت عند الأستاذ أحمد عبيد بدمشق.(٣٣)

جنان الجناس في علم البديع:

طبع في إستانبول سنة ١٢٩٩هـ ومنه نسخة موجزة بعنوان "نزهة الخلاص في علم الجناس" مخطوطة في برلين ٧٣٣٣.(٣٤) وذكره الدكتور صلاح الدين المنجد أن نسخة منه في شستربتى بدبلين رقم ٣١٠٣ كتبت سنة ٧٥٢ بحياة المؤلف.(٣٥) ثم طبع هذا الكتاب في مطبعة الجوائب بالقسطنطنية سنة ١٢٩٩هـ ثم طبع ببيروت في دار الكتاب العلمية سنة ١٩٨٧م بتحقيق سمير حسين حلبى.

قد تحدث فيه الصفدي عن الجناس باعتبار أنه لون من ألوان البديع ثم تناول تحديده والكشف عن أنواعه ومنزلته بين ألوان البديع الأخرى،وقد ذكر الصفدي محاسن فن البديع وفضل الجناس فيه بقوله "وبعد فلما كان فن البديع في الزمن المتأخر أحسن بدعة وأوضح لمعة وأملح طلعة وأكثر رواية وسعة ولا أقول ريآء وسمعة به تبنى بيوت الشعر في أشرف بقعه وتبرز أبكار الأفكارمنه في خلعة بعد خلعة، وإذا كان الشعر بحرا فهو منه أعذب جرعه المكاتبات حلة مرقومة فهو طراز كل رقعة. خصوصا نوع التجنيس الذي هو ركن شريعته وبيان شرعته وديباجة صنعآئه في صنعته. وآية سجدته و غاية سجعته وغياث نجدته وغيث نجعته تشهد الخطباء له بفضل جماعته وجمعته وتتعرف الشعراء برفع محله ومحل رفعته، وتدخل به الألفاظ الفصيحة الأُذن بغير إِذن لشفاعته حقه وحق شفعته فله في كل خلوة جلوة وفى كل خطوة خطوه.(٣٦)

وألف الصفدي هذا الكتاب حينما كان يخالف معاصريه من البلغاء في تفضيل صناعة الجناس وكان هذا الأمر قد أثار اختلافا بينا بينه وبين معاصريه، وهناك أمر أخر يدل على شغفه بالبديع خاصة الجناس وهو أنه حين افتتح كتابه هذا بدأه بديباجة كلها ألوان بديعية من سجع وجناس وتورية ونحو ذلك كمانراه في قوله "الحمد لله الذي رفع في فن البديع جناب جناسه وملك من شآء من البشر قياد قياسه، وأعلى مقداره للأديب إلى أن قاس المسك الاذفر بأنقاسه، وحرك البليغ في الإنشاء لأن جاس خلاله الطاهرة من أنجاسه، وفتح على فرسان النظم والنثر بالأنفال من أنفاسه، ووهب لمن شاء السبق إلى البلاغة على أفراد أفراسه، ونصركتائب الفصاحة بأجناد أجناسه، وبعث إلى النفوس اللطيفة أطراب أطراسه، نحمده على ماخص به من اللغة التي لا يزال جلالها وجمالها يروع ويروق، وأتحف به من الآداب التي لا تبرح رياضها وحياضها تفوح وتفوق، وفتح به من الألفاظ التي تسوم البلاغة وتسوق، ومنح من المعانى التي تعوج عن الفهاهة وتعوق، حمدا يذوب حلاوة لمن يذوق، ويشوب بالطرب سمع من يشوق".(٣٧)

وقد بنى الصفدي كتابه هذا على مقدمتين ونتيجة:

أما المقدمة الأولى فقد اشتملت على:

١- تسمية الجناس واشتقاقه.

٢ـ تصرف مادة الجناس، أى حروفه وما يتصور من تراكيب المادة بتقديم بعض الحروف على بعض ألوان مختلفة.

٣ـ آراء بعض العلماء فى تعريف الجناس وبيان ما يقبح منه وما يحسن.

وأما المقدمة الثانية فقد اشتملت على:

أنواع الجناس وتسميتها وكيفية انقسامها وحصرها بدليل السبر والتقسيم.

وقال الصفدي: "إن هاتين المقدمتين يسميان بالعلم".(٣٨)

وأما النتيجة:

وقد سماها العمل، فهي ثمرة ما تقدم فيما ذكره من المقدمتين. أى أنها عنده شعر نظمه في شواهد الجناس الذي قسمه ونوعه وبينه في المقدمتين، وقد رتب شعره هذا حسب حروف الهجاء بادياً بالهمزة ومنتهيا بالياء.

يؤخذ على الصفدي هنا: أنه لم يبين نوع الجناس ولا محل الشاهد في جميع مانظمه، بل ترك ذلك للقارى، كما يؤخذ عليه أنه أكثر من التكلف في نظمه للجناس وأكثر من قسره المعنى لما يريده من الجناس حتى جاءت أشعاره ركيكة مملة، وإن كان قد يدل على طول باعه في معرفة ألوانه وأقسامه.

وعلى أى حال أن الكتاب يثنى عليه نخبة من كبار الأدباء والكتّاب المتقدمين والمحدثين، فمن المتقدمين من أثنى عليه بعبارات نثرية وتقريظ شعرى كما نرى أحمد بن عبد الله الملقب بالمترجم وهو من أهل القرن الثامن الهجرى يقرّظ الكتاب بأشعار مرقصة حيث قال:

زينة المرء بيان المنطق * مقرنا منه بحسن الخلق.
وأخص الناس فيه رجل * نظم الحكمة نظم النسق.
في جنان من جناس زخرفت * بجنان من لسان زلق.
أو دعتها كفها في دعة * وأمان في بطون الورق.
كنظام الدرّ من أنواعه * زينة في صفحات العنق.
راكبا أسودها أبيضها * كركوب الليل متن الشفق.

فبياض في سواد جللت * وسواد في بياض يقق.
نطقت وهي جماد كلها * وعجب نطق من لم ينطق.
حملتنا بعدة ألفاظه * في اصطلاح الشعر مالم نطق.
كل معنى دق فيها فاختفى * عن سنا الفكر ونور الحدق.
في افتراق اتفاق قصده * فاغن بالمفترق المتفق.

******

أيها الطالب يبغى شأوه *حكم العلم بأن لم يلحق.
لست تدرى من تجارى فاتئد * أنت والبرق معافى طلق.
لودى نطقك قس لم يقل * أيها الناس اسمعوا منطق.

******

دمت للناس صلاحا، ماشدت * فوق غصن صادت الورق.(٣٩)

ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء:

قال المحقق لكتاب " نصرة الثائر على المثل السائر" للصلاح الصفدي محمد على سلطانى عن هذا الكتاب هو منتخبات من الشعر والنثر ألفه للسطان الأشرف الأيوبى، وهو مخطوط، ويشير بروكلمان إلى أنه بخط المؤلف في فيينا ٣٨٩.(٤٠)

ولكن رده الدكتور صلاح الدين المنجد وقال " وهذا خطأ كبير، لأنه إذا ذكر السلطان الأشرف الأيوبى عرف أنه السلطان موسى بن العادل بن أيوب، بانئ الأشرفية، أعنى دار الحديث بدمشق وصاحب التربة الأشرفية غرب قبر السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب وقد توفى هذا بدمشق سنة ٦٣٥هـ والصلاح الصفدي ولد سنة ٦٩٦هـ أى بعد وفاة الأشرف بأكثر من ستين سنة، فكيف رآه واجتمع به وألف له الكتاب؟(٤١)

ويقول خير الدين الزركلى عن هذا الكتاب "ديوان الفصحاء ـ خ مجموع في الأدب".(٤٢)

فض الختام عن التورية والاستخدام:

هذا الكتاب للصلاح الصفدي في لونين من ألوان المحسنات البديعية هما التورية والاستخدام إلا أنه يستطرد في بعض أمور خارجة عن موضوع الكتاب، كما أنه يعرض لمسائل بلاغية ونحوية تتصل اتصلا ما بفن التورية والاستخدام وأنواعها، وتوجد نسخة من هذا الكتاب في الإسكوريال ٢١٩ وكوبريلى ١٣٥١ وغير ذلك، ومنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات في الجامعة العربية بلاغه. ٤٨ وكذلك في دار الكتب المصرية. ٢٤٠، ٢٤١ والمكتبة الأزهرية. ٢٦١، ٦٧٨٨.(٤٣)

ثم طبع هذا الكتاب باعتناء وتحقيق الدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى سنة ١٩٧٩م واهتم بنشره دار الطباعة المحمدية.

وقد أورد الدكتور المحمدى أدلة عدة تثبت متأكدة أن الكتاب للصفدي وهذه أدلته:

(١) قول الصفدي نفسه: وقد وضعت كتابا في التورية وسميته 'فض الختام عن التورية والاستخدام' فإن أردت أن تكشف عن ماهية ذلك وتقف على محاسنه، فقف عليه لعله يكون فيه لك زبدة أو تجد فيه ما ترونه نجدة.

(٢) وجد في وجه وفى ظهر الورقة الأولى من مخطوطة 'فض الختام عن التورية والاستخدام' التي تحمل رقم ٤٨ بلاغة المصورة من تركيا وهي موجودة بمعهد المخطوطات وقد اعتبرها هي الأصل في التحقيق، وجد ما يدل على أن الصفدي أجاز هذه المخطوطة الموسومة "بفض الختام عن التورية والاستخدام" والتي قرأها عليه عالمان فاضلان هما: بهاء الدين عبد الله بن القاضى تاج الدين أبو الخير محمد الموصلى الحنبلى، والقاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الصاحب المدبر القاضى محي الدين بن فضل الله القرشى العمرى العدوى.

(٣) كذلك نسب ابن حجة الحموى للصفدي كتاب 'فض الختام عن التورية والاستخدام' إلا لينقد به كتاب الصفدي هذا ويبطل وجهات نظرة.

(٤) كذلك ذكر بعض المؤرخين كتاب 'فض الختام عن التورية والاستخدام' ونسبوه إلىالصفدي، ومن هؤلاء المؤرخين الزركلى في كتابه الأعلام وابن حجر في الدرر الكامنة وابن تغرى بردى في المنهل الصافى.(٤٤)

والكتاب المذكور وضعه الصفدي في فن البلاغة لفرط شغفه بهذا الفن، وقد بدأ كتابه بمقدمة تحدث بعد حمد الله والصلوة على رسوله عن أنواع البديع وفضل التورية والاستخدام فيها ثم ذكر أن قدماء الشعراء لم يقصدوا البديع في شعرهم وإنما يقولون بطباعهم. ثم يبين أن كثيرا من المتأخرين سلكوا سبيل التورية شعراء وناثرين وأن القاضي الفاضل هو الذي ذلل صعابها ومهد لها بالأمن مخاوفها ثم أشار إلى من اشتهر في التورية والاستخدام من علماء مصر والشام، وأن بعضهم قد فاقوا المتقدمين وقد بين الصفدي سبب اختصاص أهل مصر والشام بهذه الخاصة البديعية هو الماء والهواء ويبين أنهما أصل كبير في اللطف والذكاء قائلاً "أما أهل مصر فقد شربوا ماء النيل، وهو أحد أنهار الجنة وترشفوا منه حلاوة لا تكون حشا القطر مستجنة، كما قال فيه بعض واصفيه كأنه طحينة وماءه العسل...."

وأما أهل الشام فقد تنسموا هواءهم وهو كما جاء في وصف هواء الجنة إنه سجسج وكيفما شردت خافقاته فمالها عن الثلوج أو الرياض مخرج فيكتسب من هاتين صفة الطيب والرطوبة وتستلذ الأنفس عبثه وهبوبه..."

ثم يذكر أشعارا في وصف جمال النيل وأثره على سكان مصر، ثم وصف بلاد الشام وأثر هوائها الرطيب على جوها. ينتهي بنتيجة هي: أن أهل مصر وأهل الشام حصلت لهم اللطافة دون غيرهم من أهل الأمصار لأنه ثبت أن ماء النيل أجود المياه. وهواء الشام أجود الأهويه، فانعكس ذلك على طباعهم، وجادت قريحتهم بما لم يجد به غيرهم. ويبرهن على ذلك بترسل القاضي الفاضل الذي صبغ بحلي البلاغة والحلاوة. حتى لتكاد ألفاظه يرشفها السمع راحا. ويمد النسيم عليها من الرقة جناحا. لأنه من بيسان الغور إحدى بلاد الشام، ثم أحب مصر وتخيرها، وسكن ربوعها فحصل اللطف من هنا وهناك.(٤٥)

فقد اتضح من كلامه أن السبب لبراعة أهل مصر والشام في البديع هو ماء النيل في مصر وهواء الشام فيها، ولكن للباحث أن يقول إن هذا ليس السبب الرئيسى لأن لو قلنا إنّ كلاّ منهما سبب رئيسى أو أصلى في رقى التورية وازدهارها لكان لزاما علينا أن نحكم بأن فن التورية رقى وسما ليس فقط في عصر المماليك، وإنما في جميع عصور الأدب في مصر والشام، ولحكم النقاد والأدباء

بذلك لأن السبب الرئيسى وهو الماء والهواء موجود في كل العصور ولم يحكم بذلك أحد. بل إن الموازنة بين نتاج عصور الأدب تدلنا على أن عصر المماليك كان العصر الذهبى لجمال التورية وما شاكلها كالطباق والتضمين والاقتباس، دون عصور سابقة أو لاحقة، باستثناء ما جاء من ذلك ساذجا أو عاميا مبتذلا أو مخالفا لقواعد لغوية أو ما أشبه ذلك، إذن هناك سبب أو أسباب ساعدت وتضافرت مع ماء النيل أو هواء الشام حتى سما هذا الصبغ البديعى وما شابهه.

وبعد أن عرض الصفدي مقدمة كتابه التي تحدثنا عنها آنفا بين السبب الذي ألف لأجله الكتاب حيث قال: "وقد أحببت أن أصنع في نوع التورية والاستخدام موضوعا يكشف عنهما النقاب ويرفع عن محياهما البدرى حجاب السحاب، فأبتدأ بعون الله في هذا التأليف الذي وضعته عجيبا، وأتحفت به من أصبح بالأدب في الناس غريبا".(٤٦)

فقد أشار إلى أن سبب تأليف الكتاب هو أن يضع في التورية والاستخدام كتابا ليبرزهما بعد أن ظلا محجوبين، ويخرجهما على غير مثال سبق، حتى يكون الكتاب بذلك عجيبا ومبتكراً وتحفة فريدة للكتاب والشعراء ولذلك نراه قد سماه "فض الختام عن التورية والاستخدام".

ويلوح لنا من دراستنا كتابه هذا أن له في كتابه 'فض الختام عن التورية والاستخدام' قدرات علمية تظهر في حسن عرضه للموضوعات التي يتناولها وبراعته في مناقشة الآراء وفي ترجيح ما نراه مدعما رأيه بأدلة علمية لغوية أو نحوية أو صرفية أو بلاغية أو ذوقية أو نحو ذلك، مما يؤكد أن له أصالة أو شخصية في بحوثه، وإن كان يقلد في أمور كثيرة ويتأثر بما قاله السابقون من البلاغيين والنقاد شأنه في ذلك شأن مؤلفى عصره الذين جمعوا بين الأصالة والتقليد والابتكار التأثر ونلمح هنا إلى موضوعات كتابه هذا واستعراضه إياها لتتضح بها مدى قدرته العلمية في البلاغة والنقد وهي:

" اختلاف البلغاء في اسم التورية" فإنه بحث عن إطلاق لفظ التورية ثم عرض لمسمياتها عند البلاغيين ونقدها، وقد أشار إلى أن جماعة من قدماء البلاغيين منهم السكاكى وعبد القاهر الجرجانى سموا هذا النوع إيهاماً فنقد رأيهم مستنداً فيه على المعنى اللغوى للفظ الإيهام أو التوهيم وينتهي الصفدي هذا البحث بمقارنة هي أن الإيهام أو التوهيم عام بالنسبة للتورية وهنا

لفّ الصفدي أوراقه عن توضيح الفرق بين التورية والتوهيم توضيحا يقتنع به القارى فنحن نقول إن الفرق بينهما يكون من وجوه ثلاثة كما صرح به الدكتور حفني شرف ونقل عنه الدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى:

الأول: أن التورية توهم وجهين صحيحين قريباً أو بعيداً والمراد البعيد منهما. والتوهيم يوهم صحيحا وفاسداً، والمراد الصحيح منهما.

الثاني: أن التورية لا تكون إلا باللفظة المشتركة، والتوهيم يكون بها وبغيرها.

الثالث: أن إيهام التورية مما يتعمده الناظم والتوهيم مما يتوهمه القارى أو السامع.(٤٧)

وإلى جانب ذكره التورية والإيهام عرض الصفدي تسمية ابن أبى الأصبع لهذا النوع بالتوجيه وأطال الكلام عن هذا، ثم ناقش من سمى التورية تخييلا لأن الخيال الذي منه التخييل ضد الحقيقة والتورية لا تكون ضدها فلا يليق أن يطلق عليها التخييل الذي هو ضد الحقيقة. ولم يرد رأى ابن الأثير الذي سمى هذا النوع المغالطة المعنوية.

وحقيقة التورية وأقسامها قد بدأ الصفدي تعريف التورية بنقل تعريف السكاكى للإيهام، وكان عليه أن يوضح حقيقة التورية خاصة،وإنه قد أشار إلى أن تعريف السكاكى والرازى مجمل إلا أنه اقتصر على هذا التعريف الموجز وفصل القول في أقسامها وقد فاق فيه غيره ثم أشار إلى تقسيم التورية.

ثم بين تعريف استخدام والتفرقة بينه وبين التورية فهي عنده عبارة عن الإيتان بكلمة لها معنيان قد اكتنفها كلمتان أن تقدمتاها أو تأخرتا عنها واستخدم كل واحد منهما في أحد ذينك المعنيين.

ثم وضح تعريف المشترك وحجه وقوعه وتحدث عن فائدة الاشتراك فالاشتراك عنده عبارة عن لفظة موضوعة لحقيقتين مختلفتين أو أكثر وضعها أولا من حيث هما كذلك ولكن السوال هنا أن الصفدي لماذا آثار هذا البحث هنا. والمخلص من هذا أن اللفظ المشترك بين معنيين أو أكثر منه ما يكون استخداما ومنه ما لا يكون تورية ولا استخداما. فللمشترك صلة بالتورية والاستخدام.

وفي النهاية اظهر الصفدي مقدرته النقدية في مبحث عقده بعنوان ما حصل من الوهم في الاشتراك، بنى نقداته على ثروة الواسعة لأصول اللغة ونحوها وصرفها. كذلك نقده لتوريات سماها التوريات الناقصة، وقد نبه على أن ذلك مما يخفى نقده ولا يكاد يبين ضرمه ولا قده وكانت نقداته فيها مبنية أيضا على قواعد نحوية خالفها قائلو هذه التوريات الناقصة.

لا يخفى على من له صلة يسيرة بالأدب وفنونه لاسيما فن البلاغة أن الصفدي قد أظهر براعته وتفوقه في فن البلاغة وشغفه به حتى أن كتابه هذا نافع للمولعين بالبلاغة كما أنه هداية لمن يريد أن يطرق أبواب ألوان البديعة ولكن لباحث أن يواخذ الصفدي بأمور تالية:

اطالته الديبجة بسجع متكلف وجناس مصنوع وطباق وتورية حيث يمل منها القارى.

إيراده شعراً من إنشائه في التورية فيه ضعف في الأسلوب وضالة في المعنى تحت عنوان "النتيجة".

استعماله ألفاظا عامية خلال إنشائه أبياتا.

عدم تحديده موضع الاستشهاد عند ضربه المثل بالتورية والاستخدام مع أن الشاهد غير متداول.

إيراده المبحث فائدة الاشتراك قبل مبحث رسم المشترك وحجة وقوعه. ولكن الحقيقة تقتضى أن يفعل عكس ذلك.

المبحث الثالث: في النقد.

الأرب من غيث الأدب:

قد اختلفت النصوص والآراء في أن هذا الكتاب هو نفس كتابه "الغيث المسجم في شرح لامية العجم" أو هو كتاب مستقل يقول محقق كتاب نصرة الثائر على المثل السائر محمد على سلطانى 'الأرب من غيث الأدب، ولم يرد إلا في فهرس الخزانة التيمورية ١٧٧/٣ دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٨م،وقد عثرت في مكتبة معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة علىنسخة مطبوعة (ب ـ١٩٤) بالمطبعة العثمانية سنة ١٨٩٧م،ويغلب على الظن أنها مقتطفات من كتاب الصفدي.(٤٨) ولكن الدكتور صلاح الدين المنجد يقول "ليس للصفدي كتاب بهذا الاسم، والعنوان يدل على أنه مستمد من كتاب الصفدي، دليلنا على ذلك أن الصفدي يذكر في سماع آخر له، كتبه بخط، آسماء كتبه التي ألفها حتى سنة ٧٤٥هـ وكنا أرسلنا هذا السماع إلى أستاذنا العلامة المرحوم خليل مردم بك فنشر صورته في مجلة المجمع العلمي (المجلد ٣٣، سنة ١٩٥٨م،ص: ٥١٧) ففي هذا السماع يذكر الصفدي في عدد تصانيفه "غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم" في أربعة أسفار، ولو رجع السيد سلطانى إلى مجلة المجمع' لما وقع في الخطأ، وكذلك قال حاجي خليفة (ص:١٥٣٧) عند كلامه على شرح لامية العجم، فشرحها صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي وسماه "الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم".(٤٩)

تصحيح التصحيف وتحرير التحريف:

مخطوط، منه صورة في مكتبة المتحف العراقي ضمن مجموعة عباس الغزاوى ومنه نسخة في آيا صوفيا. وذكر الدكتور محمد على سلطانى أن هناك نسخة منه في دار الكتب المصرية بالقاهرة المكتبة الزكية.(٥٠) وقد طبع هذا الكتاب في السنة ١٩٨٧م باعتناء وتحقيق السيد الشرقاوى فإنه قد بزل جهوده لإثبات نسبة الكتاب إلى الصفدي وقد أورد أسباباً شتى بهذا الصدد حيث يقول: والكتاب من أوله إلى آخره وثيقة ثابتة لمصنفه صلاح الدين الصفدي وذلك لأسباب منها:

أـ أن أسلوب الكتاب لا يتشابه مع غيره وبخاصة في أسلوب عرض المادة العلمية التي جاءت بـه فهو يبدأ المادة برموز حدّدها لكتب التي ينقل عنها ثم يذكر المـادة. وقد يعلق عليـها بعد ذكـر كلمة (قلت) أو يترك التعليق وهذا المنهج مطرد في النسخة (أ) الكاملة ويتطابق معها فيه النسخة المكونة من (ب) و(ج).

(ب) أن الصفدي يذكر في أثناء الكتاب أشيـاء عـن نفسـه وكتبـه الأخـرى فـهو في المقدمـة يذكـر تصحيف اسمه (خليل) ويورد شعرا له ولغيره في هذا الموضوع وفي مواضع من الكتاب يذكر بعض كتبه ويحيل عليها مثل كتاب " نفوذ السهم فيما وقع للجوهرى من الوهم" وكتاب "حلى النواهد على ما في الصحاح من الشواهد" وكتاب "فض الختام عن التورية والاستخدام".

(ج) وجود الإجازة التي سيأتى نصها في وصف النسخ.

(د) وورد الكتاب في قائمة الكتب التي ألفها الصفدي عند بعـض مـن ترجمـوا للصفـدي كمـا هـو مبين في قائمة مؤلفاته.

(هـ) الكتاب منه نقول في معجم تيمور الكبير للعامة أحمد تيمور بتحقيـق الدكتـور حسـين نصـار مع النص على اسم الكتاب واسم مؤلفه.(٥١)

قد اتضح لدينا عند دراستنا لهذا الكتاب أن الصفدي حشد في مقدمته كمّا كبـيرًا مـن المعلومـات والأخبار أن التصحيف والتحريف واللحن وهو بهذا يطبق منهجه الموسوعى في معالجة ما يتناوله فقد بدأ المقدمة بالشكوى من انتشار اللحن حيث وقع فيه عدد من علماء اللغة ذكر أسمائهم فقد فشا هذا اللحن في عصره ولم يسلم منـه إلا حملـة القـرآن وقرّائـه ثـم بـين أخبـاراً مـن تصحيـف المحدثين والفقهاء في رواية أبيات بعينها.

ثم حاول أن يذكر الكلمات التي يمكن أن يقع فيه التصحيف والتحريف واللحن على هيئـة نظـم ونثر ثم انتقل إلى تصحيف كلمات بعينها. ثم تحدث عن غرائب التصحيف مثل تصحيف بيـت للأعشى وتحريفه بعدة روايات وبيت للنابغة تغير جميع ألفاظه. ثم ذكر طرائف مـن التصحيـف والتحريف فيما يقرب من الألغاز.

وفي ختام المقدمة ذكر هدفه من الكتاب. وهو أن ينتقى من الكتب التي نقل عنها مجموعا يغنى كله عن أجزاء هذه المصنفات المذكورة. وقد لخص محقق هذا الكتاب منهج الصفدي الذي أخذه في تأليف كتابه "تصحيح التصحيف وتحرير التحريف" بقوله "جمع الصفدي في كتاب "تصحيح التصحيف وتحرير التحريف" نصوصا متصلة بالتصحيف والتحريف واللحن ليجعل كتابه موسوعة في هذا الباب ويبدوا أن مفهومه لهذا المصطلحات لا يخرج عن معنى "الخطأ" أو "التغير" سواء في الخط وضبطه بالشكل أو في الصوت أو البنية أو الدلالة أو التركيب ولا يعنى هذا أنه غير فاهم لحقيقة هذه المصطلحات، ولكن تتبع سياقة للنصوص يدل على هذا المعنى، فهو يجمع بين ما يتصل بكل من هذه المصطلحات مثبتا الخطأ وصوابه إذا وجدا في مصدره أويقوم هو بمهمة التصويب أحيانا، ومقياس هذا التصويب يتصل بما يجده من إجماع على خروج المادة عن سنن العرب في المصادر التي نقل عنها أو فيما يراجعه من المصادر كالصحاح وغيرها. ولذلك نجده في بعض الأحيان القليلة لا يوافق على تخطئة بعض الألفاظ ويثبت صحتها.(٥٢)

تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون:

هذا الكتاب ألفه الصلاح الصفدي في شرح رسالة ابن زيدون "الجدية" وقد طبع بدمشق بمطبعة الولاية في سنة ١٣٢٧هـ. ومن الكتاب نسخة في ظاهرية بدمشق ونشر محمد أبو الفضل إبراهيم في دار الفكر العربى بالقاهرة عام ١٩٦٩م. وقد اطلع محمد أبو الفضل على نسختين أخريين فرجع إليهما عند التحقيق يقول في مقدمة كتابه "وقد سبق لهذا الكتاب أن نشر في بغداد سنة ١٣٢٧هـ ولكنها كانت نشرة خلت من الأصالة والتحقيق، وشاع فيها الخطأ والتحريف وحينما عزمت على إخراجه على المنهج العلمى تهيألى الحصول على النسخ الآتية:

١ـ نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم ٤٥٣٦. أدب طلعت بخط محمد ابن محمود بن محمد بن خليل الشافعى تمت كتابته في "يوم الأحد المبارك الأول من شهر ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين وتسعمائة" كتبت بقلم معتاد تغلب عليها الصحة، وفيها بعض الضبط وخاصة في الشعر

تقع ٣٥١ صفحة في كل صفحة ٢١ سطر في كل سطر عشر كلمات تقريبا. وقد اتخذت هذه النسخة أصلا في التحقيق.

٢ـنسخة مخطوطة بدار الكتب محفوظة برقم ٢٤٨. أدب كتبت سنة ١٠٨٤ بخط نسخ خال من الضبط تقع ١٧٤ ورقة وفي كل صفحة ٢١ سطرًا وفي كل سطر ١٣ كلمة تقريبا وقد رمزت بالحرف ـ د.

٣ـ نسخة مخطوطة محفوظة في دار الكتب برقم ١٩م. أدب مخطوطة بقلم معتاد بدون تاريخ، تقع في ١٥١ ورقة والشعر مضبوط ضبطا تغلب عليه الصحة وفي كل صفحة ٢٥ سطرًا وفي كل سطر ١١ كلمة تقريبا، وفي نهايتها ترجمة مختصرة للصفدي مؤلف الكتاب وقد رمزت لها بالحرف 'م' كما أني رمزت للنسخة المطبوعة برقم ـ ط.(٥٣)

وقد صدر الصفدي شرحه هذا بترجمة ابن زيدون مطولا ومراسلاته مع انتقادات شعرية ونوادر تاريخية على الملوك والقواد يليه شرح أصل الرسالة. وقد سلك في شرحه إلى التفسير اللغوى والإعراب والاستشهاد على المعانى اللغوية بنصوص أدبية أخرى ما بين شعر ونثر وآيات وأحاديث، مع الاستطراد إلى كثير من الأبيات الرائعة والحكم الشائقة مع تعريج أحيانا على البديع وأنواعه وشرحها حسب المناسبة، ودعم الشرح بالاستشهاد بالشعر والنثر وعنى كذلك بشرح المعانى الإجمالية للتراكيب.

وقد أسهب في بعض المواضع مثل كلامه في الفروق بين "المولى والسيد" فتحدث عما تقصده العرب من كل منها، وأيهما أولى بالتقديم، وهل يطلقان على الله سبحانه وتعالى، إلى غير ذلك.

وقد أشار عند شرح كل فقرة إلى النص الأدبى وصاحبه موضحا جميع الأمثال والحكم والحوادث تاريخية وأدبية مما يعرض في سطور الرسالة مستطرداً إلى مالابسها من حكاية أو آثار أدبية شعراً أو نثراً. ومن ذلك مقتل عثمان ومقتل على وصلة المعرى بالشريف الرضى ودفاعه عن المتنبى. إلى غير ذلك.

ويغلب الإيجاز على هذا الشرح في جملته وأسلوبه أقرب إلى الأسلوب العلمى منه إلىالأدبى، فهو حديث مسرور لا أناقة فيه ولا جمال في تراكيبه إلاّ نادراً.(٥٤)

حلى النواهد على ما في الصحاح من الشواهد:

وهو مخطوط ذكره البغدادى في هدية العارفين وابن تغرى بردى في المنهل الصافى.(٥٥) وهذا الكتاب شرح للشواهد من أبيات الشعر التي وردت في الصحاح. (٥٦)

طوق الحمامة:

وهو ملخص لشرح ابن عبدون على قصيدة ابن بدرون وذكره بروكلمان في مصنفات الصفدي.

العرف الندى في شرح قصيدة ابن الوردى:

نسب هذا الكتاب إلى الصلاح الصفدي عبد الالٰه نبهان في تحقيقه لكتاب الصلاح الصفدي 'غوامض الصحاح' وقال إنها موجودة في الظاهرية ٥٨١٩.(٥٧)

غوامض الصحاح:

هذا الكتاب للصلاح الصفدي وهو مصنف صغير في غوامض الصحاح للجوهرى منه نسخة بخط المؤلف في الإسكو ريال. وقد رأى الزركلى بعينه حيث يقول " غوامض الصحاح للجوهرى. خ " بخطه رأيته في الإسكوريال الرقم ١٩٢. وله شعر فيه رقة وصنعة.(٥٨) وكذلك نسخة منه بخطه في مكتبة جوروم ذكره الدكتور صلاح الدين المنجد وذكر ما في بداية كتاب ونهايته بقوله "ونقول: إن من هذا الكتاب مخطوطة بخط المؤلف في مكتبة جوروم رقم ١٩٠٥ جاء في أولها: أما بعد حمد الله على نعمه التي فات إحصاءها: قد أحببت جمع الغوامض التي في الصحاح على حروف المعجم. وفي آخرها: تمت المسودة على يد مؤلفها وكاتبها خليل بن أيبك الصفدي وتاريخ الكتابة سنة ٧٥٧هـ وهو في ٧٣ ورقة.(٥٩) وقد طبع هذا الكتاب باعتناء وتحقيق عبد الالٰه نبهان سنة ١٩٨٥م ملخص الكتاب وما جاء فيه من التحقيقات والإشارات هو أن الصفدي بدأ كتابه بمقدمة في التصريف، تحدث فيها عن الحروف الزوائد وحروف الإبدال وحروف الحذف. وهي مقدمة يجب أن يشتمل عليها كل معجم، لأنها مفتاح المعرفة للكشف فيه، وما أجدر هذه المقدمة أن تكون مقدمته للصلاح الذي لم يشتمل على مثلها. لكن الأمر الغريب أن يصدر الصفدي كتابه بها وكتابه لا يحتاج فيه إليها. لأن تلك المقدمة تفيد الدارس في معرفه رد الكلمات إلى

أصولها. والصفدي عند ما نسق الغوامض "لم يردها إلى أصولها. وإنما وضعها بترتيب حروفها كما وردت في صيغها سواء كانت مزيدة أم مجردة، فما معنى تلك المقدمة إذن لكتاب أملاه على مؤلفه كونه راغبا في ترتيب جديد، لا يحتاج معه إلى معرفة بالتصريف؟ وقد جمع الصفدي مقدمته الصرفية من عدة كتب من التصريف الملوكى لابن جنى وشرحه لابن يعيش، ومن المفصل للزمخشرى وشرحه لابن يعيش ومن كتب أخرى من كتب هذا الفن.

بعد المقدمة بدأ بإيراد الغوامض حسب الحروف الأول مع مراعاة الثاني وما يليه، وكان يضبط الكلمة بالنص مع ضبطها بالشكل ويذكر معناها. وإن أهمل ذلك أحيانا. ثم يذكر الباب والفصل الذي وردت فيه عند الجوهرى.

ووعد الصفدي في مقدمة كتابه هذا بأن يفرد و وهم فيه الجوهرى بالتصنيف بذلك لم يتعرض لنقد الجوهرى إلا في مواضع يسيرة، ولم يكن الصفدي يلتزم دائما بعبارة الجوهرى بل كان يتصرف زيادةً أو إختصاراً. وقد يذكر كلمة لا نجدها في الصحاح المطبوع بين أيدينا وقد يضيف تعليقات ليست في الصحاح وقد يعتريه السهو.

وليس كتاب الصفدي هذا جديدا من موضوعه من حيث المادة ولكن الجدة فيه من حيث ترتيبه فقد استخرج تلك الأبنية من الصحاح ثم عاد ترتيبها بحسب أوائل الحروف مع مراعاة الثوانى والثوالث وما يليها من غير إعادة للكلمة إلى أصلها الثلاثى.

وخلاصة الكلام أن ترتيب الصحاح هو ترتيب هجائى يراعى أوائل الكلمات دون النظر إلىالأصول سواء كانت ثلاثية أم رباعية أو خماسية.

الغيث المسجم في شرح لامية العجم:

فقد اضطرب مؤرخو الأدب وكل من ترجم للصفدي في اسم هذا الكتاب فورد عند البعض "الغيث المسجم في شرح لامية العجم" كما عند الزركلى في الأعلام.(٦٠) وذكر البعض " الغيث المنسجم في شرح لاميةالعجم" كما عند يوسف سركيس في معجم المطبوعات العربية والمعربة.(٦١) وجاء في بعض المصادر" غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم" كما ورد في سماع له كتبه بخطه فيه أسماء كتبه التي ألفها حتى سنة ٧٤٥ وكان الدكتور صلاح الدين المنجد أرسل هذا السماع إلى

أستاذه العلامة المرحوم خليل مردم بك فنشر صورته في مجلة المجمع العلمي. ففى هذا السماع يذكر الصفدي في عداد تصانيفه غيث الأدب التي انسجم في شرح لامية العجم في أربعة أسفار، وذكر حاجى خليف عند كلامه على شرح لامية العجم ما هو قريب من هذا حيث يقول" اعتنى عليها (بها) الأدباء فشرحها صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (المتوفى سنة٧٦٤ أربع وستين وسبعمائة) أوله الحمد لله الذي شرح صدر من تأدب الخ وسماه 'الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم' ذكر فيه شيئاً كثيراً على طريق الاستطراد فصار مشحونا بغرائب الجدو الهزل وأحسن المجامع".(٦٢) وقد طبع هذا الكتاب باسم "الغيث المسجم في شرح لامية العجم" عدة مرة فطبع في الإسكندرية سنة ١٢٩٠هـ وفي مصر سنة ١٣٠٥ هـ وفي بيروت سنة ١٣٩٥هـ ثم طبع فيها طبعة جديدة مصححة في سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

وفي الحقيقة هذا الشرح من أجمل شروح القصائد وأفضلها وأوسعها، وهذا الكتاب موضوع في شرح لامية العجم لمؤيد الدين أبى إسماعيل الحسين بن على فخر الكتاب العميد الطغرائى المتوفى سنة ٥١٤هـ أثبت فيه الصفدي تمكنه من علوم العربية وأورد فيه شيئا من المجون ومن الفاحش وحل كتابه بنكاة وفوائد وأشعار وأخبار تلذّ وتشوق وعلى هذا الشرح حاشية للشيخ عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى ومختصر الشرح للشيخ كمال الدين محمد بن موسى الدميرى فإنه ذكرفيه أن الصفدي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من فوائده إلا أظهرها غير أنه ينتقل فيه من علم إلى علم ومن غريبة إلى غريبة ومن نكتة إلى نكتة كأنه تمسك بقول القائل:

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة * إلا التنقل من حال إلا حال.

فهو غريب في بابه عزيز عند طلابه فلخصه وأوله الحمد لله الذي شرح صدر من تأدب الخ.

وله مختصر في رده سماه نزول الغيث ذكر فيه أن بعض الطلبة في الإسكندرية مدحه ثم لما ارتحل إلى مصر سنة ٧٩٤ وقف عليه فزيفه ووجد الصلاح قد ارتكب فسادا ورأى فيه سقطات كثيرة فأراد تبكيت ذلك المادح فكتب ما تيسر له من الاعتراضات.(٦٣)

وقدرمى بعض النقاد إلى الصفدي بأن شرحه هذا مطول ممل ولكن يظهر للخائض فيه والباحث عن نكته ودقائقه أن الكتاب يحمل أشياء قيمة مملوء بالاستطرادات نفسية والطرف النافعة فهو

لا يكون مملا لطوله بل يكون داعيا إلى دراسته والاستفادة منه ،وهنا نورد فقرة من مقدمة هذا الكتاب تبين لنا منهج الصفدي هذا الكتاب فإنه يقول "وقد أحببت أن أضع عليها شرحا يزيد جيدها فرائداً وقصيدتها فوائد، مما سمعت فوعيت وجمعت فأوعيت، ولا أغادر فيها لغةً ولا إعراباً،ولا إيضاح معنى ولا إغرابا، ولا ما يضمه إليها سلك أو يدخل معها جراباً إلا نبّهت عليه وأشرت بحسب الإمكان إليه.

هذا إلى ما يستطّرد إليه الكلام من نكتة، وتعترض جملة ذكره بغتة ويبديه والضمير على لسان القلم وكم للسان من قلته".(٦٤)

وهكذا سرد الكلام وأطاله في المقدمة حتى بلغت حوالى ثلاث و خمسين صفحة مملوءة بالاستطرادات القيمة والأشياء النافعة فقد تحدث فيها عن العلم والشعر وأورد أقوال المتقدمين في بابيها، وذكر مولد الطغرائى وشيئا من حياته وجانبا من شعره مبينا ما فيها من ملاحة وجمال. واستطرد إلى ذكر الكيمياء واشتغال بعض الأدباء بها وما روى به من مصطلحاتها في الشعر إلى غير ذلك من اللطائف الأدبية المتنوعة، ففيها الجد والهزل والفكاهة والمجون والحكمة والمثل والغزل والوصف، وفيها طائفة من شعر معاصرى الشارح كابن نباتة والشهاب الحلبى ولم تخل هذه المقدمة النافعة من الموازنات والنقد. وقد أخذ بعد ذلك يتحدث عمايتعلق بالقصيدة من علمى العروض والقافية متعرضا لأقوال الفلاسفة والمناطقة والعلماء في ذلك. ثم أخذ في شرح القصيدة وهي مليئة بالحكم والأمثال والفخريات مع رصانة التراكيب وجزالة العبارات وعذوبتها، فتحدث عنها بيتا بيتا وكأنه به عند الحديث عن البيت لم يترك شوقا للقارى إلى فائدة إلا بل أوامه بتعجيلها إليه واستطرد منه إلى طرف لغوية وفقهية وأدبية وتاريخية لا تعد مع مفاضلات وموازنات ونصوص من شعره وشعر معاصريه.

ومن هذا وذاك نرى مبلغ أهمية هذا الشرح، وأنه سجل لأدب عصر الشارح ودليل على طول باعة في علوم العربية وغيرها.

وأسلوبه في المقدمة أغلبه بديعى مسجوع وجنح في صلب الكتاب إلى التحدث والقص دون عناية كبيرة بأناقة التراكيب، مائلا أحيانا إلى الخيال وأحيانا إلى المنطق، حسب مناسبة الحديث والموضوع ولم يخل من دقة أداء المعانى.

وبعد نظرة خاطفة على مقومة هذا الكتاب نعرض هنا قطعة من قول الشارح تدل على موسوعيته الثقافية والعلمية بألوان البديعة فإنه قال عن العروض والشعر واختلاف الارآء فيهما "وأقول أنا : العروض آلة قانونية تعصم مراعاتها الإنسان عن أن يضل في وزن شعر العرب وهذا الاحتراز الأخير أتيت به لأن اللغة اليونانية فيها شعر، ولهذا نسمعهم يقولون" سولون الشاعر" وقال أرسطو حكيم اليونان وخطيبهم وشاعرهم "وليس الشعر عندهم ما يكون ذا وزن وقافية، ولا ذلك ركن فيه بل الركن في ذلك إيراد المقدمات المخلية فحسب، فإن كانت المقدمة التي ترد في القياس الشعرى مخيلة فقط، تمحص القياس شعريا وإن انضم إلى المقدمة قول اقناعى تركيب المقدمة من معنين شعراقناعي. قال أرباب المنطق "القياس الشعرى قول مؤلف من مقدمات مخيلة تؤثر في النفس تأثيراً عجيبا من قبض أبسط" كقول القائل. مح البيض عذرة، والخمر ياقوت سيال. فالأول يؤثر في النفس انقباضا والثاني انبساطا.

وذكرلى العالم العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم ساعد الأنصارى أن العشر اليونانى له وزن مخصوص واللليونان عروض لبحور الشعر والتفاعيل عندهم تسمى الأيدى والأرجل قال ولا يبعد أن يكون وصل إلى الخليل بن أحمد شئ من شئ من ذلك فأعانه على إبراز العروض إلى الوجود" ...الخ.(٦٥)

هناك نعرض قطعة من شرح الشارح لأشعار الطغرائى. حتى يتبين لنا أسلوبه فيه. فإنه قال في شرح قول الطغرائى:

والدهر يعكس آمالى ويقنعنى * من الغنيمة بعد الكدّ بالقفل.

اللغة: الدهر: الزمان، قال الشاعر:

إن دهراً يلفّ شملى بليلى * لزمان يهم بالإحسان.

ويجمع على دهور، ويقال: الدهر الأبد، وقولهم: دهر داهـر كقولهـم: أبـد آبـد، وقولهـم: دهـر دهارير، أى شديد كقولهم: ليلة ليلاء ونهار أنهر ويوم أيوم وساعة سـوعاء، وفـى الحديـث : لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر لأنهم كانوا يضيفون النوازل إليه فقيل لهم: لا تسبوّا فـاعل ذلـك بكم فإن ذلك الفاعل هو الله تعالى. والدهري بفتح الدال هو الملحد، وبضمها المسن، وقال ثعلـب: هما جميعاً منسوبان إلى الدهر، والدهـرى هـو الـذي يعتقد عـدم الصـانع وينكـر البعـث والنشـور والمجازاة. (العكس) ردّك آخـر الشئ إلى أولـه ومنـه عكس البليـة عنـد القبر لأنـهم يربطونـها معكوسة الرأس إلى ما يلي: كلكلها وبطنها،ويقال: إلى مؤخرها مما يلى ظـهرها ويتركونـها علـى تلك الحال حتى تموت (الآمال) : جمع أمل وهو الرجاء، تقول: أملت خيره آملـه بـالضم أمـلاً وكذا التأميل. وقولهم : ما أطول إملته بكسر الهمزة أى أمله فهو كالجلسة والركبـة (القناعـة) : الرضى بما قسم وقد قنع بالكسر يقنع قناعة فهو قنع وقنوع. وأقنعه الشـئ إذا أرضـاه (الغنيمـة) واحدة الغنائم وهي ما تظفر به من ملك غيرك ولم يكـن لـك. (الكـدّ): الشـدّة في العمـل وطلـب الكسب والتعب. (القفل): الرجوع من السفر وقد قفل يقفل بالضم ومنـه القفـل، والقافلـة الرفقـة الراجعة من السفر. فلا يقال لمن خرج من بلدة يريد مكانا آخـر: قـافل، إلى أن يرجـع، وتسـمى الرفاق قافلة قبل العود تفاؤلاً لهم بالرجوع، كما تسمى المهلكة مفازة، واللديـغ سـليماً، وأول مـن نطق بهذا المثل إمرؤ القيس، فقال:

وقد طوّفت في الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال عبيد بن الأبرص:

ولو لاقيت غلباء بن عمرو * رضيت من الغنيمة بالإياب.

(الإعراب) : (والدهر) : الواو للإبتداء،والدهر مرفوع على أنه مبتدأ ... الخ.(٦٦)

حب السلامة يثنى هم صاحبه *عن المعالى ويغرى المرء بالكسل.

(اللغة) الحب: العشق وقد تقدم الكلام عليـه في قولـه: يقتلـن انضـاء حـب "البيـت" السـلامة: الرفاهية والنجاة من الخوف، يثنى: يعطف ويكف، ثنيت الشئ عطفته وكففته وثنّيته بالتشديد جعلته اثنين. همّ: الهم العزم والإرادة هممت بالشئ أهم همّا وهو المراد هنا والهـمّ أيضـا الحـزن.

المعالي: تقدم الكلام عليها، الإغراء: أن تولّع الإنسان بشئ وتهيّجه وتحثّه عليه والقصيدة المغرية التي أوّلها:

ما كل يوم نيال المرء ما طلبا * ولا يسوّغه المقدور ما وهبا.

مشهورة لا فائدة في سردها. المرء: الرجال، تقول هذا مرؤ ورأيت مرأً. ومررت بمرىءٍ وضم الميم لغة وهما مرآن ولا يجمع على لفظه، وبعضهم يقول هذه مرأة صالحة مرة بترك الهنرة وفتح الراء فإن جئت بألف الوصل كان فيه ثلاث لغات فتح الراء على كل حال حكاه الفراء وضمها على كل حال. وإعرابها علي كل حال تقول: هذا امرءٌ ورأيت امرأ ومررت بامرىءٍ ولا جمع له، من لفظه وهذه امرأة مفتوحة الراء على كل حال فإن صغرت أسقطت ألف الوصل مرىء ومريئة. الكسل: التثاقل عن الأمر وقد كسل بالكسر فهو كسلان وقوم كسالى وكسالى بالضم في الكاف والفتح وإن شئت كسرت اللام كما في الصحارى وامرأة مكسال: لا تكاد تخرج عن محلها، وهذا مدح مثل: نؤوم الصخى: قال إمرؤ القيس نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل. وما سمع في الكسل أبلغ من قول القائل:

دعوت الله يجمعنى بسلمى *ويطرحها ويلقينى عليها.

وأرزق من يحركنى بلطف * وينزلنى إذا أنزلت فيها.

ويأتى بعد ذاك سحاب غيث * يطهرّنى ولا أسعى إليها.

(الإعراب) حب مبتدأ (السلامة) مضاف إليه والاضافة معنوبية بمعنى اللام ....الخ.(٦٧)

نجد الفلاح في مختصر الصحاح:

وهو مخطوط في اللغة وقد ذكره صاحب هدية العارفين. وقد عمد المؤلف فيه إلى حذف الشواهد من أبيات الشعر الواردة وتصحيح الأخطاء وأتم هذا المصنف في شهر رمضان سنة ٧٥٧هـ.(٦٨)

نصرة الثائر على المثل السائر:

يعد هذا الكتاب من أجل الكتب النقدية والبلاغية عند الصفدي. فإن الكتاب يشتمل على إشارات نحوية ولغوية وفقهية تدل على ثقافته الواسعة وإلمامه بفروع المعرفة وعلى أصالته في

بحوثه العلمية التي جعلته في مصاف نقاد عصره كما جعلته من البلاغيين الذين أسهموا بجهود مشكور في البحث البلاغي.

وكتاب "نصرة الثائر على المثل السائر " كما يدل اسمه ردف لكتاب " الفلك الدائر على المثل السائر" وتتمة له بل هو استدراك عليها كما هو انتقاد على المثل السائر لابن الأثير وانتقاد على إعجاب صاحبه بنفسه. فإن ابن الأثير من أكثر الناس إعجابا بنفسه. وقد بلغ في ذلك فأخذه عز الدين أبي الحديد في كتابه "الفلك الدائر" فلم يجد صلاح الدين الصفدي ذلك وافيا بما يريده فألف"نصرة الثائر على المثل السائر" وتناول فيه نقد كثير من نظرات ابن الأثير البلاغية والنقدية والفقهية. ووضح الرائ الصحيح مدعما ارآئه بما أوتي من ذوق صقلته الممارثة الأدبية في الشعر والنثر. وفيه شئى قليل من الموضوعات والاحترام للطرف الآخر. وربما الثناء عليه والدعاء له. ويتضح هذا من قوله في مقدمة هذا الكتاب وبعد، فإن كتاب 'المثل السائر' لصاحب ضياء الدين ابن الأثير الجزيرة. عامله الله بلطفه وسامحه بماهزت به نسمات الخيلاء غصن عطفه. من الكتب التي خفقت له من الاشتهاد عذبات أوراقة. وسعى القلم على رأسه إذا سعى الخادم على ساقه إلا أن وضعه رحمه الله وإن جمع فيه بين العلم والعمل قد أذهب حسناته النادرة بتوالى سيئاته البادرة. وأضاع تلك الزهرات الفذة في قفار الدعاوى التي لا يجد فيها السالك لذة ونعم فإنه :

ما الجزع أهل أن تردد نظرة * فيه وتثنى دونه الأعناق.

وبلغني ما وضعه عز الدين بن أبي الحديد رحمه الله تعالى على الكتاب من المواخذة. يعد أن استصرخت به تلك الظلامات عائدة قلما وقفت على " الفلك الدائر" وجدته قد أغفل أثيرا، وأخذ قليلاً وترك كثيراً فأحببت بعد ذلك أن التقظ ما غادره وأتتبع شاذه ونادره:

وعلى أن أقضي صلاتي بعد ما * فاتت إذا لم أقضاها في وقتها.

وقد جمعت ما عثرت عليه من هفوات ابن الأثير في هذه الأوراق وضربت عليها هذا الفسطاط ومددت هذه الأوراق وسردتها على هذا الترتيب وسقها على ذلك التبويب وسميت ذلك "نصرة الثائر على المثل السائر".(٦٩)

ثم بين الصفدي سبب تسمية الكتاب "نصرة الثائر على المثل السائر" بعبارة مرقصة "واخترت هذه التسمية له شارة وإشارة لأن الثائر هو الذي لا يبقى على شئ حتى يدرك ثارة، وإذا ناقشته في بحث أورده، وناقشته في صالح أفسده، لا أكاد أخلى ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن الذي عابهم، وتردى إلى مواقف ذمهم وانتابهم خصوصاً القاضى الفاضل رحمه الله تعالى، فإنه قد عارضه في بعض ما أنشاه، وعاب عليه ما ديّجه ووشاه".(٧٠)

وقد تبين هنا من قوله ودراستنا لكتابه أنه موضوع في النقد لاسيما أنه تتبع فيه ابن الأثير بنقد لاذع، وقد أحسن الصفدي النقد في شتى المجالات من هذا الكتاب ولكنه أخفق في مواضع قليلة فنحن هنا نقف قليلاً عند بعض الجوانب التي أصاب الحق فيها وأحسن كما نستعرض الاتجاهات التي أخفق فيها.

فمن نقده الذي أحسن فيه: أنه رد على ابن الأثير في مسألة إنكاره التلقب بالناصر على السلطان صلاح الدين الأيوبى، وقد نقدها الصفدي من الوجهة النحويّة والفقهية ،يقول: "قال ابن الأثير: وجدت لابن زيادة البغدادى كتابا كتبه إلى الملك الناصر صلاح الدين يشتمل على أمور أنكرت عليه من ديوان الخلافة من ذلك: أنه تلقب بالناصر وذلك لقب أمير المؤمنين ويقول: ثم إن ابن الأثير رحمه الله ذكر ما أنشأه في هذا المعن لنفسه فقال: قد علم أن للأنبياء والخلفاء خصائص. يختصون بها على حكم الأنفراد، وليس لأحد من الناس أن يشاركهم فيها مشاركة الأنداد، وقد أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في أشياء نص عليها بحكمه من جملتها، أنه نهي غيره أن يجمع كنيته واسمه، وهذا مسوغ لأمير المؤمنين أن يختص بأمر يكون به مشهورا وعلى غيره محظوراً.

ويرد الصفدي على ذلك قائلا: قبل الخوض مع ابن الأثير ـ في ذلك ـ أقدم الفرق بين الاسم والكنية واللقب، وذلك :أن العلم الدال على شخص معين إن كان مصدراً بأب كأبى بكر وأبى حفص، أو أم كأم كلثوم وأم المؤمنين فهو الكنية، وإن أشعر برفع المسمى كما السماء وذى رعين وذى النورين وذات النطاقين وذى الجناحين، ويدخل في هذا ألقاب خلفاء بنى أمية وأبى العباس كالهادى والمهدى والرشيد والأمين والمأمون. ويدخل فيه مصطلح الناس من شمس الدين

ونجم الدين وغير ذلك من ألقاب أهل الكتاب كشمس الدولة وتاج الملك، أو يشعر بضعة المسمى كقفة وبطة والأقيشر والأحوص فهذا هو اللقب، وإن كان للدلالة على ذات المسمى وتعيينه، كزيد وعمر وبكر وخالد فهذا هو الاسم.

ويقول: وإذا تقرر هذا، فالنبى صلى الله عليه وسلم قال: "لاتجمعوا بين اسمى وكنيتى، مراده: لايقال لأحدٍ من أمته محمد أبو القاسم أما الناصر والعاضد والقادر والمستنصر وما أشبه ذلك فليس بكنيته ولا اسم على ما تقرر" ثم يقول الصفدي ـ فانظر إلى ابن الأثير ـ رحمه الله ـ لم يطابق بين الإنكار والاستشهاد ـ على أن الملك الناصر ـ رحمه الله تعالى ـ ما تسمى بهذا اللقب والناصر في بنى العباس خليفة. وهذا النقد صائب لأن الصفدي دعمه بالدليل النحوى والفقهي.(٧١)

ومن هذا القبيل نقده ابن الأثير فيما شرطه من بلاغة التشبيه حيث اشترط أن يشبه الشئ بما هو أكبر منه وأعظم، يقول ابن الأثير في النوع الثامن من التشبيه. قد قيل أن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشئ بما هو أكبرمنه وأعظم. ومن هاهنا غلط بعض الكتاب من أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال مشبها له فقال، هامة عليها من الغمامة عمامة واغلة خضبها الأصل فكان الهلال منها قلامة.

ثم يعيب ابن الأثير على هذا التشبيه قائلاً: وهذا الكاتب حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء فإنه أخطأ في قوله "أنملة" وأى مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل؟ وأصاب في المناسبة بين ذكر الأنملة والقلامة، وتشبيهها بالهلال.(٧٢)

ويأتى الصفدي ليعلق على ذلك ناقدًا ابن الأثير فيقول " إن أبى الحديد ناقش ابن الأثير في ذلك وقد بقى شئ من مؤاخذته على هذا وهو أن الذى ادعى أن من بلاغة التشبيه أن يشبه الشئ بما هو أكبر منه وأعظم.

أبحث معه وأقول فعلى هذا تبطل غلبة الفرع على الأصل في التشبيه ونخطى مثل ذى الرمة في مثل قوله:

ورمل كأوراك العذارى قطعته * إذا ألبسته المظلمات الحنادس

فإنه شبه كثبان الرمل بما هو أقل منها وأحقر،لأن أوراك العذارى دون الكثبان.

ويقول: ولا نستحسن مثل قول أبى بكر محمد بن هاشم:

والمشترى وسط السماء تخاله * وسناه مثل الزئبق المترجرج.

مسمار تبر أصفر ركبته * في خاتم والفص من فيروزج.

فإن كرة السماء والمشترى أكبر من الفص والمسمار.

ومثل هذا كثير وكل ما في العالم العلوى لا يشبه بشئ من العالم الأرضى لأنه أحقر وأقل. كما يشبه الثريا بالنرجس الذابل والهلال بالقلامة والنعل والبرق بالسيف، والشمس بالمرآة، والنجوم بالسراج وقوس قزح بأذيال العروس، وجميع ما هو من هذا الباب لا يجوز تشبيهه وإن كان فلا يكون بليغا على هذا التقرير. وهيهات هذا سد لباب الحسن.

وأما الحصون، فقد شبهها الشعراء بالأنامل، منهم الغزى حيث يقول:

سد البسيطة نازلا من قلة الـ * جبل الأشم إلى قرار الوادى.

حتى غدا الحصن المبارك خنصرًا * في خاتم من بهمة وجواد.

وقد استعمل ابن الأثير ذلك فقال فنزلنا منه بمرأى ومسمع واستدرنا به استدارة الخاتم بالإصبع وشبهها ابن قزل بالعين فقال:

إن الحصون لكالعيون فهدبها * شرفاتها وجفونها الأصوار

وكذا محاجرها الخنادق حولها * والحافظون لها هم الأشفار.

ومن يعيب مثل قول القاضى الفاضل، ونزلنا قلعة نجم وهي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة.

فما ينبغي لمجادل يناظره إلاكف القول عنه وهل الطعن على هذا إلا قول من لم يصل إلى العنقود ويكفيه أنه عاب مثل هذه الألفاظ التي بهر حسنها لما ظهر. وغدت وفي كل ضاحيه من وجهها قمر.(٧٣)

والصفدي في نقده لابن الأثير في شرطه السابق للتشبيه كان نقداً سديداً دعمه بإيراد هذه الشواهد الشعرية والنثرية لأدباء مرموقين جاءوا بتشبيهات بهرت أهل الأدب قبل غيرهم. وتأثربهم في هذا السبيل أدباء كثيرون ومنهم ابن الأثير في تشبيهه السابق وهو قوله: واستدرنا به استدارة

الخاتم بالأصبع ولهذا كان ابن الأثير متناقضا مع نفسه حيث قرر شرطا وخالفه في إنشائه وكذلك نراه في نقده ابن الأثير في ضرورة علم النحو وعدمها أنه قد أتى بكلام يعجب قارئيه. فإنه تعقب قول ابن الأثير بنقد لاذع فإنه قال في المثل السائر في ذكر النحو " إذا نظرنا إلى ضروبه وأقسامه وجدنا أكثرها غير محتاج إليه في إفهام المعنى.

ألاترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت (قوم) بإثبات الواو ولم تجزم لما اختل من فهم ذلك شئ.

وكذلك الشرط: لو قلت إن تقوم أقوم ولم تجزم لكان المعنى مفهوما. والفضلات كلها تجرى هذا المجرى كالحال والتميز والاستثناء فإذا قلت " جاء زيد راكب" و"ما في السماء قدر راحة سحاب" و" قام القوم إلا زيد" فلزمت السكون في ذلك كله. ولم تبين إعرابا لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ولا على نصب زيد. وهكذا يقال في المجرورات وفي المفعول فيه والمفعول له والمفعول معه وفي المبتدأ والخبر.

لكن قد خرج عن هذه الأمثلة ما لا يفهم إلا بقيود تقيده. ولنضرب لذلك مثلا يوضحه فنقول: إعلم أن من أقسام الفاعل المفعول ما لا يفهم إلا بعلامة كتقديم المفعول على الفاعل فإنه إذا لم يكن ثم علامة تبين أحدهما من الآخر أشكل الأمر كقولك (ضرب زيد عمرو) ويكون زيد هو المضروب فإنك إذا لم تنصب زيداً وترفع عمراً لا يفهم ما أردت.(٧٤)

تلخيص كلامه أن الإخلال بقواعد النحو في الكلام لا يضر معناه، ولا يعطل فهمه في الأعم الأغلب.

علق الصفدي عليه بقوله:

ما يورد مثل هذا إلا عوام الناس ومن لم يتلبس بالمعرفة، ومن لم يرح رائحة العلم. ألم يعلم أنه إذا صدر عن مترسل كتاب لم يجزم أفعال أمره ولا شرطه وأجوبتها ولم يرفع فاعلة وينصب فضلاته، ولا راعى شيئاً من قواعد إعرابه التي هي ظاهرة ولا حافظ على شئ من الإعراب ألبته كان ذلك ضحكة للمغفلين فضلاً عن العقلاء. وحينئذ فقد استوى العلماء والجهال.

وقد كتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى: أما بعد! فتفقهوا في السنة وتعلموا العربية ، وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يضرب ولده على اللحن. وقال عبد الملك بن مروان. اللحن في الكلام أقبح من آثار الجدرى في الوجه. ورأى أبو الأسود الدؤلى أعدالا للتجار مكتوبا عليها (لابوفلان) فقال سبحان الله يلحنون ويربحون!

وذهب بعضهم إلى أن الله تعالى لا يقبل الدعاء إذا لم يكن معربا. ولا غرابة في ذلك لقد قال الشيخ تقى الدين بن الصلاح. أخشى على من تعاطى الحديث ولم يدر النحو أن يدخل في قوله صلى الله عليه وسلم. من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

وإذا كان ابن الأثير قد استثنى بعض الأمور الغامضة وحم معرفتها فإن الصفدي قد اعترض عليه بقوله. ثم إنه استثنى من ذلك أشياء لا تعرف إلا بالإعراب.

فأقول: إنه لا يتوصل إلى معرفة الغامض إلا بعد معرفة الواضح ومن لم يعرف البين لم يعرف العويص، لينتقل في التفهم من الأدنى إلى الأعلى.

قال خليل بن أحمد رحمه الله: لا يصل أحد من النحو إلى ما يحتاج إليه إلا بتعلم ما لا يحتاج إليه. فقال أبو عمر الجرمى البصرى:

إن كان لا يوصل إلى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه محتاجا إليه. وكل علم بهذه المثابة فيه الجلى والغامض ولا يتوصل الإنسان إلى معرفة المسائل العويصة إلا بعد مقدمات يفهمها من المسائل الواضحة.(٧٥)

وكذلك يتناول الصفدي بالنقد والتحليل فضلاً عما تقدم كثيراً من الموضوعات البلاغية والنحوية التي عرض لها ابن الأثير في كتابه المثل السائر وأحسن فيه ومن هذه الموضوعات اللغز والتعريض والفرق بينهما والمبادى والافتتاحات موازنا بين النصوص التي أو ردها ابن الأثير ونصوص أوردها هو والتلخص والاقتضاب مستشهداً بشواهد نثرية وشعرية موازنا بينها وبين ما استشهد به ابن الأثير والاقتضاب والتفريط والإفراط والمفاضلة بين تسميتى الإرصاد والتوشيح، وكذلك نقده له في باب السرقات الشعرية وفي تفضيله للنثر على النظم، كذلك نقده في كلامه على الاعتراض والتناسب بين المعانى.

كما نقده الصفدي في كلامه على: الأحاجى والمغالطات في مقامات الحريرى وتقديم الأكثر على الأقل في الكتابة والالتفات والتصريع وبعض أنواع التجنيس والمغالطة. ونقد الصفدي ابن الأثير أيضا في كثير من إنشاءاته ورسائله التي أدعى فيها الإجادة وفي المسائل النحويه التي تناولها كمسألة توكيد الضميرين و ورود أن بعد "لما" وأثرها في الدلالة على تراخى الزمن وغير ذلك من المسائل المتفرقة نحوا وبلاغة وفقها.

ومن المواضع التي أخفق فيها الصفدي نقده ابن الأثير فيما ذهب إليه أن إخلال مخالفة قواعد النحو بصحة الكلام وحسنه. فقد سجل ابن الأثير على أبى نواس وأبى تمام وأبى الطيب أخطاء نحوية، ولم ينتقص منهم ولا عجب فاللحن من وجهة نظره الخاصة به لا يقدح في حسن الكلام. وقد تعقبه الصفدي فقال:

ما بقى بعد هذا إلا أن يقول: إن مراعاة الإعراب علة موجبة لقبح الكلام ألا تراه ما سمع بقولهم: النحو في الكلام كالملح في الطعام، وقد ذهب بعضهم إلى أن الإعراب إنما سمى إعرابا لأن العرب في قوله تعالى " عربا أترابا" هن المتحببات إلى أزواجهن. فكان من أعرب كلامه تحبب إلى مخاطبه.

أقول: معنى تحببه كونه ذكر أمارات تدل على معانيه. فإنه إذا أراد التعجب قال: ما أحسن زيداً. ولو ترك الإعراب وقال: ما أحسن زيد بسكون النون والدال لالتبس الفهم على المخاطب وبقى في حيرة. هل هو مستفهم أو متعجب أو مخبر. فلما نصب النون والدال علم أنه يتعجب. وإذا قال: ما أحسن زيد برفع النون وكسر الدال علم أنه يستفهم. وإذا قال: ما أحسن زيد بنصب النون ورفع الدال علم أنه مخبر بنفى الإحسان عنه. وإذا أراح المتكلم من يخاطبه من الفكرة الحيرة بالإعراب فقد تحبب إليه. (٧٦)

وفهوى البحث أن مخالفة قواعد النحو هل هو مخل بصحة الكلام وهل اللحن قادح في جنسه؟ فابن الأثير منكر لهذا ولم يستثن إلا ما يترتب على الإخلال بالقواعد النحوية فيه إشكال. والصفدي يثبت ذلك ويقول إنه مخل بصحة الكلام وقادح في حسنه.

ويتضح لدى ولمن يخوض في حقيقة الأمر أن ابن الأثير أصاب الصواب في هذا الأمر المختلف فيه بين الناقدين. لأنه لم يلغ النحو بجرة قلم لأنه قال في بداية هذا البحث. أما علم النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط. وهو أول ما ينبغى إتقان معرفته لكل واحد ينطق باللسان العربى ليأمن من معرة اللحن.

ومع هذا فإنه وإن احتيج إليه في بعض الكلام دون بعض لضرورة الإفهام فإن الواضع لم يخص منه شيئا بالوضع بل جعل عاما وإلا فإذا نظرنا إلى ضروبه وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه في إفهام المعانى.

ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له (قوم) بإثبات الواو ولم تجزم لما اختل من فهم ذلك الشئ.(٧٧) فكلامه هذا ليس بفاسد كما رأى الصفدي بل إن الصفدي لم يتوجه إلى كلام ابن الأثير بأسره، فاكتفى ببعضه ومال إلى نقد كلامه.

نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهرى من الوهم:

ذكره الصفدي في كتابه 'تصحيف التصحيف وتحرير التحريف'. وهو لا يزال مخطوطا. قال الدكتور صلاح الدين المنجد أن منه نسخة في مكتبة شهيد على رقم ٢٧٠١. مؤرخة سنة ٧٥٧ نقلت عن نسخة المصنف في ٩٥ ورقة. ونسخة ثانية في كتابخانه عمومى، نسخت سنة ٩٧٩ في ١٠٩ ورقة.(٧٨) يقول جرجى زيدان "منه عشرة كراريس في المكتبة العمومية بالأستانة".(٧٩)

وهذا الكتاب جمع فيه الصفدي الاعتراضات الواقعة على الجوهرى في الصحاح فانتقاد به على الصحاح وإصلاح ماُ فيه.

الهول المعجب في القول الموجب:

وهو مخطوط بدار المخطوطات بالقاهرة رقم ٤٣٥ بلاغة وموجود بخط مصنفه صلاح الدين الصفدي.(٨٠) ووضع الصفدي كتابه هذا في بيان القول بالموجب وأثار البحث عن اختلاف الكتاب والأدباء في كونه من فن البلاغة أو من فن أصول الفقه، ولخص ما جاء في الكتاب وما اشتمل عليه الدكتور الحناوى حيث يقول:

"وقد بدأه بافتتاحية كلها سجع وازدواج وجناس في تكلف كعادته ثم تلا ذلك بمقدمة عما قال الأصوليون في معنى " القول بالموجب" مبينا أن هذا النوع وإن كان من البديع إلا أن أرباب البلاغة أخذوه من علماء أصول الفقه.

ثم سرد أقوال بعض البلاغيين في تعريف القول بالموجب، وجاء بأمثلتهم التي اشتشهدوا بها في ذلك.

ثم ذكر لنفسه شعراً في هذا النوع، وهو شعر يغلب عليه التكلف وركاكة التعبير. كمابين أن هناك نوعا من البديع سماه البديعيون " والاستدراك وأورد أمثلة استشهد بها البلاغيون لهذا النوع ولكنه يرى أن "الاستدراك" مدرج في باب "القول بالموجب" فلا داعى لفصله وجعله باباً آخر.(٨١)

المبحث الرابع : في التاريخ والترجمة.

أعيان العصر وأعوان النصر :

قد ورد في المنهل الصافى والنجوم الزاهرة لتغرى بردى والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى اسم هذا الكتاب "أعوان النصر في أعيان العصر". وهذا مخطوط وذكر الشوكانى في أنه ست مجلدات.(٨٢) وقد ورد هذا القول الدكتور صلاح الدين المنجد وأثبت أنه في سبعة مجلدات حيث يقول "ففى السماع الذي كتبه الصلاح الصفدي بخطه في آخرالمجلدة من أعيان العصر الموجودة في الإسكوريال برقم١٧٢٢ arabe يقول قرأ على المولى الشيخ الإمام المحدث المفوّه نور الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن على بن أبى الفتح المنذرى عرف بابن المصوص ما قبل هذه المجلدة من كتابى "أعيان العصر وأعوان النصر" أجمع وهذه المجلدة بكمالها وهي الجزء السابع من التاريخ المذكور.

فهذا يدل على أن الكتاب في سبعة مجلدات.(٨٣) وذكر في الدر المنتخب أن الكتاب يقع في اثنى عشر مجلداً لطيفاً.(٨٤) وقال جرجى زيدان يوجد نسخة منه في الإسكوريال وآياصوفيا في تسعة أجزاء كاملة ومنه أجزاء متفرقة في مكتبة عاشر آفندى بالأستانة ودار الكتب المصرية.(٨٥)

وفي الحقيقة هذا الكتاب أفرده الصلاح الصفدي من كتابه الشهير الوافى بالوفيات لأهل عصره وأعيان زمانه من رجال ونساء، وهو في نظرنا أهم كتب التراجم لأعلام النصف الأول من القرن الثامن.

الحان السولجع بين المبادى والمراجع:

مخطوط في مجلدين، جمع فيه جملة من الرسائل التي تبادلها من بعض معاصريه من شيوخه وزملائه من الأدباء ورتبه على حروف المعجم، يقول خير الدين الزركلى "رتب أسماءهم على حروف المعجم عندى نسخة منه".(٨٦) وهذا الكتاب من أواخر كتب الصفدي تقريبا إذ أنه يحتوى على رسائل إخوانية كتبت عام ٧٦٤هـ قبل موت الصفدي بأربعة أشهر.

ويرسم الصفدي منهج هذا الكتاب في مقدمته نقل عنه الدكتور عبد الحميد سالم حيث يقول بعبارته "وقد رتبه على حروف المعجم فأذكر في الحرف اسم من كتب إليّ وكتبت إليه. وجلا أبكاره الغرّ عليّ وجلوت عليه".(٨٧)

وترجم الصفدي في موسوعته هذه لمائة وثمانية من أدباء عصره في مصر وشام، فهو التزم فيه بذكر أسماء هم لا ألقابهم ثم يذكر جنسيته يليهما حشد كبير وسرد جم لنعوته وألقابه وقد يذكر كنيته ويعود لألقاب أبائه ثم ينتهي غالبا بذكر عمله.

وبعد ذلك تأخذ في عرض الرسائل مبتدئاً بعرض رسالة المرسل معقبا بعرض رسالة المرسل إليه ولا يتخلف عن هذه الطريقة غالبا إلا إذا ندت عنه رسالة منهما فيذكر ما تذكره فحسب، بعد أن ينبه على الرسالة المفقودة ثم يذكر الجواب فقط أو العكس وينهي ترجمته أحيانا بعرض عدة مقاطيع نظمها هو في معنى من المعاني. ثم يعرض متتابعا ما كتبه مراسله نظيرها.

وتوجد نسخة من هذا الكتاب في خزانة عاشر آفندى برقم ٦٢٦ في تركيا وفي مكتبة الأحقاف نسخة تتألف من ٢٤٠ ورقة.

أوراق تراجم من كتاب التذكرة وغيره:

وهي بخط المؤلف ١٣ ورقة يوجد في المكتبة الظاهرية.

تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب:

قال المحقق لكتاب نصرة الثائر على المثل السائر لصلاح الدين الصفدي محمد على سلطانى أن هذا الكتاب أرجوزة لكتاب ابن عساكر وقد نشر صلاح الدين المنجد كتابا للصفدي "أمراء دمشق في الإسلام" أرجوزة لعلها جزء من تحفة ذوى الألباب.(٨٨)

ولكن في الحقيقة أن كتاب أمراء دمشق في الإسلام ليس جزءاً من كتاب تحفة ذوى الألباب بل أنه يشتمل هذه الأرجوزة كما يتضمن رسالة أخرى للصفدي اسمها "ذكر من ولى امرءة دمشق المحروسة ودخلها من الخلفاء وغيرهم مرتين على حروف المعجم" فقد رد صلاح الدين المنجد قول المحقق ونبهه على ثلاثة أخطاء وقع فيها حيث قال " و هي أرجوزة لكتاب بن عساكر. وقد نشر صلاح الدين المنجد كتابا للصفدي باسم أمراء دمشق في الإسلام أرجوزة، لعلها جزء من

تحفة ذوى الألباب كلامه هذا يدل على أن عينه لم تقع على كتابنا. ولا رجع إليه عند كتابة مقدمته، كما أن فيه ثلاثه أخطاء:

آ- قال إن الكتاب أرجورة لكتاب ابن عساكره. وكيف تكون أرجوزة لكتاب في ثمانين مجلدة في ثمانين ألف ورقة؟ ولو أنه رجع إلى الأرجوزة لوجد الصفدي يقول:

وبعد فالمقصود من ذا الرجز * حسن البيان في كلام موجز.
أذكر فيه الخلفاء والأمراء * على مشق نسق كما ترى.
قلدت فيه الحافظ العساكرى * لأنه الذي جلا بخاطرى.
لكنه على الحروف رتبه * فضيع المقصود منه واشتبه.
ولم يصل إلا لنور الدين * وعاق ذاك وارد المنون.
وقد ذكرت من اتى من بعده * ليومنا فاستحل در عقده.

فابن عساكر وضع في تاريخ دمشق تراجم الولاة والامراء مرتبة على حروف الهجاء. والصفدي نظم أسماءهم شعراً ورتبها على التواريخ وأضاف إليها من جاء منهم بعد ابن عساكر.

ب ـ الخطأ الثاني وهمه أن ما نشرناه باسم أمراء دمشق " جزء من تحفة ذوى الألباب".

ونعيد القول إنه لو رجع إلى هذه الأرجوزة المطبوعة لوجد الصفدي يقول " هذه أرجوزة نظمتها في ذكر من تولى أمراء دمشق المحروسة من الخلفاء والملوك والنواب وسميتها "تحفة ذوى الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب " ص: ١٠٥.

فقوله "لعله جزء من تحفته" خطأ، لأن الأرجوزة كلها فيه.

ج ـ الخطأ الثالث أن كتاب " أمراء دمشق في الإسلام " لا يتضمن الأرجوزة وحدها. بل يتضمن رسالة أخرى للصفدي اسمها " ذكر من ولى إمرءة دمشق المحروسة ودخلها من الخلفاء وغيرهم مرتبين على حروف المعجم" .

وقد شرح الصفدي أرجوزة " تحفة ذوى الألباب" شرحاً مفصلاً حتى غدا تاريخا لمدينة دمشق من زمن الفتح إلى أيامه. ومنه مخطوطة في باريس. وكنا وصفنا هذا الشرح في مجلة المجمع العلمى بدمشق في المجلد ٢٨ (١٩٥٣م) ص: ٤٩٠.(٨٩)

يتألف الكتاب من أربعة أقسام:

الأول: المقدمة وقد مهدبها لكتاب الدكتور المنجد بذكر الكتب والمصادر التي ألفت في هذا الموضوع ووصف النسخ التي نشر هذا الكتاب عنها وأبان عن نهج التحقيق فيه ونشر نماذج مصورة عن الأصول المذكورة كما ترجم المؤلف ترجمة موجزة وأحال إلى المصادر التي توسعت في ترجمته.

الثاني: المعجم الصغير للصفدي الذي ذكر فيه" من ولي إمرة دمشق المحروسة في الإسلام ودخلها من الخلفاء وغيرهم مرتبين على حروف المعجم" وقد جعل لهذا التراجم أرقاماً ليسهل الرجوع إلى المطلوب، وهذا المعجم عبارة عن تراجم الولاة المذكورين.

الثالث: أرجوزة للصلاح الصفدي المذكور سماها "تحفة ذوى الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب" فإن المؤلف المذكور بعد أن وضع معجما في أسماء ولاة دمشق ومن دخلها من الملوك والخلفاء نظم معجمه هذا في هذه الأرجوزة بعد أن أضاف إليها إضافات أخرى اطلع عليها بعد ذلك.

الرابع: الفهارس والملاحق وهي تحتوى على فهارس متعددة تسهل الرجوع إلى المطلوب من أقرب الطرق.

التذكرة الصلاحية:

وتسمى أيضا التذكرة الصفدية مخطوطة تقع في ثلاثين مجلداً. كذا ذكره أكثر من ترجم له. ولكن هناك مجلد في دار الكتب المصرية يحتوى على الجزء الثامن والأربعين فيبدو منه أن الكتاب المذكور يقع في خمسين جزءاً وأكثرها مفقود، ولكن منها أجزاء متفرقة في غوطا وأكسفورد والمتحف البريطاني وتوجد منها في دار الكتب المصرية خمسة مجلدات مخطوطة غير متتالية. وقد صنف صلاح الدين هذه التذكرة ليعود إليها عند الحاجة. يقول صديقه تاج الدين السبكى "أعارض مرة من تذكرته مجلداً وكان يصنف كتاباً في الوصف والتشبيه وينظر عليه التذكرة ويكتب على كل مجلد إذا نجز نجز التشبيه منه فلما وجدت ذلك عليه بخطه قلت هذا نصف بيت فكتبت إلى جانبه.

نجز التشبيه منه ـ وروى الراوون عنه ـ ان مولانا لبحر

طافح ان لم يكنه ـ ناقد الأشياء فرد ـ فدع التشبيه منه".(٩٠)

ووضع الصفدي هذا الكتاب مرتبا حسب الموضوعات وقمسه إلى أبواب في أنواع الفضائل والرذائل وفيه كثير من الفوائد التاريخية والاجتماعية كما أن فيه كثيراً من تراجم الشعراء والأدباء وهنا نستعرض قليلا المجلدات الخمسة التي موجودة في دار الكتب المصرية على ضوء أقوال الأدباء والكتّاب.

المجلد الأول: مجلد مكون من عدة أبواب وكل باب خطبة فيها تحميد وصلوة مع الإيجاز، ثم عرض ما اختبر لهذا الباب من شعر أو نثر ومن أبوابه باب ذوفصول فمنها فصل في مراثى الملوك والرؤساء قديما وحديثا. إلى عصر المؤلف شعراً ونثراً وأكثره شعر" وفصل في مراثى الأهل والإخوان وفصل في المراثى والتعازى في الصغار والأطفال وفصل في مراثى النساء وفصل في شواذ المراثى وفصل في نوادر التعازى والمراثى وفصل في حسن التأسى وباب أورد فيه نصوصاً جاءت في العيادة والمرض. وباب في المؤدة والإحسان والمعاشرة والاستزارة، وباب في الهدايا وباب في الذم والهجاء وشكوى الزمان والإغراء والتحريض والوعد والوعيد. وأكثر مختاراته في هذا المجلد شعر وليس فيه ما يدل على ترتيبه بين أجزاء الكتاب.(٩١)

المجلد الثاني: مجلد به باب في الشجاعة والجبن، وباب في الوفاء والمحافظة والأمانة العذر والخيانة والملل. وباب في الصدق والكذب وباب التواضع والكذب والخيلاء والعجب وباب في القناعة والحرص والطمع وباب في صون السروباب في الجور والعدل وباب في العقل والحكمة والتجارب والحمق والجهل وباب في المشورة والرأى.(٩٢)

المجلد الثالث: مجلد يحتوى الثالث عشر بتمامه وخطه جيد واضح ويبدو أنه كتب في حياة مؤلفه إذ قيل في صفحته الأولى "تصنيف الشيخ متع الله ببقائه، ومن محتوياته:

(أ) رسالة بقلم محى الدين عبد الظاهر إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا يعلمه بواقعة السلطان الملك الظاهر مع التتار وتقع في نحو ٢٧٠ سطراً.

(ب) مقطعات شعرية، كل مقطعة منها بيتان وصف مليح.

(ج) قصيدة رائية بديعة من نظم القاضى الفاضل عدة أبياتها ٩٦ بيتا وهي في الغزل تتخللها أبيات في الحكمة والعتاب والشكوى.

(د) رسالة من إنشاء القاضى الفاضل على لسان صلاح الدين الأيوبى ردا على كتاب ورد إليه من خليفة بغداد الإمام الناصر من إنشاء ابن زيادة وهي منثورة مطولة جيدة.

(هـ) رسالة كتبها محى الدين بن عبد الظاهر ردا على رسالة قوام الدين أبى طالب يحى بن زيادة المقدمة الذكر ضمها جملة من الفصول في الإنكار عليه وهي طويلة وبديعة وجيدة.

(و) مقطعات شعرية نوادر فكاهية ورسائل أخرى لابن نباتة والوراق والنصير الحمامى وابن عبد الظاهر وناصر الدين بن النقيب وكلهم من أدباء عصر المماليك ثم ابن قلاقس والبحترى والمتنبى.(٩٣)

الرابع: مجلد يحتوى على الجزء الرابع عشر بتمامه وخطه جيد كسابقة ويحتوى على أمور تالية:

(أ) أخبار أشعار لشرف الدين الأنصارى شيخ شيوخ حماة.

(ب) مقطعات كل منها بيتان في وصف مليح على نمط ما في الجزء الثالث ويبدو أنها من مقطعاته في كتابه "القول الصريح في مائة مليح".

(ج) مقتبسات منثورة مما كتبه المزى والذهبى في اللغة والفقه ونحو هما.

(د) قصيدة للصفدى إلى الأمير عماد الدين موسٰى ويليها مقطعات شعرية لغيره.

(هـ) فصل منقول عن الشهاب القوصى قيل إن الخليل بن أحمد هو الذي كتبه وهو فصل طريف في معنى حروف الهجاء. أى معنى الألف في اللغة والباء مع الاستشهاد على هذا التفسير اللغوى بأشعار العرب.

(و) قصيدة طويلة لبرهان الدين الجعبرى ضمنها أسماء الخلفاء بعد النبى عليه السلام إلى عهده. وهو عهد الناصر بن قلاون والخليفة المستكفى بالله.

(ز) جدول بأسماء الصحابة الذين أكثروا من حفظ أحاديث الرسول وعدتهم خمسة وثلاثون مع بيان عدد ما يحفظه كل منهم وذلك نقلا عن الذهبى.

(ح) جدول بأسماء من كان فرداً في زمانه، بما أتقنه من علم أو نحو وقد نقله عن الذهبى وزاد عليه من عنده أشياء وهو جدول طريف جدا.

(ط) ثبت نقله عن ابن الفوطى صاحب كتاب " معجم الألقاب" في التاريخ ذكر فيه أسماء ما طالعه من كتب التاريخ في سبيل تأليف كتابه. وهو عظيم النفع في معرفة كتب التاريخ وأسمائها ومؤلفيها.

(ى) لغز كتبه شرف الدين حسين بن المقرجمال الدين بن دياب في 'المئذنة' ورد الصفدي وبدر الدين بن مكى عليه.

(ك) رسالة للقاضى الفاضل منثورة يبدو أنه أرسلها إلى الخليفة في الشكر وله رسائل أخرى وأشعاره.

(ل) مختارات لبعض الشعراء ومنهم النصير الحمامى وابن دانيال الموصلى الكحال صاحب "طيف الخيال" الذي نتحدث عنه في "باب القصص" من هذا البحث وبهذه المناسبة ألفت النظر إلى المجموعة الشعرية التي سجلها الصفدي هنا لابن دانيال يندر عن توجد في غير هذه التذكرة وهي ضخمه تصلح ديوانا مستقلا في أغراض متنوعة.

الخامس: مجلد يحتوى على الجزء الثامن والأربعين ويحتوى على ما يلى:

(أ) رسالة كتبها الصفدي إلى القاضي شمس الدين محمد بن قاضي شهبة يهنئه حينما نقل من غزة إلى صفد عام ٧٦٢هـ كاتبا للسر وقدمها بأبيات لطيفة وقد رد عليه ابن قاضي شهبة.

(ب) رسالة كتبها ابن أبى حجلة الغربى إلى الصفدي فى الشوق مقدمة بعدة أبيات. ورد عليها الصفدي.

(ج) أبيات ومنثورات كثيرة في أغراض عدة منها أبلغ ما قيل في السقام وفصل فيما جاء خارجا عن قراءة السبعة، نقله من كلام ابن الصير في كاتب الفاطمين.

(د) جملة من رسائل ومنثورات القاضى الفاضل وهي ضخمة تكون ديوانا بمفرده. وقد لا توجد بغير هذه التذكرة.

(هـ) ثبت لطيف فيمن قتل هو وأبوه أو ابنه وآخر في بعض الأسر الشهيرة وأفرادها مثل بني حمدون وبني العديم وبني الأغلب.

(و) أرجوزة ورسالة من إنشاء الصفدي ونظمه، كل منهما في ذكر أسماء من تولى دمشق من خلفاء وملوك ونواب.(٩٤)

رشف الرحيق في وصف الحريق:

هذا الكتاب مقامة ألفها الصفدي في وصف حريق دمشق الذي شب عام ٧٤٠هـ وأتلف كثيرا من الأبنية والأسواق، ألحق الضرر بكثير من أهلها. وكان نائب دمشق إذ ذاك الأمير تنكز الذي لبث في نيابتها سنين طويلة، وهذا الحريق كما يبدو هو الذي كتب فيه ابن الوردى مقامته "صفو الحريق" وقد أشار الصفدي في مقامته إلى ما نال دمشق من الأذي بهذا الحريق شبوبة وانتشاره في أحيائها وامتلائها بدخانه وامتداده إلى أسواقها وعمائرها إلى غير ذلك فهي مقامة وصيفة.

ونورد هنا فقرات من هذه المقامة حتى يتضح لنا أسلوبه فيها وقد ذكرها ابن فضل الله العمرى في كتابه 'مسالك الأبصار' والفقرات هي "فسألت عن الخبر ممن غبر" فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع وانظر إلى شبح الجو كيف انتشرت في عقائق اللهب اللامع، فبادرت إلى صحنه. والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار يذوب الشحم، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام معصفرات ذوائبها. وصعدت إلى السماء عذبات ذوائبها. ذوائب لجت في علو كأنما تحاول ثارا عند بعض الكواكب. وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي "ترمى بشرر كالقصر" فكم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية وكم نفس كانت في النازعات وهي تتلو "هل أتاك حديث الغاشية" ولم تزل النار تأكل ما يليها وتنفى ما يسفلها ويعتليها. إلى أن ارتفعت إلى المنارة الشرقية ولعبت ألسنتها المسودة في أغراض أخشابها النقية، وثارت إليها من الأرض لأخذ النار، وأصبح صخرها كما قالت الخنساء، كأنه علم في رأسه نار فنكست وكانت للتوحيد سبابة ولمعبدها المطرب شبابة وابتلى رأسها من الهدم والنار بشقيقة وأدار الحريق على دائرها رحيقة.

وبالأرض من حبها صفرة * فما تنبت الأرض إلا بهارا.

وأصبح "باب الساعات" وهو من آيات الساعة وخلت مصاطب الشهود من السنة والجماعة، وعادت الدهشة وقد آل أمرها إلى الوحشة وحسنها البديع وقد تلت النار عرشه كأن لم أربها سميراً ولا شاهدت من بنائها وقماشها جنة وحريراً ....الخ.(٩٥)

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن هذه المقامة موضوعة في وصف الخمر.(٩٦) وهذه المخطوطة توجد في إسكوريال وقد رأها صلاح الدين المنجد حيث يقول "وكنارأينا نسخة مخطوطة من هذه المقامة في الإسكوريال عام ١٩٥٤م عندما كنا نعمل على وضع فهرس للمخطوطات العربية في أسبانية وهي برقم٥٢٤".(٩٧)

الشعور بالعور:

هو كتاب في أدب العور وذكر تراجمهم وسرد العديد من أخبارهم وطرائفهم، فهو أحد الكتب النادرة في موضوعه الشائقة في أسلوبها. وقد عنى بتحقيقه وإخراجه والاستدراك عليه عبد الرزاق حسين مع عمل فهارس فنية كاملة، دلت على جهد كبير وإخلاص في التحقيق مع دقة في مقابلة النسخ الخمس التي أخرج على ضوئها الكتاب.

قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة:

ذكر خير الدين الزركلى هذا الكتاب في مصنفات الصلاح الصفدي المطبوعة حيث قال "قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة ـ ط".(٩٨) ولكن صاحب اكتفاء القنوع نسب هذا الكتاب إلى شهاب الدين الصفدي ويوسف سركيس وإن ذكره في مؤلفات الصلاح الصفدي ولكنه رأى أن هذا الكتاب لشهاب الدين الصفدي والتبس بين صلاح الدين الصفدي وشهاب الدين الصفدي لأنه قال "قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة (من قريش) رسالة تلخصت من كتاب شهاب الدين الصفدي بطلب الأمير رضوان بك الأمير بولاق ١٢٨٧ مط محمد مصطفى ١٣١٦ ص ٢٢".(٩٩) وذهب محقق كتاب الصفدي "غوامض الصحاح" عبد الإله نبهان إلى أن هذا الكتاب ليس لصلاح الصفدي بل هو لشهاب الدين الصفدي حيث يقول "ولا أستطيع أن أجزم بصحة نسبة هذا الكتاب إلى الصلاح الصفدي، فلم أر أحداً من مترجميه ذكره ثم أن ما قاله سركيس عن

كتاب شهاب الدين الصفدي يخيل إليّ أنه أحدث لبساً بين الصلاح الصفدي وبين الشهاب فنسب ما للشهاب إلى الصلاح والله أعلم".(١٠٠)

ونقول بعد استعراض دقيق لارآء الكتاب والنقاد إننا وإن لم نطلع على مصدر قديم يثبت أن هذا الكتاب للصلاح الصفدي ولكن خير الدين الزركلى لما ذكر أن الكتاب له وهو من المحققين المعتمد عليهم فينبغى أن نعتمد عليه.

نكت الهميان في نكت العميان:

كتاب في أخبار ونوادر وتراجم العميان ممن فقدوا نعمة البصر في مقتبل العمر أو أخره. وألف الصفدي هذا الكتاب لما وجد من سبقه من المؤلفين يسوقون فصلاً أو باباً في كتبهم في من ذهب بصرهم كابن قتيبة في المعارف وابن الجوزى في تلقيح فهوم الآثر وغيرهم. فقوى هذا العزم لدى الصفدي أن يفرد لهم تصنيفا يخصهم فيه بالذكر فكان هذا الكتاب الذي رتبه على مقدمات ونتيجة، ففى المقدمات تكلم عن فوائد لغوية وصرفية وأدبية وفلسفية وشرعية مع ذكر ما جاء في ذلك من الأخبار والآثار. كقصة الأقرع والأبرص والأعمى التي وردت في صحيحى البخاري ومسلم. ثم أراد طائفة من النوادر تتعلق بالعميان منها ما قال:

قال بعضهم لبشار بن برد: "ما أذهب الله كريمتى مؤمن إلا عوضه الله خيراً منها. فبم عوضك؟ قال بعدم رؤية الثّقلاء مثلك".(١٠١)

ومنها ما قال في أعمى اُخر حكاية عن بعض حيث قال:

قال بعضهم : نزلت في بعض القرى وخرجت في الليل لحاجة فإذا أنا بأعمى على عاتقه جرّة ومعه سراج، فقلت له. يا هذا؟ أنت والليل والنهار عندك سواء فما معنى السراج؟ فقال: يا فضوليّ، حملته معى لأعمى البصيرة مثلك. يستضئ به فلا يعثربى فأقع أنا وتنكسر الجرّة.(١٠٢)

وأدمج الصفدي في هذا الكتاب شيئا من شعر العميان وما قيل فيهم من الغزل وغيره ممن ذلك ما أنشد الجاحظ لابن عباس رضى الله عنها:

إن يأخذ الله من عينى نورهما * ففى لسانى سمعى منهما نور.

قلبى ذكيّ وعقلى غير ذى دخل * وفي فمى صارم كالسيف مأثور.(١٠٣)

ومنه ما قال بشار ابن برد:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة * والأذن تعشق قيل العين أحيانا.

قالوا :

بمن لاترى تهذى فقلت لهم * الأذن كالعين توفى القلب ما كانا.(١٠٤)

وأورد الصفدي في كتابه هذا طائفة من تراجم من أصيب بالعمى من الصحابة والعلماء وغيرهم كالترمذى الكبير الحافظ، والفقيه منصور المصرى الشاعر، وأبى العيناء والشاطبى المقرئ وأبى العلا المعرى والسهيلى صاحب الروض الأنف، وابن سيده اللغوى، وأبى البقاء العكبرى وابن الخباز النحوي والنيلى شارح الحاجبية وغيرهم، ومن أشهر هؤلاء ترجم للعباس بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه بقوله :

"العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي استسقى المطر عام الرمادة لما أقحط الناس وكان ضريراً فسقى الله البلاد والعباد. وكان مما قاله بعد حمد الله والثناء عليه :

"اللهم إن عندك سحابا وعندك ماء فانشر السحاب ثم أنزل الماء فيه علينا. فاشدد به الأصل أطل به الفرع، وأدر به الضرع. اللهم إنك لم تنزل بلاءً إلا بذنب ولم تكشفه إلا بتوبة".(١٠٥)

ومن أهم ما فى الكتاب الإشارة إلى أن برابل صاحب الكتابة البارزة الخاصة بالعميان. والذي تدرس طريقته باللمس في أنحاء المعمورة لم يكن سابقاً في ذلك وإنما سبقه في ذلك أحد العلماء المسلمين هو على بن أحمد بن يوسف الحنبلى الأموى العابر المتو في بعد سنة ٧١٢هـ حيث كان إذا اشترى كتابا بشئ معلوم أخذ قطعة ورق خفيفة وفتل منها فتيلة لطيفة وضعها حرفا أو أكثر حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجمل، ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل، ويلصق فوقه ورقة لتتأبد، فإذا شذعن ذهنه كميّة ثمن كتاب ما من كتبه مس الموضع الذي علّمه في ذلك الكتاب بيده، فيعرف ثمنه من تنبيت العدد الملصق فيه.(١٠٦) وهذا الكتاب طبع بمصر سنة ١٩١١م باعتناء أحمد زكى بك .

فالكتاب طريف في موضوعه ومبتكر فيه وإن كان قد تكلم بعض الكتاب عن هذا، ولكنه لم يمكن بشكل كتاب وأسلوبه أيضا بديع وأورد طائفة من المعلومات حول العميان والحوار فيما بينهم،

ولكنه لم يستوعب جميع ما يتعلق بالعميان. والكتاب يشتمل علـى ٣٢٠ صفحـة. وقد اختصر عبد الباسط بن موسىٰ العلموي الموقت الواغظ بالجامع الأمـوى ٩٦٣هـ، ومنـه نسـخة بخطـه وفي آخره فهرست للأعلام من العميان المذكورين في الكتاب، وكـانت هـذه النسـخة مـن مخطوطـات المركز الثقافى بحماة، ثم نقلت إلى مكتبة الأسد بدمشق، عن فـهرس الأسـتاذ مصطفـى الجـدرى لمخطوطات حماة.

الوافى بالوفيات:

وهو أضخم كتب طبعت له وأكبرها جمعاً وشملاً وبه اشتهر الصفدي بين الأوسـاط العلميـة وخلـد ذكره فيمن بعده. فهو بضخمه دخل في ثلاثـين مجلـداً طبـع بكمالـه باعتنـاء المحقـق المسـتشرق الألمانى هلموت ريتر طبع المجلد الأول سنة ١٩٦٢م والثاني والثالث والرابع سنة١٩٧٤م والخـامس والسادس والسابع سنة ١٩٩١م والثامن ١٩٨٢م والتاسع والعاشر والحادي عشر سنة ١٩٩١م والثـانى عشر ١٩٨٥م والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشـر والحادي والعشرون والثاني والعشرون سنة ١٩٩١م والبواقى مـن مجلداتـه لم تصـل حتـى الآن إلى ايدينا، ولم أعثر على أنها نشرت أم لا. ومخطوطة هذا الكتاب موجودة بصـورة نسـخات منتـثرة في شتى المكتبات جمعها جرجى زيدان بتفاصيلـها فإنـه يقـول" ومـن موجبـات الأسـف أن هـذا الكتاب النفيس لا يوجد كاملاً في مكان واحد وربمـا لا يتيسـر جمـع نسـخة كاملـة مـن الأجـزاء المتفرقة في المكاتب التي بلغنا خبرها. فمنه قطعة بخط المؤلف في غوطا وتسعة أجزاء غير متناسقة في مكتبة تونس. والجزء الأول في فينا والأجزاء ٣ و٩ و٢٤ و٢٥ في المتحف البريطانى و٥ و٦ و١١ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦ و٢٠ و٢١ و٢٤ و٢٦ في أكسفورد، والثامن والخامس عشر في باريس. ومنـه ٤ أجزاء في مكتبة حلب، وسبعة أجزاء في نـور عثمانيـة. ووفقنـا في الخزانـة التيموريـة علـى سـتة أجزاء منه وهي: الأول ينقص من أوله والثالث يبدأ بترجمة محمـد بـن عبـد، وينتـهى بترجمـة المنذر بن سعيد. والخامس من ترجمة إبراهيم إلى أحمد، والسادس من أحمد بن سـلام إلى أحمـد بن محمد. والأجزاء ١٢ و١٣ و١٤ تبدأ بحيدر ابن مسرور وتنتهى بعبـاد بـن محمـد. وصفحـات الأجزاء الستة المذكورة ١٧٣٠ صفحة كبيرة بخط مغربى. وفي هذه الخزانة أيضا نسخة أخرى من

الجزء الأول منقولة عن مكتبة حلب في ١٥١٦ صفحة فاعتبر كم يكون مجموع صفحاته كلها. فلا غرو إذا قلنا إنه أكبر كتب التراجم. وقد طبعت مقدمة هذا التاريخ في المجلة الأسـيوية الفرنسـية سنة (١٩١١-١٩١٢) ونشرت في كتاب على حدة مع ترجمة فرنسـية لا ميـل امـار. ولا يبعـد أن توجد من هذا المعجم نسخة كاملة في بعض المكاتب الخصوصية البعيدة.(١٠٧)

وأورد الدكتور طاهر تونس فهرسا لمخطوطة خمسة عشر مجلداً وأشـار إلى حالـه ووجـوده بقولـه، ومخطوطاته كالتالى:

١ـ الجزء الأول: ويوجد في فينا والخزانة التيمورية وحلب.

٢ـ الجزء الثاني: وتوجد مخطوطة فريدة في مكتبة تونس.

٣ـ الجزء الثالث: وتوجد مخطوطاته في المتحف البريطانى ونور عثمانية.

٤ـ الجزء الرابع: ويوجد جزء من مخطوطته في الخزانة التيمورية وهي مخطوطة غير كاملة.

٥ـ الجزء الخامس: وتوجد مخطوطته في مكتبة جامعة أكسفورد.

٦ـ الجزء السادس: وتوجد مخطوطته في مكتبة جامعة أكسفورد والخزانة التيمورية.

٧ـ الجزء السابع: قد يكون مفقوداً.

٨ـ الجزء الثامن: وتوجد مخطوطته في باريس.

٩ـ الجزء التاسع: وتوجد مخطوطته في المتحف البريطانى.

١٠ـ الجزء العاشر: وتوجد مخطوطته في حلب.

١١ـ الجزء الحادى عشر: وتوجد مخطوطته في أكسفورد.

١٢ـ الجزء الثاني عشر: وتوجد مخطوطته في الخزانة التيمورية.

١٣ـ الجزء الثالث عشر: وتوجد مخطوطته في الخزانة التيمورية.

١٤ـ الجزء الرابع عشر: وتوجد مخطوطته في أكسفورد والخزانة التيمورية.

١٥ـ الجزء الخامس عشر: وتوجد مخطوطته في نور عثمانية. هذا ما وصل إلى علمى من مخوطات الكتاب، وتوجد بعض أجزاء أخرى في مكتبات متفرقة.(١٠٨)

هذه الملة ونجباء الزمن وأمجاد ورؤس كل فضل وأساطين كل علم وأبطال وشجعان كل حرب، فجاء الكتاب مشتملا على ما كان يقصده المؤلف كما يراه اللبيب.

ونجد هناك كتابين على شاكلة الوافي أحدهما لابن خلكان وهو وفيات الأعيان وهو أسبق الكتب الثلاثة. والآخر فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، وليس من الواضح أن الصفدي قرأ وفيات الأعيان فرآه ضئيلاً لم يف بتراجم كثير من الأعلام، فأحب أن يستدرك عليه ويعقب بما وسعه علمه وألف كتابه هذا كما يدل تسمية الكتاب.

ب ـ الوافي بالوفيات، عليه أو هو فكرة مستأنفة مستقلة من عنده، ولكنه من المتأكد أن كتاب فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ذيل على كتاب وفيات الأعيان وهو أقل شأناً منه في كثير من خصائصه، وكتاب الصفدي أوفي هذه الكتب الثلاثة بتراجم الأعلام من كل صنف بدون تفريق بينهم في العصور أو الأمصار أو الفنون أو الحرف.

وأخذ الصفدي أسلوبا طريفا ومنهجا بديعا لكتابه هذا ونتركه يقدم منهج كتابه بنفسه وبلغته الأدبية المتميزة حيث يقول:

فقد دعوت الجفلى إلى هذا التأليف، وفتحت أبوابها لمن دخلها بلاتسويغ تسويف ولا تكليم تكليف، وذكرت لمن يجب فتحا يسّره، أو خيراً قرّره أو جودا أرسله، أو رأيا أعمله، أو حسنة أسداها، أو سيئة أبداها، أو بدعة سنها وزخرفها، أو مقالة حرّر فنّها وعرّفها، أو كتابا وضعه، أو تأليفا جمعه، أو شعراً نظمه، أو نثراً أحكمه.

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته * ما فاته وفضول العيش أشغال.

ولم أخلّ بذكر وفاة أحد منهم إلا فيما ندد وشذّ، وانخرط في سلك أقرانه وهو فذّ، لأنى لم أتحقق وفاته، وكم من حاول أمرا فما بلغه وفاته، على أنه قديجئ في خلال ذلك من لا يضطرّ إلى ذكره، ويبدو هجر شوكه بين وصال زهره، قال خليل بن أحمد رحمه الله تعالى لا يصل أحد من النحو إلى ما يحتاج إليه إلا بعد معرفة ما لا يحتاج إليه. قلت فقد صار ما لا يحتاج إليه محتاجا إليه لأن المتوقف وجوده على وجود شئ آخر متوقّف على وجود ذلك الشئ، وهكذا كل علم لا يبلغ الإنسان إتقانه إلا بعد تحصيل مالم يفتقر إليه. فقد أذكر في كتابى هذا من لا له مزيّة،

وجعلت أصبع القلم من ذكره تحت رزّة زيّة، غير أن له مجرّد رواية عن المعارف متفردة، ولم تكن له دراية حمايها على غصون النقل مغرّدة.

والايك مشتبهات في منابتها * وإنما يقع التفضيل في الثمر.

ولكن أردت النفع به للمحدث والأديب، والرغبة فيه للبيت والأريب وجعلت ترتيبه على الحروف وتبويبه، وتذهيب وضعه بذلك وتهذيبه، على أننى ابتدأت بذكر سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هو الذي أتى بهذا الدين القيم وسراجه وهّاج، وصاحب التنبيه على هذه الشرعة والمنهاج، فأذكر ترجمته مختصراً، وأسرد أمره مقتصراً، لأن الناس قد صنفوا المغازى والسير، وأطالوا الخبر فيها كما أطابوا الخبر، ومليت لما ملئت بشمائله مهارق التواليف، ورفعت لما وضعت تيجانها على مفارق التصانيف.(١١٣)

وأورد الصفدي في بداية الكتاب مقدمة مطولة تحتوى على أحد عشر فصلاً. وهذه المقدمة من أمتع ما كتب مؤرخ في إيضاح مسائل التاريخ والتراجم وتحليلها، وهذا الأمر يدل على سعة اطلاعه وسموا أدبه وعلى تدقيقه واستقصائه <u>فالفصل الأول</u> في بداية التاريخ عند العرب وذكر رأى من قال إنه بدأ بموت كعب ابن لؤى، ورأى من قال إنه بدأ بموت الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن محزوم لإعظامهم إياه، ورأى من قال بعام الفيل، ورأى من قال بإعادة بناء الكعبة، ثم يستطرد المؤلف إلى ذكر أقدم التواريخ التي بين أيدى الناس حيث يقول "زعم بعضهم أن أقدم التواريخ تاريخ القبط لأن بعد انقضاء الطوفان وأقرب التواريخ المعروفة تاريخ يزد جرد بن شهريار الملك الفارسى وهذا هو تاريخ أرخه المسلمون عند افتتاحهم بلاد الأكاسرة وهي البلاد التي تسمى بلاد ايران شهر".(١١٤) <u>والفصل الثاني</u> في تحقيق لفظ التاريخ واستقاقه وتمييز الأعداد وضرورات الشعر، ذلك أن المؤرخ أديب كاتب يحتاج إلى كتابة الأعداد المرتبطة بالتواريخ ومن ينبغى معرفة تمييز كل عدد، هذا فضلاً عن حاجته إلى رواية الشعر والاستشهاد به. <u>والفصل الثالث</u> في كيفية كتابة التاريخ قاصداً بذلك ذكر الأعداد المرتبطة بالشهور وتمييزها والضمائر التي تعود عليها، وما يجوز من ذلك وما لا يجوز، وصفات الشهور وصفات بعض الأيام ويضرب مثلاً بأول شوال وهو عيد الفطر، وثامن ذى الحجة وهو يوم التروية وتاسع ذي الحجة وهو يوم عرفة.

وعاشرة وهو عيد النحر وتاسع المحرم وهو يوم تاسوعاء وعاشرة وهو يوم عاشوراء وهكذا. وذكر عادة العرب في هذا الشأن بقوله "وجرت العادة بأن يقولوا في شهر المحرم شهر الله وفي شهر رجب شهر رجب الفرد أو الأصم أو الأصب وفي شعبان شعبان المكرم وفي رمضان رمضان المعظم وفي شوال شوال المبارك".(١١٥) والفصل الرابع في النسب وما يتصل به نحويا وصرفيا، فإن المؤرخ يضطر إليه والنسب هو إضافة شئ إلى بلد أو قرية أو صناعة أو مذهب أو عقيدة أو علم أو قبيلة أو والد. وبين الصفدي أشياء مفيدة تتعلق بالنسبة والمنسوب والمنسوب إليه، كما بين قواعد النحاة الصرفيين في هذا الصدد. والفصل الخامس في بيان العلم والكنية واللقب وذكر وجوب تقديم اللقب على الكنية والكنية على العالم، ثم النسبة إلى البلد ثم إلى الأصل ثم إلى المذهب في الفروع، ثم إلى المذهب في الاعتقاد كما يقول "إذ قد عرفت العلم والكنية واللقب فسردها يكون على الترتيب تقدم اللقب على الكنية والكنية على العلم، ثم النسبة إلى البلد ثم إلى الأصل إلى المذهب في الفروع ثم إلى المذهب في الاعتقاد ثم إلى العلم أو الصناعة أو الخلافة أو السلطنة أو الوزارة أو القضاة أو الامرة أو المشيخة أو الحج أو الحرفة كلها مقدم على الجميع، فيقول في الخلافة أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبو العباس أحمد السامرى إن كان ولد بسّر من رأى البغدادى فرقا بينه وبين الناصر الأموى صاحب الأندلس الشافعى الأشعرى إن كان يتمذهب في الفروع بفقه الشافعى ويميل في الأعتقاد إلى أبى الحسن الأشعرى".(١١٦)

والفصل السادس في الهجاء والكتابة ويهتم بصفته خاصة بالهمزة والألف والواو والياء ثم بين تنبيها وقاعدة وتذنيبا وتتمة فالتنبيه يقول "لا يكتب المضاف في آخر السطر الأول ويبتدأ بالمضاف إليه في السطر الثاني كعبد الله وأبى بكر والمعاربة يفعلون ذلك وليس بحسن وأبلغ من هذا أن يكتبوا الكلمة الواحدة مفصولة الحروف في السطرين كالزاى والياء والدال والواو في السطر الأول آخرا والنون من تتمة زيدوون في أول السطر الثاني وهوأقبح من الأول".(١١٧) والقاعدة في تنقيط الحروف والتذنيب في كتابة الكاف والتتمة في كتابة حدثنا وأخبرنا. والفصل السابع يخصصه المؤلف لنوعية تصنيف مؤلفات المؤرخين فرأى أن ترتيب المصنفات على السنين أليق بالتاريخ وترتيبها على الحروف أليق بالتراجم، والفصل الثامن في كلمة الوفاة وأصلها مشتقاتها واستعمال

هذه المشتقات والصيغ المختلفة للاسم والصفة والفعل.وسرد هنا حكاية لطيفة في هذا الشأن "وقد حكى أن بعضهم حضر جنازة فسئل بعض الفضلاء وقال من المتوفى بكسر الفاء فقال له الله تعالى فأنكر ذلك إلى أن بين لها الغلط وقال قل من المتوفى بفتح الفاء".(١١٨)

الفصل التاسع في فوائد التاريخ وأورد فيه واقعة يتعرف منها مؤرخ على الخبر الصحيح والخبر المزيف أو الخاطى، والفصل العاشر وضعه لبيان آداب المؤرخ والشروط التي ينبغى أن تتوفر فيه، فذكر أولا أربعة شروط اشترطها تقى الدين السبكي للمؤرخ وهي: الصدق، واعتماد اللفظ دون المعنى عند النقل، واعتماد نقل الفورى، وتسمية المنقول عنه، ثم أضاف الصفدي خمسة شروط أخرى بقول " ويشترط فيهأيضاً لما يترجمه من عند نفسه ولما عساه يطول في التراجم من النقول ويقصر أن يكون عارفاً مجال صاحب الترجمة علماً وديناً وغيرهما من الصفات وهذا عزيز جدّا وأن يكون حسن العبارة عارفاً بمدلولات الألفاظ وأن يكون حسن التصور حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ويعبّر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه، وأن لا يغلبه الهوى فيخيّل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه والتقصير في غيره بل إما أن يكون مجرّداً عن الهوى وهو عزيز وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ويسلك طريق الإنصاف فهذه أربعة شروط أخرى، ولك أن تجعلها خمسة لأن حسن تصوّره وعلمه قد لا يحصل معهما الاستحضار حين التصنيف، فيجعل حضور التصور رايداً على حسن التصور والعلم فهي تسعة شروط في المؤرخ وأصعبها الاطلاع على حال الشخص في العلم فإنه يحتاج إلى المشاركة في علمه والقرب منه حتى يعرف مرتبته".(١١٩) والفصل الحادي عشر جعلها للاستعراض لأسماء كتب التاريخ فقد ساق أسماء ٢٨٢ تاريخاً من تواريخ المشرق كتب تاريخ مصر وكتب تاريخ المغرب وكتب تاريخ اليمن والحجاز والتواريخ الجامعة وكتب تاريخ الملوك والوزراء والعمّال والقضاة والقرّاء والعلماء والشعراء ثم قال في تواريخ مختلفة " وكتب الجرح والتعديل والأنساب ومعاجم المحدثين ومشيخات الحفّاظ والرواة فإنها شئ لا يحصره حد ولا يقصره عد ولا يستقصيه ضبط ولا يستدنيه ربط لأنها كاثرت الأمواج أفواجاً وكابرت الإدراج اندراجاً فلهذا لم أذكر منها هاهنا شيئا وإذا جاء ذكر شئ منها في ترجمة من تأتى ذكره ذكرته هناك إن شاء الله تعالى".(١٢٠)

فهذه مقدمة طويلة مفيدة لاغنى عنها لمؤرخ ولا لكـاتب الـتراجم والسـير يقـول الدكتـور مصطفـى الشكعة "إنها مقدمة طويلة أو هى بالأخرىدراسة منهجية تتعلق بالمنهج والوسيلة اللتـين ينبغـى للكاتب المؤلف أن يكون ملمّا بهما منفداً لهما يستوى في ذلك كاتب التاريخ العام أو كاتب تـاريخ الأدب أو تاريخ الحديث".(١٢١)

واتخذ الصفدي في إيراد التراجم الترتيب الهجاءى غير أنه ابتدأ بـالمحمدين وذلـك تبركـا باسـم النبى صلى الله عليه وسلم فذكر من سموا محمداً في الجاهلية ،وأول مـن سمـوا محمـداً مـن أبنـاء المهاجرين وأبناء الأنصار، ثم بدأ في ترجمة للرسول صلى الله عليه وسلم استغرق نحواً من أربعين صفحة، تكلم فيها عن حياته ونبوته وفضله وأسمائه وهجراته إلى المدينة ثم شرح القريـب ممـا في صفته صلى الله عليه وسـلم وبـين أخلاقه ونبـذة مـن معجزاتـه وآياتـه وغزواتـه وذكـر بعوثـه وحججه وعمره وتحدث عـن زوجاتـه وأولاده وبناتـه وأعمامـه وعماتـه وأمرائـه ورسـوله إلى الملـوك ومواليه وأماته وخدمه وحرسه وكتابه والنجباء من أصحابـه والعشـرة المشـهود لهـم بالجنـة. ثـم الذين أشبهوه وذكر دوابّه وسلاحه وأثوابه. ثـم انتـهى عـن ترجمتـه بانشـاد قصيـدة مدحـه بـها متيمنا بوجه الأغر وكعبه المبارك راجياً أن يحشر في زمرة من مدحه فمن مدحه:

سلو الدموع فإن الصب مشغول * ولا تملوّا ففي إملائها طول

واستخبروا صادحات الايك عن شجنى * هل في الغرام الذي تبديه تبديل.

وهل لمّا ضمت الأحشاء بعدكم * من الجوى عند ما تحويه تحويل.

احبتى لا وعيش مرّلى بكم * وربع لهوى باللذّات مأمول.

ما كان لى مذعرفت الوجد قط ولا * يكون في غير كم قصد ولا سول.

وهكذا أنشد تسعة وستين بيتا. تركنا ها خوفا للإطناب.

وبلغ عدد المحمدين الذين ترجم لهم الكتاب باستشناء سيدنا محمد صلى الله عليـه وسـلم الفـين وثلاثمائة و واحداً وخمسين عينا من أعيان التاريخ حتى عصر المؤلـف اخرهـم محمـد بـن يونـس المعروف بالشيخ جمال الدين الساوجى الزاهد شيخ الطريقة القرندلية.

وبعد أن انتهى المؤلف من الترجمة للمحمدين بدأ البداية الطبيعية حسب حروف المعجم فكان آدم الاسم التالى لاسم محمد ومضى على سنته حتى وصل إلى اسم أحمد فإذا بعدد الذين ترجم لهم من الأحمدين بلغ الفاوتسعة ستين اسماً.

ولقد عنى المؤلف في تأليف هذا الكتاب بذكر اللقب والكنية والنسبة للذين يترجم لهم ويعنى بضبط ما يراه ضروريا منها وبخاصة النسبة إذا كانت إلى اسم أعجمى أو عربى غير كثير الشيوع كما ترجم للحافظ السبعيّ:

"إسرائيل بن يونس بن أبى إسحاق عمرو بن عبد الله الهمدانى السبعيّ الكوفي الحافظ ولد سنة إحدى وستين ومائة. وسمع من جده روى عنه البخارى ومسلم والترمزى وأبو داؤد والنسائى وابن ماجة قال ابن معين: ثقة وهو أثيت من شيبان في أبى إسحاق وكذا وثقة غير واحد".(١٢٣)

ولكثرة ما أورد المؤلف في كتابه من تراجم الرجال تختلف أخبارهم طولاً وقصراً وتفصيلاً وإيجازاً حسب أهمية المترجم له أو حسب توفر المواد عنده فإن عدداً كبيراً من أصحاب التراجم يحتل الواحد منهم عشرين صفحة أو يزيد مثل ترجمة ابن سيد الناس فإنها في حوالى ثلاث وعشرين صفحة وترجمة جمال الدين ابن نباتة المصرى في عشرين صفحة وقد يأتى بترجمة موجزة بحيث تقتصر على الإسم وتاريخ الوفاة كما ترجم لإسحاق بن حنيفة بقوله " إسحاق بن حنيفة الجرجانى الزاهد العابد توفى في حدود الثمانين والمائتين".(١٢٤)

وفي أحيان قليلة يغفل المؤلف ذكر تاريخ الوفاة ولكنه يجتهد في أن يعطى القارئ قرينة يستطيع أن يتعرف من خلالها على الفترة الزمنية التي عاش فيها المترجم له على وجه التقريب كما نشاهد في ترجمة إسحاق بن يحى بن المبارك العدوى حيث يقول "إسحاق بن يحى بن المبارك العدوى المعروف والده باليزيدى وهو أخو إبراهيم وإسماعيل وعبد الله الذين ذكرهم الخطيب في تاريخه وذكره أيضا محمد ابن إسحاق النديم في كتاب الفهرست" وذكر أنه كان زاهداً عالماً بالحديث.(١٢٥)

ويتضح للباحث عن هذا الكتاب أن مؤلفه في كثير من المواضع يعرف أن كثيرا من الأعلام عرفوا بألقابهم أو بنسبتهم أو بأسماء شهرة وأن أسمائهم الأصلية تخفى على كثير من الناس حتى الخاصة منهم، إنه حينئيذ يذكر المترجم له باسم شهرته أو نسبته أو كنيته ثم يردف ذلك باسمه الحقيقي ويحيل القارى على مكانه حسب الترتيب الهجائي للاسم. فمثلا الأرجاني الشاعر غير معروف باسمه لدى كثير من المتأدبين فيأتي به المؤلف في مكانة من حرف الهمزة ثم يقول اسمه الحقيقي أحمد بن الحسين فيذهب القارئ باحثا عنه في مكانه بين الأحمدين.(١٢٦)

ويخيل إلى القارى في كثير من مواضع هذا الكتاب أن الكتاب موضوع في بيان أسماء الرجال، وذلك لإتخاذ المؤلف أسلوباً طريفاً في كتابة تراجم العلماء وتوثيقهم وتضعيفهم ونقل أقوال المحدثين فيهم فأسلوبه هذا شبيه بأسلوب المحققين من المحدثين، كما نشاهد في كتابه ترجمة أسد بن حارثة العليمي وأسد بن عمرو أبى المنذر البجلي فيقول في الأول " أسد بن حارثة العليمي قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أخوه قطن في نفر من قومهم، فسألوه الدعاء لقومهم في غيث السماء، وكان متكلمهم وخطيبهم فطن بن حارثة فذكر حديثا فصيحا كثير الغريب من رواية ابن شهاب بن عروة بن الزبير".

وفي الثاني "أسد بن عمرو أبو المنذر البجلي الكوفي صاحب أبى حنيفة من كبار أهل الرأى، قال البخارى: ضعيف وقال أبو داؤد: ليس به بأس: توفى سنة تسعين ومائة.(١٢٧)

وقد يذكر في ترجمة بعض الصحابى حديثا رواه ذلك الصحابى عن النبى صلى الله عليه وسلم كما فعل في ترجمة الأسدى الصحابى حيث قال: أسد ابن أخى خديجة القرشى الأسدى الصحابى، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا تبع ما ليس عندك! ذكره العقيلى وقال: في أستاذه مقال".(١٢٨)

ونظراً للاختصار قد يحيل القارى على نسب من يترجم له حيث مضى ذكره في ترجمة آخر من ذلك النسب كما فعل في ترجمة الشيخ علاء الدين بن "على بن محمد بن سلمان بن حمائل الشيخ الفاضل البليغ الكاتب الشاعر صدر الشام القاضى علاء الدين بن غانم بقية الأعيان تقدم

تمام نسبه في ترجمة الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن غانم في الأحمدين توفى بتبوك رحمه الله تعالى في المحرم سنة سبع وثلاثين وسبع مائة، وله ست وثمانون سنة".(١٢٩)

وقد أكثر المؤلف ذكر الألقاب والكنى لكثير من الأعيان، ثم يشير إلى أسمائهم ويعنى أن تراجمهم قد كتب تحت أسمائهم فيعقد فقرة باسم الألقاب كما يقول:

الألقاب

ابن دراج القسطلّى الشاعر: اسمه أحمد بن محمد بن العاص (٣٤٦٠).

ابن الدرا: يوسف بن درّة.

الدراوردى الإمام المحدث: اسمه عبد العزيز بن محمد.

الدرجى الحنفى: إبراهيم بن إسماعيل (٢٣٩٩).

أم الدراداء الصغرى: اسمها هجيمة.

أبو الدرداء: عويمر بن قيس.

أم الدرداء الكبرى: اسمها خيره.

ابن درستوية النحوى: اسمه عبد الله بن جعفر.

الدرفيل: حسام الدين لاجين الدودار.

ابن دريد اللغوى: اسمه محمد بن الحسن. (٨٩٤)

ابن دويد ـ بالواو: اسمه محمد بن سهل. (١٠٨٨)

الدركاذو المغربى: اسمه عبد الملك بن محمد.

ابن ددّوه: حماد بن مسلم.(١٣٠)

فكتابه "الوافى بالوفيات" مصدر الفوائد الجليلة يقصده كل أديب ومؤرخ وكاتب التراجم والسير، لأن الصفدي جمع فيه جميع من سمع عنهم لأنه اتخذ العهد على نفسه أن لا يترك صغيراً ولا كبيرا إلا أن يدمجه في كتابه ففيه ما في وفيات الأعيان لابن خلكان وطبقات الأدباء لياقوت الحموى مع زيادات كثيرة فأتت هذين المؤلفين أو حدثت بعدهم يقول العلامة كرينكو كما نقل عنه محمد كرد على "إنا نجد في كتاب الوافى تراجم كثيرة نحاول عبثا الظفر بمثلها في الكتب

التي تماثل الوافى بموضوعها، والفهرس التام لأسماء الأشخاص الذين وردت تراجمهم في الأجزاء المعروفة من هذا الكتاب يتألف منها مجلد ضخم".(١٣١)

ونحس في هذا الكتاب دقة الباحث ووقار العلم وذوق الأديب وفيض المؤرخ كان الصفدي اعتمد في جمع هذه اللآلى المنتثرة في سلكٍ واحدٍ على مصادر كثيرة اعتمد في تراجم معاصريه على الرواية المسموعة وعلى المعرفة والمشاهدة، وكان يطلب إلى بعضهم أن يمدوه بمعلومات عنهم ليسجلها في كتابه وتم طبع هذا الكتاب القيم بمجهودات هلموت ريتر التي بذلها في جمع هذا الكتاب فإنه كان يجول من بيت إلى بيت يسئل كل عامة الناس وخواصهم عن مكان هذا الكتاب، فأثمرت مجهوداته وجاء الكتاب أمام القراء بثلاثين مجلداً.

الفصل الثاني: الشعر.

تشنيف السمع بانسكاب الدمع:

هكذا أورد بعض المترجمين وهو خطأ فإن اسم الكتاب الأصلى "لذة السمع في صفات الدمع" فإن الصفدي أورد في سماع له كتبه بخطه أسماء كتبه التي ألفها حتى سنة ٧٤٥هـ ففيه ذكر اسم هذا الكتاب " لذة السمع في صفات الدمع" وكان الدكتور صلاح الدين المنجد قد أرسل هذا السماع إلى أستاذه العلامة المرحوم خليل مردم بك فنشر صورته في مجلة المجمع العلمى المجلد ٣٣سنة ١٩٥٨م. واطّلع الدكتور على نسخة منه حيث قال "ومن هذا الكتاب مخطوطة لم يذكرها بروكلمان رأيناها في مكتبة إسماعيل صائب برقم ١٣٨٥. وهي من القرن الثامن الهجرى".(١٣٢)

وجمع الصفدي في هذا الكتاب ماقاله الشعراء في الدمع ووصفه، فبدأ بالبكاء منذ قول امرىء القيس منه، حتى جرى كالأنهار وطمى كالبحور في عصره مع مقدمة حسنة في النقد. وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة ١٣٢١هـ فهو في الحقيقة ديوان لشعره ولشعر بعض الشعراء المعاصرين في الدمع وهو في ٣٧ فصلاً.(١٣٣)

الحسن الصريح في مائة مليح:

مجموعة أشعار في الغلمان، وهو مخطوط منه نسخة في دار الكتب الظاهرية رقم ٥٦٥٧ وأورده بروكلمان. في ٣٢-١١ Gal المتحف البريطانى ١١١٢ وآياصوفيا ٣١٧٧ وفي دار الكتب تيمورية ٢٣٦ أدب.(١٣٤) وجاء في دائرة المعارف الإسلامية "وهو ديوان من الشعر تافه أيضا يشتمل على مائة شاهد من الشعراء نظمها الشعراء المعاصرين هم والصفدي نفسه في ذوى الحسن من الشباب".(١٣٥)

رصف الزلال في وصف الهلال:

وقد أورد هذا الاسم محمد على سلطانى في تحقيق كتاب الصلاح الصفدي "نصرة الثائر على المثل السائر" وطبعه الدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى في تحقيق كتاب الصفدي "فض الختام عن التورية والاستخدام" وعبد الاله نبهان في تحقيق كتاب الصفدي "غوامض الصحاح" ولكن الاسم

الحقيقى لهذا الكتاب هو .رشف الزلال في وصف الهلال. كما يقول الدكتور صلاح الدين المنجد "والاسم رشف الزلال ..." لا وصف الزلال ولا رصف الزلال وقد ورد صحيحا عند ابن تغرى بردى، وهدية العارفين.(١٣٦)

وكذا ورد في دائرة المعارف الإسلامية وجاء فيه وهو "ديوان من الشعر في وصف الهلال.(١٣٧) وجاء فيه أيضا أن السيوطى كتب مصنفا يشتمل على أبيات من الشعر للصفدي ومعاصريه في الهلال استخلصها من التذكرة للصفدي وأطلق عليه العنوان نفسه الذي ورد في رقم ١٨ (هو رشف الزلال في وصف الهلال) فلما تبين هذا أعاد النظر في تسمية كتابه وأطلق عليه .رصف اللآل في وصف الهلال.".(١٣٨)

وقد طبع هذا الكتاب كما جاء في الأعلام للزركلى ولكن لم نطلع عليه حتى الآن.

الروض الناسم والثغر الباسم:

كذا ذكره محمد على سلطانى ومثله ذكر في دائرة المعارف الإسلامية وقيل هو ديوان من هذا القبيل (أى ديوان صغير من القصائد يشمل كلمات تتفاوت معانيها بتفاوت لغتها) يضم مقتطفات مشيرة للشهوة.(١٣٩)

وقال خير الدين الزركلى إن الكتاب مخطوط واسمه الروض الناسم ....خ.(١٤٠) ولكن تغرى بردى ذكر في المنهل الصافى اسم هذا الكتاب "الروض الباسم والعرف الناسم" وتبعه عبد الاله نبهان في تحقيق كتابه .غوامض الصحاح. وذكر بروكلمان أن نسخة منه في الإسكوريال ١٨٤٨.(١٤١)

قصيدة:

لم نطلع على أحد يذكر هذا الكتاب في مصنفات الصلاح الصفدي إلا برو كلمان فإنه ذكر أن هذا الكتاب له موجود في برلين.

قصيدة تائية :

هذا الكتاب كالكتاب السابق نسبه بروكلمان إلى الصلاح الصفدي، كذا ذكره محمد علي سلطاني محقق "نصرة الثائر على المثل السائر" للصفدي وعبد الإله نبهان محقق كتاب "غوامض الصحاح".

قصيدة لامية : ذكر الأستاذ حسن الكرمى أن لامية الصفدي ستون بيتا ولكن طبع من هذه الأشعار سبع وعشرون بيتا باعتناء الدكتور محمد صالح البنداق في الجواهر المختارة من تراث العرب. ونوردها نموذجا من هذه القصيدة اللامية :

الجدفى الجدو الحرمان في اللسكى * فانصب تصب عن قريب غاية الأمل.
واصبر على كل ما يأتى الزمان به * صبر الحسام بكف الدارع البطل .
وجانب الحرص ولأطماع تحط بما * ترجو من العز والتأييد في عجل .
ولا تكون على ما فات ذاخزن * ولا نظل بما أوتيت ذا جذل.
واستشعر الحلم في كل الأمور ولا * تسرع ببادرة يوما إلى رجل.(١٤٢)

كشف الحال في وصف الخال:

مجموعة شعرية، وهو مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٢٠٨/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وهدية العارفين ٣٥١/١. وعند بروكلمان توجد نسخة منه في هافانا. ومنه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم عام ٦٩٢٧ وفي دار الكتب المصرية تيمورية. ١٠٥٢ أدب.(١٤٣) وهذا الكتاب ديوان صغير من القصائد يشتمل كلمات تتفاوت معانيها بتفاوت لغتها.(١٤٤)

وقد أكثر فيه الصفدى من الجناس المصحف وفيه خلاعة.

الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه:

ورد في الدرر الكامنة بعنوان التنبيه على التشبيه ٢٠٨/٢ وفي الأعلام "الوصف والتشبيه" ٣١٦/٢ ولعل ذلك كان اختصاراً لعنوان الكتاب الأصلى، وهذا الكتاب ديوان من الشعر حافل بالمجاز

والكناية وقال جرجي زيدان عنه "مجموعة أمثلة في باريس".(١٤٥) وذكر في الدرر المنتخب أنه مجلدان.

المختار من كشف الحال في وصف الخال:

يبدو من عنوانه أنه مختصر من كتابه "كشف الحال في وصف الخال" ذكره الدكتور ششن في نوادر المخطوطات ٢/١٦٥ وذكر أنه في قراجلبى زاده رقم ٣/٣١٣ وكتبت سنة ٧٦٥هـ من ٩٠ أ إلى ١١٤ ب.(١٤٦)

وللصفدي مؤلفات أخرى غير ما ذكرناه وهى : تاريخ الوافى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، رصف اللآل في وصف الهلال، المجاز إلى الحجاز، عواصى الصحاح، قطعة من عمل في الأغلاط اللغوية، مفاتيح الأسرار ومصابيح الأكوار، وموشح، وله إلى جانب هذه المؤلفات رسائل عديدة

كتبها إلى معاصريه وكتبوا إليه فمن رسائله:

رسالة كتبها صلاح الدين الصفدي مهنئا القاضى جمال الدين أبا إسحاق إبراهيم بن محمود بعودته إلى منصب كتابة السر الشريف بحلب المحروسة عام ٧٣٠هـ وقد جمع هذه الرسالة محمود رزق سليم مع رسائل أخرى في كتابه عصر سلاطين المماليك وهذه نص الرسالة:

وقد افتتحها بأبيات شعرية منها:

بعودتك الغراء قرت نواظر * وأمست وجوه البشر وهي نواضر.
فروض الأماني ظله بك وارف * وحوض الهانى ظله منك وافر.
لأنبائك الحسنى أصخنا مسامعا * فياطيب ما أملك علينا البشائر.

وبعد أبيات أخرى قال:

يقبل الأرض ويهنئ نفسه والأنام والأيام، ومن خط الطروس ووشى برودها بالأقلام، ومن كتب الإنشاء فآخى من كلامه بين الجواهر في النظام، ومن نظم قريضه فأخمل في الخمائل ساجعات الحمام لأن مولانا بسط الله ظله، بركة هذا الوجود. ومن هبات نسيمه ينشق الناس عرف الهبات والجود.

وينهى ما حصل له من الابتهاج والسرور. والهناء الذي التحف منه بالتحف وحباه الحبور. فالله تعالى، يديم آيام مولانا التى هى أمان من الحوادث والغير وجمال الكتب والسير بمنه وكرمه...الخ.

وانتهى الرسالة بقوله:

والملوك يرجو أن تكون الآخرة إلى خير، فقد قربت المنزلة وحث إليها السير، وقد تقلد المملوك لمولانا هذا الإحسان وهو يعتذر من التقصير بشكر هذه العوارف الحسان، فلو كان بين يدى مولانا لانفتح له من المعانى كل باب. واقتبس من فوائده وفرائده ماينظمه في سلك هذا الجواب. وإنما يعده عن فضائل مولانا أوجبت له الاعتراف بتقصيره. والتعويض بقليل اللفظ عن كثير. وما تم غير صفح مولانا الجميل والله يبلغه من الأمانى نهاية التأميل بمنه وكرمه.(١٤٧)

وكتب صلاح الدين الصفدي رداً على رسالة ابن نباتة كتبها إليه وقد بادله عتابا بعتاب، واعتذر إليه وقارضه الثناء. قال من ذلك:

وينهى ورورالمثال العالى والفضل الذي نصب لى لواء الفخرلو أنه كما أعهده متوالى والبر الذي كم تمسكت بحباله فأرسل الحبالى، والروض الذي هو لابن الشجرى نهاية الامانى في الامالى، والازاهر التي أصبحت من جناة جناتها فلا بدع إذا كنت لنا رعتبها اليوم صالى.

إذ لم يخن صب ففيم عتاب * وان يكن ذنب فمم يتاب

أجل مالنا الاهواكم جناية * فهل عندكم غير الصدود عقاب.

فوقف المملوك عليه، بعد أن تمثل واقفا لديه، وشاهد ذلك اللفظ الرقيق المشتمل على العتب الفظ وتحقق أن هذا من جزئيتا ماساق إليه القسم وحض عليه الحظ.

وغايتى أن الوم حظى * وحظى الحائط القصير.

ولقد علم المملوك عند رؤيته إنه غمامة تقعقع بالعتب رعدها عند الفضّ ورسوله جاء بعد فترة يدعو القلب إلى الكسر والطرف إلى الغض وخصم يروع بالعتب ويروق باللطف وكذا جرى لأن الروع تعجّل نقده في النض.

هذا عتابك الاّ أنه مقة * قد ضمنّ الدرّ الا أنه كلم.

فياله من عتاب ماحاك العتّابى منه لقطة لفظة، ولا رقا إلى رقته عتاب جرى بين الزمان وجحظة ولا استحضر مهديه عند تسطيره من القرآن الكريم "وليجدوا فيكم غلظة"

أطيب أيام الهوى يومك الذي * تروّع بالهجران فيه وبالعتب.

إذا لم يكن في الحب سخط ولارضى * فاين حلاوات الرسايل والكتب.(١٤٨)

وكتب صلاح الدين الصفدي أيضا إلى بهاء الدين أبى حامد السبكي.

وكانت بينهما صداقة وطيدة. رسالة في الشوق والشكر والولاء والمدح، رداً على رسالة وردت إليه منه ،وقد قدمها الصفدي بأبيات شعرية، ثم قال:

"يقبل الأرض حيث تضع الملائكة الأجنحة ويتخذ الأنام من الدعاء في مواطنها مواضى الأسلحة ويفعل الله بها ما أحب فإنه لايجب عليه شيء وإن راعى المصلحة ويعمل طلاب العلم إليها الركاب بكل يعمله كان راكبها غصن بمروحة.

وإنى بتقبيل لك الأرض والثرى * على كل من فاخرته لفخور.

تقبيلا يثبت له الجوهر الفرد فان كل جزء منها للقبل يتجزأ ويحط به أثقال خطور أقعدته عن اللحاق به عجزا، ويتشرف بمشافهه تربها فإن له منها أقل الاجزاء أجزاء.

ترابهم وحق أبى تراب * أعز على من عين اليمين.

وينهى بعد وصف ولاء حكم بتصديقه لما تصوره كل منطقى ومنطيق، ودل بالمطابقة والتضمين والالتزام على أنه في الوفاء عريق، عرى من تلف التلفيق، وأصبح وحده جامع مانع لأن حنسه القريب هو الإخلاص وفصله التحقيق.

عرفت بصدق الود فيك لأننى * رفعت بلا عجز ولاء ولائى" ...الخ.(١٤٩)

المصادر والمراجع للباب الخامس.

(١) الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلانى، ٢٠٩/٢.

(٢) طبقات الشافعية، تاج الدين السبكى، ٩٤/٦.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، ٣٠٣/١٤.

(٤) الأعلام، خير الدين الزركلى، ٣١٥/٢.

(٥) كنوز الاجداد، محمد كرد على، ص: ٣٨١.

(٦) الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلانى، ٢٠٩/٢.

(٧) المنهل الصافى، ابن تغرى بردى، ٦٦/٢،٦٧.

(٨) صلاح الدين الصفدي ومنهجه في دراسة النص الأدبى ونقده، الدكتور حسن ذكرى حسن، ص: ٤٤.

(٩) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج - ٢ مجلد - ٤٩ ص: ٤٢٢.

(١٠) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطانى، ص: ١٤.

(١١) المنهل الصافى، ابن تغرى بردى، ٦٧/٢.

(١٢) هدية العارفين، البغدادى، ٣٥١/١.

(١٣) كتاب نصر الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطانى، ص: ١٥.

(١٤) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤٢٣، ٤٢٤.

(١٥) نوادر المخطوطات، الدكتور رمضان ششن، ١٦٤/٢.

(١٦) هدية العارفعين، البغدادى، ٣٥٢/١.

(١٧) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤٢٤.

(١٨) الدر المنتخب، ابن خطيب الناصرية، رقم الترجمة ٥١٤.

(١٩) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤٢٤.

(٢٠) غوامض الصحاح للصفدي، عبد الاله نبهان، ص: ٢٨.

(٢١) المصدر السابق، ص: ٢٩.

(٢٢) تصحيف التصحيف وتحرير التحريف للصفدي، السيد الشرقاوى، ص: ٢٦.

(٢٣) غوامض الصحاح للصفدي، عبد الاله نبهان، ص: ٢٩.

(٢٤) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطانى، ص: ١٦.

(٢٥) لوعة الشاكى ودمعة الباكى، صلاح الدين الصفدي، المقدمة ص: ١، ٢.

(٢٦) عصر سلاطين المماليك، الدكتور محمود رزق سليم، ج ـ ٥ ص: ٢٨٢.

(٢٧) فض الختام عن التورية والاستخدام للصفدي، الدكتور المحمدى عبد العزيز الجناوى، ص: ٢٢.

(٢٨) الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلانى، هامش ٢/٢٠٨.

(٢٩) تاريخ الأدب العربى، برو كلمان، ٢/٢٨.

(٣٠) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان، ٣/١٧٢.

(٣١) كذا في تاريخ الأدب العربى لبروكلمان الملحق ٢/٢٩ والدر المنتخب لابن خطيب الناصرية، الترجمة ٥١٠، وكشف الظنون لحاجى خليفه، ١/٣١.

(٣٢) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ـ ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤١٨.

(٣٣) المصدر السابق، ص: ٤١٩.

(٣٤) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطانى، ص: ١٤.

(٣٥) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ـ ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤٢٢.

(٣٦) جنان الجناس في علم البديع، صلاح الدين الصفدي، ص: ٧.

(٣٧) المصدر السابق، ص: ٦.

(٣٨) المصدر السابق، ص: ٣٦.

(٣٩) مجلة المنهل، الجزء، ٨ ـ المجلد ـ ٢٩، ص: ١١٠٣.

(٤٠) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطانى ص: ١٤.

(٤١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ـ ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤٢٢.

(٤٢) الأعلام، خير الدين الزركلى، ٣١٦/٢.

(٤٣) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطانى، ص:١٦.

(٤٤) فض الختام عن التورية والاستخدام للصفدي، الدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى، ص:١٠٨، ١٠٩.

(٤٥) فض الختام عن التورية والاستخدام، صلاح الدين الصفدي، ص:٨، ٩.

(٤٦) المصدر السابق، ص: ١٠.

(٤٧) فض الختام عن التورية والاشتخدام للصفدي، الدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى، ص: ٦٤.

(٤٨) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطانى، ص:١٢.

(٤٩) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص:٤١٩.

(٥٠) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطانى، ص:١٣.

(٥١) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف للصفدي، السيد الشرقاوى ص: ٢٩.

(٥٢) المصدر السابق، ص: ٣٠، ٣١.

(٥٣) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون لصلاح الدين الصفدي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ص/١٥، ١٦.

(٥٤) عصر سلاطين المماليك، الدكتور محمود رزق سليم، ٣٣٩/٥، ٣٤٠.

(٥٥) هدية العارفين، البغدادى ٣٥١/١ والمنهل الصافى، ابن تغرى بردى ٦٨/٢.

(٥٦) دائرة المعارف الإسلامية، ٢٢٣/١٤.

(٥٧) غوامض الصحاح للصفدي، عبد الاله نبهان، ص:٢٨.

(٥٨) الأعلام، خير الدين الزركلى، ٣١٦/٢.

(٥٩) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص:٤٢٤.

(٦٠) الأعلام، خير الدين الزركلى، ٣١٦/٢.

(٦١) معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف سركيس، ص:١٢١٢.

(٦٢) كشف الظنون، حاجى خليفة، ١٥٣٧/٢.

(٦٣) المصدر السابق،١٥٣٧/٢، ١٥٣٨ مع زيادة ونقص وتلخيص.

(٦٤) الغيث المسجم في شرح لامية العجم، صلاح الدين الصفدي، ١٠/١.

(٦٥) المصدر السابق، ص: ٥٤/١.

(٦٦) المصدر السابق، ٢٣١/١،٢٣٢.

(٦٧) المصدر السابق، ٥٤/٢.

(٦٨) دائرة المعارف الإسلامية، ٢٢٣/١٤.

(٦٩) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر(مع الإيجاز) صلاح الدين للصفدي.

(٧٠) المصدر السابق، ص: ٤٤.

(٧١) المصدر السابق، ص: ٧١-٧٥، مع الأخذ والترك.

(٧٢) المثل السائر، ابن الأثير، ١٢٤/٢.

(٧٣) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر صلاح الدين الصفدي، ص: ٢٦٩.

(٧٤) المثل السائر، ابن الأثير، ٤٤/١،٤٥.

(٧٥) نصرة الثائر على المثل السائر، صلاح الدين للصفدي، ص: ٦٦،٦٧.

(٧٦) المصدر السابق، ص: ٦٨.

(٧٧) المثل السائر، ابن الأثير، ٤٤/١.

(٧٨) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤٢٥.

(٧٩) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان، ١٧٣/٣.

(٨٠) فض الختام عن التورية والاستخدام للصفدي، الدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى، ص: ١٠٣.

(٨١) المصدر السابق، ص: ١٠٣.

(٨٢) البدر الطالع، الشوكانى، ٢٤٢/١.

(٨٣) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤١٨.

(٨٤) هكذا نقل عنه عبد الاله نبهان في تحقيق كتاب غوامض الصحاح لصلاح الدين الصفدي، ص: ٢٠.

(٨٥) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ١٧٢/٣.

(٨٦) الأعلام، خير الدين الزركلي، ٣١٥/٢.

(٨٧) مجلة الدارة، العدد: ٣، موازنة بين سجع المطوق لابن نباتة وألحان السواجع لصلاح الدين الصفدي، الدكتور محمد عبد الحميد سالم، ص: ١٩٥.

(٨٨) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطاني، ص: ١٣.

(٨٩) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤١٩-٤٢١.

(٩٠) طبقات الشافعية، تاج الدين السبكي، ٩٥/٦.

(٩١) عصر سلاطين المماليك، الدكتور محمود رزق سليم، ٣٥٤/٥.

(٩٢) المصدر السابق، ص: ٣٥٤.

(٩٣) المصدر السابق، ص: ٣٥٥، ٣٥٦.

(٩٤) المصدر السابق، ص: ٣٥٧، ٣٥٨.

(٩٥) مسالك الأبصار، ابن فضل الله العمرى، ٢٠١/١.

(٩٦) دائرة المعارف الإسلامية، ٢٢٢/١٤.

(٩٧) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج -٢ مجلد - ٤٩، ص: ٤٢٣.

(٩٨) الأعلام، خير الدين الزركلي، ٣١٦/٢.

(٩٩) معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف سركيس، ص: ١٢١٢، ١٢١٣.

(١٠٠) غوامض الصحاح للصفدي، عبد الاله نبهان، ص: ٣٠.

(١٠١) نكت الهميان ونكت العميان، صلاح الدين الصفدي، ص: ٦٦.

(١٠٢) المصدر السابق، ص: ٦٧.

(١٠٣) المصدر السابق، ص: ٧١.

(١٠٤) المصدر السابق، ص: ٧٢.

(١٠٥) المصدر السابق، ص:١٧٧.

(١٠٦) الفيصل، مجلة ثقافية شهرية العدد: ٢١٩، الدكتور فاروق الباز، ص:٩٩.

(١٠٧) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ١٧١/٣.

(١٠٨) المجلة العربية، العدد: ٧٣، الصفدي شعلة في عصر مظلم بقلم الدكتور طاهر تونسى، ص: ٦٤.

(١٠٩) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين،الدكتور فيليب حتى، ٢٩٣/٣، ٢٩٤.

(١١٠) تاريخ الأدب العربى، الأستاذ نيكولسن، ص: ٤٥٦.

(١١١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص:٤٢٥ (إن الصفدي ذكر في سماع له كتبه بخطه أسماء كتبه التي ألفها حتى سنة ٧٤٥هـ وكان صلاح الدين المنجد أرسل هذا السماع إلى الأستاذ العلامة خليل مردم بيك فنشر صورته في مجلة المجمع العلمى. المجلد -٣٣ سنة ١٩٥٨م- ص: ٥١٧ ففى هذا السماع جاء قول الصفدي هذا)

(١١٢) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ٥/١، ٦.

(١١٣) المصدر السابق، ٦/١، ٧.

(١١٤) المصدر السابق، ١١/١، ١٢.

(١١٥) المصدر السابق، ٢١/١.

(١١٦) المصدر السابق، /٣٣، ٣٤.

(١١٧) المصدر السابق، ٤٠/١، ٤١.

(١١٨) المصدر السابق، ٤٤/١.

(١١٩) المصدر السابق، ٤٦/١.

(١٢٠) المصدر السابق، ٥٥/١.

(١٢١) مناهج التأليف عند علماء العرب، الدكتور مصطفى الشكعة، ص:٥٩٦.

(١٢٢) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ٩٤/١.

(١٢٣) المصدر السابق، ١١/٩.

(١٢٤) المصدر السابق، ٨/٤١٠.

(١٢٥) المصدر السابق، ٨/٤٢٩.

(١٢٦) المصدر السابق، ٨/٣٩٩.

(١٢٧) المصدر السابق، ٩/٥، ٦.

(١٢٨) المصدر السابق، ٩/٨.

(١٢٩) المصدر السابق، ٢٢/٣٤.

(١٣٠) المصدر السابق، ١٤/٧.

(١٣١) كنوز الاجداد، محمد كرد على، ص: ٣٨٣.

(١٣٢) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤٢١.

(١٣٣) دائرة المعارف الإسلامية، ١٤/٢٢٢.

(١٣٤) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطانى ص: ١٤.

(١٣٥) دائر المعارف الإسلامية، ١٤/٢٢٢.

(١٣٦) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج - ٢ مجلد ٤٩ ص: ٤٢٣.

(١٣٧) دائر المعارف الإسلامية، ١٤/٢٢٢.

(١٣٨) المصدر السابق، ص: ١٤/٢٢٣.

(١٣٩) المصدر السابق، ص: ١٤/٢٢٢.

(١٤٠) الأعلام، خير الدين الزركلى، ٢/٣١٦.

(١٤١) تاريخ الأدب العربى، بروكلمان، ٢/٣٣.

(١٤٢) الجواهر المختارة من تراث العرب، محمد صالح البنداق، ص: ٦٤.

(١٤٣) كتاب نصرة الثائر على المثل السائر للصفدي، محمد على سلطانى ص: ١٦.

(١٤٤) دائرة المعارف الإسلامية، ١٤/٢٢٢.

(١٤٥) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان، ٣/١٧٣.

(١٤٦) غواض الصحاح للصفدي، عبد الاله نبهان، ص: ٣٣.

(١٤٧) عصر سلاطين المماليك، الدكتور محمود رزق سليم، ٥/١٦٤،١٦٥.

(١٤٨) الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ١/٣٢١،٣٢٢.

(١٤٩) طبقات الشافعية الكبرٰى، تاج الدين السبكى، ٦/١٠٠،١٠١.

الخاتمة

الخاتمة

إن صلاح الدين الصفدي عاش في عصر مملوكي وهو عصر قد أصيب بكثير من الفتن والاضطرابات، ودارت فيه رحى كثير من الحروب والمعارك بين المسلمين وكل من التتار والصليبيين الذين امتدت أيديهم إلى التراث العربي والإسلامي بالتخريب والتدمير مما دفع العلماء والأدباء إلى قيادة نهضة علمية وأدبية في مصر والشام، فتدفق عديد من العلوم والفنون، كما كثرت فيها الكتب والمؤلفات التي اكتظت بها خزانات الكتب والمكتبات، وبهذا اتسعت ثقافة العلماء والأدباء، وأصبح الأدب عندهم ثقافة شاملة. فكان لهذه البيئة أكبر المكتبات المليئة بالكتب العلمية في تكوين عقل الصفدي وفكره وتغذية ذوقه الأدبي، فاستوت قريحته ونضج ذوقه وكمل أدبه، وصار من أعلام عصره وأغزرهم ثقافة وأدباً وأكثرهم كتبا ومؤلفات، فراح يبحث عن شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته، كما اهتم بالاصابة في الوصف وجودة التراكيب، وحلاوة النظم وإجادة التصرف في فنون القول والتعبير عن خلجات النفس مما جعله يأتي في طليعة من كتب في الأدب والنقد خلال تلك الفترة.

وقد اتضحت لنا خلال بحثنا النتائج المهمة التالية:

إن العصر المملوكي لم يكن عصر انحدار وانحطاط بل هو عصر ازدهار ثقافة اسلامية وتطورها كما هو عصر ظهور العلماء الأجلاء والأدباء البارعين والكتاب النابغين مع ظهور مؤلفات كثيرة في فنون عديدة.

إن الصفدي ظهر كأديب بارعٍ ومؤرخٍ كبيرٍ بعناية من عنده ومجهودات بذلها هو نفسه بعد بلوغه عشرين سنة من عمره. لأن أباه لم يمكنه للتحلى بالعلوم والمعارف. ومع أنه كان يشتغل في كتابة الدواوين والدست والسر وفي كثير من الوظائف الرسمية الهامة متنقلاً من بلاد إلى بلاد حيث اظهر عملاً جثاماً في الأدب والتاريخ، وبرزعالماً كبيراً كان يقصد مجلسه كثير من شيوخه.

كان الصفدي مولعاً بالبديع معجباً بالصناعة فاهتم بهما في كثير من الكتاب في كتاباته ولكنه لم يهمل الاهتمام بالمعنى، بل حرص على صحته واستقامته، وأن يأتي واضحاً لاغموض فيه مع

جزلة اللفظ وإصابة الوصف، واتخذ في ذلك منهج القدماء في البحث عن المعنى الصادق المعبر عن وجدان وأحاسيس قائله، فلم يشغله حبه للبديع وهيامه به عن المعانى والاهتمام بها. بل كان يدعو دائماً إلى عدم تأثير الصنعة وأساليبها على المعاني أو الإساءة إليها، فإن وقع شئ من ذلك استنكره، ووقف منه موقفا متشدداً حتى لو جاء عن طريق كتاب الشعراء.

تميز الصفدي بموقفه المتسامح من قضية السرقات الأدبية التي عرض لها في شرحه وجاءت في العديد من تعليقاته النقدية التي توزعت بين صفحات كتابيه ' الغيث المسجم في شرح لامية العجم' و'تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون' وغيرها من كتب الأخرى، ونتخلص في: إن المعنى لمن يجيده، ويحسن إخراجه والتعبير عنه، بحيث لا يترك لغيره فضل زياده، عندئذٍ يكون أحق بها وأولى، أما المعاني الشائعة والمألوفة فهى ملك مشاع للجميع ولا سرقة فيها ولا يستحقها إلا من أجاد استخدامها وأحسن صياغتها وانتشلها من هذا العموم الشيوع، فيصبح حينئذٍ أولى بها وَأحق، كما أنه لا يرى عيبا في تناول معاني المتقدمين أو أخذ معاني الاخرين بشرط أن يضيف الأخذ جديداً إلى المعنى. فيوضح المبهم أو يستوفي كل جزئيات المعنى التي تركها الأول. ولم يتمكن من الإلمام بها، فله فضل التجويد والإبداع وللأول فضل السبق والتقدم، فإن أخذه فأساء إليه، وقصر في صياغته فيعاب ويذم، ويكشف هذا عن قصور في شاعريته، وعدم تمكنه من فن الشعر وتجويده.

وكتابه الوافى معلمة رجال الإسلام في ثمانية قرون ومن أوسع الكتب في التراجم والسير حتى أصبح معتمداً هاماً لكل من كتب في الطبقات والرجال بعد الصفدي. فاقتبس منه ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة وابن تغرى بردي في النجوم الزاهرة، وهذا الكتاب وحده حقيق بأن يكفل للصفدي مكانة عالية في تاريخنا الأدبي، واستطع الصفدي بتاريخ هذا الكتاب أن يظهر جمع التاريخ مع الأدب، فكما يعد كتابه أكبر الكتب التاريخية يعد من أكبر الكتب الأدبية فإنه كتاب تاريخ وأدب معاً، بل هو موسوعة من موسوعات الثقافة العربية في القرن الثامن الهجري.

وقد نراه أنه في تأليفه قد طرق أبواب موضوعات تندر الكتابة عنها عند الأدباء والكتاب. ومن هذه الموضوعات 'اختراع الخراع' و'تشنيف السمع بانسكاب الدمع' و'جر الزيل في وصف الخيل'

و"رصف الزلال في وصف الهلال" و"الشعور بالعور" و"صرف العين عن حرف العين في وصف العين" و"لوعة الشاكي ودمعة الباكي" و"كشف الحال في وصف الخال" و"نكت الهميان في نكت العميان".

ومما تجدر الإشارة إليه أن معظم آراء الصفدي الأدبية والنقدية التي جاءت خلال شرحه الأدبي تعد ذات أهمية خاصة حيث أنه لم يكن ناقداً تقليدياً، ورث آراءه ومواقفه عن شيوخه وأساتذته دون أن يكون له موقف منها، فقد كان يراجع كل ماسمع ويفحص كل ما يتلقى وله العديد من الآراء والمواقف التي يخالفهم فيها ويتمسك برأيه الذي يعتقد سلامته ويوقن بصحته واستقامته وتجلى ذلك واضحاً في مواقفه المتعددة من الإمام عبد القاهر الجرجاني وابن الأثير وابن أبي الحديد وكذلك موقفه من أستاذه ابن بناتة ولم يخش ما تعرض له من هجوم، وما ترتب على ذلك الاستقلال في الرأى من حملات نقد وتجريح.

وغير ذلك من الآراء والمواقف التي خالف فيها، ما ذهب إليه كثير من النقاد القدماء أو المعاصرين له ،ورأى فيها رأياً مخالفاً لما شاع عنهم.

وأخيراً أرجو أن يكون هذا البحث قد استطاع أن يقدم شيئاً ولو يسيراً من أجل خدمة الدراسات الأدبية والنقدية بعامة ودراسة شخصية أدبية متميزة بخاصة، فإني قد بذلت كل ما في وسعي في إظهار الحقيقة الواقعية ، وكشف الحجاب عنها، وإن كنت واجهت مشكلات عديدة مع أداء مسؤولية أهلية ولكني لم أقصر في تحقيق الموضوع" حيث إننى سلكت في سبيل تناول هذا الموضوع ومعالجته طريقاً وعراً، قام على أساس تقسيم العمل إلى مراحل متسلسلة تسلسلاً مفطقيا.

هذا والله أسأل أن ينفعنى بما كتبت وقرأت، وأن يمدنى بعونه وتيسيره، إنه نعم المولى ونعم النصير.

البيبليوغرافيا.

البيبليوغرافيا.

(مرتباً على الحروف الهجائية حسب أسماء المؤلفات)

(١) الأدب وفنونه دراسة ونقد، الدكتور عزالدين إسماعيل، دار الفكر العربى، الكويت ١٩٨٣م.

(٢) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستانى، دار الجيل ،١٩٧٩م.

(٣) الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد على، مطبعة دار لكتب المصرية، القاهرة،١٩٣٦م.

(٤) الاعلام، خير الدين الزركلى، الطبعة التاسعة، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٠م

(٥) أمرآء دمشق في الإسلام، صلاح الدين الصفدي، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٥٥م.

(٦) البداية والنهاية، حافظ ابن كثير، الطبعة الثانية، مكتبة العارف بيروت، ١٩٧٧.

(٧) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن على الشوكانى ، مطبعة السعادة، بالقاهرة، ١٣٤٨هـ.

(٨) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان ، بيروت، ١٩٦٧م.

(٩) تاريخ ابن قاضى شهبة، ابن قاضى شهبة الأسدى، دمشق،١٩٧٧م .

(١٠) تاريخ الأدب العربى، عصر الدول الامارات والشام ، الدكتور شوقى ضيف، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة،١٩٩٠م .

(١١) تاريخ الأدب العربى، كارل بروكلمان، نقله إلىالعربية الدكتور عبد الحليم النجار، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧م.

(١٢) تاريخ الأدب العربى ، عمر فروخ، الطبعة الثالثة، بيروت ،١٩٨١م.

(١٣) تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر، الدكتور عبد الكريم غرايبه وآخرون، بيروت ،١٩٧٤م.

(١٤) تاريخ العرب الأدبى في الجاهلية وصدر الإسلام، رينولد نكلسن، ترجمة وتحقيق الدكتور صفاء خلوصى ، مطبعة المعارف ، بغداد،١٩٦٩م.

(١٥) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الدكتور فيليب حتى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م.

(١٦) تاريخ العرب، فيليب حتى، ترجمة ادوارد جرجي وزميله، القاهرة، ١٩٦١م .

(١٧) التاريخ العربي والمؤرخون، شاكر مصطفي، الطبعة الأولى دارالعلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م.

(١٨) التاريخ والمؤرخون العرب، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة سباب الجامعة إسكندرية، ١٩٨٦م.

(١٩) التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، الدكتور عبد الله عبد الدائم، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣م.

(٢٠) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، صلاح الدين الصفدي، تحقيق السيد الشرقاوى، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٢١) التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسين الذهبى، الطبعة الأولى، دار القلم بيروت، بدون تاريخ.

(٢٢) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، صلاح الدين الصفدي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربى، ١٩٦٩م.

(٢٣) الجديد في الأدب العربي، حنا الفاخورى، دار الكتب اللبنانى، بيروت، ١٩٦٤م.

(٢٤) جنان الجناس في علم البديع، صلاح الدين الصفدي، مطبعة الجوائب، فسطنطنية، تركيا، ١٩٢٩م.

(٢٥) الجواهر المختارة من تراث العرب، الدكتور محمد صالح البنداق، دار الافاق الجديندة، بيروت، بدون تاريخ.

(٢٦) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مصر، ١٣٢٧هـ.

(٢٧) دائرة المعارف، البستانى، المطبعة الهلال، بمصر، ١٨٩٨م.

(٢٨) دائرة المعارف الإسلامية.

(٢٩) دراسات في حضارة الإسلام، هاملتون جب، ترجمة الدكتور إحسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٦٤م.

(٣٠) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد ، الهند، ١٩٧٣م.

(٣١) سير اعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي ، الطبعة السابعة، موسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠م

(٣٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

(٣٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي، الدكتور مصطفي الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩١م.

(٣٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، القاهرة ، ١٩١٤م.

(٣٥) صلاح الدين الصفدي ومنهجه في دراسة النص الأدبي ونقده، الدكتور حسن ذكرى حسن، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٩م.

(٣٦) طبقات الشافعية الكبرٰى، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق، محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٤م.

(٣٧) الطغرائ حياته-شعره-لاميته، علي جواد طاهر، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٣م.

(٣٨) عصر سلاطين المماليك، الدكتور محمود رزق سليم، وزارة الثقافة والارشاد القومي، مصر، ١٩٦٢م.

(٣٩) غوامض الصحاح، صلاح الدين الصفدي ، تحقيق عبد الاله نبهان ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، ١١٩٨٥م.

(٤٠) الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، صلاح الدين الصفدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٧٥م،

(٤١) الفاروق عمر بن الخطاب، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م.

(٤٢) فض الختام عن التورية والاستخدام ، صلاح الدين الصفدي ، تحقيق الدكتور محمد عبد العزيز الحناوى، دار الطباعة المحمدية، ١٩٧٩م.

(٤٣) فن الجناس عند الصفدي ، عبد العزيز بن عبد الرحمٰن الشعلان، جامعة الإمام محمد بن سعود والاسلامية، بالرياضن ١٩٨٧م.

(٤٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي، الدكتور شوقى ضيف، القاهرة، ١٩٥٦م.

(٤٥) فوات الوفيات، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥١.

(٤٦) كتاب خزانة الأدب، ابن حجة الحموي، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٤هـ.

(٤٧) كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط و الأمصار، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزى، فرنس، ١٩١١م.

(٤٨) كشف الظنون عن أسامى الكتب الفنون، حاجى خليفة، مصطفى بن عبد الله، استانبول ١٩٥٥م.

(٤٩) كنوز الأجداد، محمد كرد على، مطبعة الترقي، بدمشق، ١٩٥٠م.

(٥٠) لبنان في التاريخ ، فيليب حتى، ترجمة انيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م.

(٥١) لسان العرب، ابن منظور، بيروت، ١٩٥٥م.

(٥٢) لوعة الشاكى ودمعة الباكى، صلاح الدين الصفدي، مطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٢م.

(٥٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، تحقيق، محى الدين عبد الحميد، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابى الحلبى، مصر، ١٩٣٩م.

(٥٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الشيخ محمد الخضرى بك، مطبعة مصطفى محمد، مصر، ١٩٢٢م.

(٥٥) محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، الدكتور عبد اللطيف الطيباوى، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٣م.

(٥٦) المدخل إلى التاريخ الحضارة، الدكتور جورج حداد، مطبعة الجامعة، السورية، ١٩٥٦م.

(٥٧) مسالك الابصار في ممالك الامصار، ابن فضل الله العمرى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤م.

(٥٨) مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، الدكتور إبراهيم على طرخان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.

(٥٩) مصر والشام في الغابر والحاضر، الدكتور أسعد طلس، دار المعارف، مصر، ١٩٤٥م.

(٦٠) مطالعات في الشعر المملوكى والعثمانى، الدكتور بكرى شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م.

(٦١) معجم البلدان، ياقوت الحموى، بيروت، ١٩٥٧م.

(٦٢) معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثانى عشر الهجرى، يسرى عبد الغنى عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.

(٦٣) معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف سركيس، مطبعة سركيس، مصر، ١٩٢٨م.

(٦٤) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٥٧م.

(٦٥) المفصل في تاريخ الأدب العربى، أحمد الإسكندرى وآخرون، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٤م.

(٦٦) مناهج التأليف عند العلماء العرب، الدكتور مصطفى شكعة، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩١م.

(٦٧) المنتخب من أدب العرب، أحمد الإسكندرى وآخرون، دار الكتب العربى، مصر، ١٩٥٤م.

(٦٨) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافى، جمال الدين أبى المحاسن يوسف ابن تغرى بردى الأتابكى، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٦م.

(٦٩) الموسوعة التاريخ الإسلامي، الدكتور أحمد شلبى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.

(٧٠) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبى المحاسن يوسف ابن تغرى بـردى الأتابكى، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠م.

(٧١) نصرة الثائر على المثل السائر، صلاح الدين الصفدي، تحقيق محمد على سلطانى، دمشق، ١٩٧١م.

(٧٢) النقد الأدبى في العصر الجاهلى وصدر الإسلام، الدكتـور محمـد إبراهيـم نصـر، دار الفكـر العربى، الرياض، ١٣٩٨هـ.

(٧٣) النقد العربى القديم، الدكتور العربى حسن درويش، مكتبة النهضة، بدون تاريخ.

(٧٤) النقد في التراث العربى، الدكتور عبده عبد العزيز قلقيله، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.

(٧٥) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ناشر هلموت ريـتر، الطبعـة الثانيـة، إسـتانبول، ١٩٦٢م.

(٧٦) الوسـيط في الأدب العربـى وتاريخـه، أحمـد الإسـكندرى وآخـرون، دار المعـارف، مصـر، ١٩٦١م.

(٧٧) وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بـن خلكـان، تحقيق، محمد محى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م.

(٧٨) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا بن محمد أمين بـن مـير سـليم البابانى البغدادى، إستانبول، ١٩٥١م.

المجلات والجرائد والدوريات

(١) الرسالة، مجلة أسبوعية للأدآب والعلوم والفنون، تصدر من القاهرة، العدد، ١٢١ـ اكتوبر، ١٩٣٥م، العدد، ١٢٣ـ نوفبر، ١٩٣٥م، العدد، ١٢٤ـ نوفمر، ١٩٣٥م، العدد، ٧٩٣ـ سبتمبر، ١٩٤٨م، والعدد، ٨٠٧ـ ديسمبر، ١٩٤٨م.

(٢) رسالة الخليج العربى، العدد الثامن، الرياض، ١٩٨٢م.

(٣) عالم الكتب مجلة محكمة متخصصة في الكتاب وقضاياه، العدد الثالث، مايو ـ يونيو، ١٩٩٧م.

(٤) الفصيل، مجلة ثقافية شهرية العدد: (٢١٩) فبرائر، ١٩٩٥م.

(٥) لغة العرب، مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية، الجزء الثامن، اكتوبر، ١٩٣١م.

(٦) الفكر العربى المعاصر، مجلة فكرية، بيروت، ١٩٨١م.

(٧) لغة العرب، مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية، الجزء الثامن، شباط، ١٩١٢م.

(٨) مجلة العربي، عدد: (١٣) ١٩٥٩م و (٨٣) ١٩٨٤م.

(٩) المجلة العربية، مجلة شهرية ثقافية، العدد: ٧٣ ديسمبر، ١٩٨٣م.

(١٠) مجلة المجمع العلمى العربى، دمشق، ١٩٥٨م.

(١١) مجلة المنهل، الجزء الثامن، المجلد ٢٩، نوفمبر، ١٩٦٨م.

(١٢) Journal of the Panjab University Historical soceity, vol. xxiii Dee. 1984.

المصادر الأجنبية

1. A Critical study of Shams al-din Dhahabis's (D. 749/1347) Contribution to Arabic Literature with special reference to his Historical works, Ph. D. Thesis, Mrs. Sultana Razia khanam, A. M.U. Aligagh, 1990.
2. A History of Palestine from 135 A.D. to Modern times, James Parkes, London 1949.
3. A Literary History of the Arabs, R.A. Nicholson, Cambridge, 1969.
4. The New Encyclopedia of Islam, New edition, Leiden E.J. Brill, 1995.